رواية

تشيزَرِه باڤيزِه

الشيطان فوق التلال

ترجمها عن الإيطالية: گاصد محمد

مكتبة نوميديا

المتوسط

حقوق النسخ والترجمة © 2019 منشورات المتوسط - إيطاليا.

جميع الحقوق محفوظة. لا يُسمح بنسخ أو استعمال أو إعادة إصدار أي جزء من هذا الكتاب سواء ورقياً أو إلكترونياً أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي من الناشر. ويجوز استخدامه لأغراض تعليمية أو لإصدار كتب موجهَّة إلى ضعيفي البصر أو فاقديه شريطة إعلام الدار. تستثنى أيضاً الاقتباسات القصيرة المستخدمة في عرض الكتاب.

Il Diavolo Sulle Colline *by* "Cesare Pavese"
Arabic Copyright © 2019 by **Almutawassit Books**.

المؤلف: تشيزَره باڤيزه/ المترجم: گاصد محمد / عنوان الكتاب: الشيطان فوق التلال
الطبعة الأولى: 2019.
لوحة الغلاف: أيوب ضبابي / تصميم الغلاف والإخراج الفني: الناصري

ISBN: 978-88-32201-31-4

منشورات المتوسط

ميلانو / إيطاليا / العنوان البريدي:
Alzaia Naviglio Pavese. 120/ 20142 Milano / Italia
العراق / بغداد / شارع المتنبي / محلة جديد حسن باشا / ص.ب 55204.
www.almutawassit.org / info@almutawassit.org

تشيزِره باڤيزِه

الشيطان فوق التلال

ترجمها عن الإيطالية: گاصد محمد

المتوسط

تنويــه مــن النــاشر: هذه الرواية هي الثانية من ثلاثية روائية تحمل عنوان (ثلاثية الصيف الجميل: رواية الصيف الجميل 1940، ورواية الشيطان على التلال 1948، ورواية بين نساء وحيدات 1949) كلّ منها تُشكل رواية منفصلة، وكُتبت بشكل مستقل، دون نيّة لكتابة ثلاثية روائية، لكن ارتباطها من حيث الموضوعة التي تتناولها (الانتقال من المراهقة للنضج) جعلت من الناشر الأصلي وقتها، يقوم بجمعها ونشرها معاً على شكل ثلاثية، بالاتفاق مع الكاتب بالطبع. حصلت الثلاثية على جائزة "ستريغا"، أعرق وأرقى الجوائز الأدبية الإيطالية.

ترجمت المتوسط الرواية الأولى (الصيف الجميل) وصدرت عام 2017 وجاري العمل الآن على ترجمة الرواية الثالثة، إضافة للكثير من أعمال هذا الروائي العلامة في الأدب الإيطالي والعالمي.

-1-

كنّا شبّانًا في مقتبل العمر، وقليلًا ما كنتُ أخلد إلى النوم في الليل، ذلك العام. على أنّ لي صديقًا كان ينام أقلّ منّي، فيصادف أن تراه - في بعض الأصباح - وهو يتمشّى أمام محطّة القطار، في الساعة التي يكون فيها رحيل القطارات ووصولها قد بلغ الذروة. وكنّا قد تركناه، آخر الليل، أمام بوّابة العمارة؛ فيقوم بِيَرَتّو، وهذا هو اسمه، بجولة أخرى في المدينة، حتّى يطلّ الفجر، فيحتسي قهوته الصباحية. عندئذٍ يبدأ بتصفّح الوجوه الناعسة لعمّال النظافة وأصحاب الدّرّاجات الهوائية. على أنّه لا يتذكّر أحاديثنا في الليلة السابقة: سهره طوال الليل جعلها تتبخّر من رأسه، فيقول حينها: لقد تأخّر الوقت، سأذهب للخلود إلى النوم.

وعادة ما كان يتبعنا أحد الشّبّان، دون أن يعرف ما الذي قد نقوم به في الساعات المتأخّرة من الليل، بعد أن نغادر السينما، وتُغلق الحانات أبوابها، وتنفد ذخيرتنا من المال، وتنضب الأحاديث كلّها. فيجلس معنا نحن الثلاثة على إحدى الأرائك، يستمع إلينا ونحن نُتمتم أو نضحك بلا سبب، يتحمّس لفكرة إيقاظ فتياتنا أو الذهاب لترقّب الفجر فوق التلال، ولكنْ؛ ما إن يتغيّر مزاجنا حتّى يتّخذ قراره، فيغادرنا مترنّحًا إلى بيته. وفي اليوم التالي، يقابلنا متلهّفًا، ويسألنا:

– ماذا فعلتُم بعد أن غادرتُكم؟

ولم يكن من السهل أن نشرح له الأمر. لقد استمعنا لرجل ثمل، وشاهدنا العمّال يُلصقون اللوحات الإعلانية، وطفنا في الأسواق، ورأينا بعض الأغنام السائبة في الشوارع. عندئذٍ ينبري پيرَتّو، ويقول:

– وتعرّفْنا، أيضًا، إلى إحدى النساء.

يندهش الشّابّ ممّا يسمع، ولكنه يبقى في شكّ من أمره.

– يحتاج الأمر إلى المداومة – يضيف پيرَتّو – تتمشّى ذهابًا وإيابًا تحت شباكها، طوال الليل؛ وهي تعرف ذلك، لأنها تشعر بكَ. ولا حاجة لأن تعرف نواياها، إذ هي تشعر بالرغبة تسري في دمها. حتّى تأتي اللحظة التي تفقد فيها القدرة على المقاومة، فتقفز من على السرير، تفتح الشّبّاك على مصراعَيْه. عندئذٍ تسند أنتَ السّلّم ...

ولكنْ؛ لم نكن، نحن الثلاثة، كثيري الحديث في شؤون النساء، كلا، على الأقلّ، ليس بنحو جادّ. ولم يحدّثني پيرَتّو أو أوريسته عن أسرارهم كلها. وهذا بالضبط هو سبب تعلّقي بهم. إنّ النساء الحقيقيات، الزوجات اللواتي سيفرّقننا – ذات يوم – سيأتينَ فيما بعد. أمّا الآن، فنحن لا نخوض سوى في شؤون عامّة، فنتحدّث عن الشاطئ والشمس، وكانت تلك الأشياء تغمرنا بالمسرّات، حتّى إنّنا كنّا نجد في النوم مضيعة للوقت.

وذات ليلة من ذلك العام، كنّا على ضفاف نهر البو، جالسين على مقعد خشبي أمام الشارع. فتمتم أوريسته:

– لنعد إلى البيت، ونخلد إلى النوم.

– استلقِ ها هنا – قلنا له – أتريد أن تسرف هذه الليالي الصيفية؟ ألا يكفيكَ النوم بعين واحدة؟

وكان أوريسته يسند خدّه على ظهر المقعد، فخزَّر عينَيْه، ونظر إلينا. قلتُ إنه من الصعب النوم في المدينة:

– إنها مضاءة دائمًا، كما لو كان نهارًا. يجب أن نقوم بشيء ما، كل ليلة.

– تقول هذا لأنكما ما زلتُما شابَّيْن – قال پيرَتّو – أنتمُا شابّان نهمان للحياة.

– وأنتَ، ماذا أنتَ؟ – قلتُ – لعلّكَ عجوز؟

فوثب أوريسته فجأة:

– المُسنّون، حسبما يُقال، لا ينامون. وها نحن الشباب نجول طوال الليل. بودّي أن أعرف، مَنْ ينام إذنْ؟

ضحك پيرَتّو بسخرية.

– ماذا هناك؟ – سألتُ بحدّة.

– لأجل أن تنام، يجب أن تضاجع امرأة – قال پيرَتّو – لذلك فلا المُسنّون ولا أنتُم تستطيعون النوم.

– قد يكون كما قلتَ – تمتم أوريسته – ولكنْ؛ حتّى عندئذٍ سأغطّ في النوم.

– أنتَ لستَ ابن مدينة – قال بيرَتّو – بالنسبة إلى شخص مثلكَ، ما زال الليل وافر الدلالات، كما كان ذات يوم. أنتَ أشبه بكلاب الحظيرة، أو بالدجاج.

تجاوزت الساعة الثانية بعد منتصف الليل، وكانت التلال تنتصب ما وراء نهر البو، وفي الجوّ شيء من البرد. نهضْنا، واتّجهنا صوب مركز المدينة. وكنتُ أفكّر بقدرة بيرَتّو الغريبة على الاعتداد بنفسه، وإظهارنا، أوريسته وأنا، على أننا ساذجان. فلا أنا ولا أوريسته، على سبيل المثال، نقضي الليل سهرًا من أجل النساء. وسألتُ نفسي، للمرّة الألف، عن طبيعة الحياة التي عاشها بيرَتّو قبل قدومه إلى تورينو.

على المقاعد الخشبية لحديقة صغيرة أمام محطّة القطار، تحت ظلّ الأشجار، يغطّ متسوّلان في نوم عميق، بفم مفتوح، وشَعْر أشعث ولحية مجعّدة، وقد خلعا قميصَيْهما، فبدوا كعجريَّيْن. وكانت ثمّة مراحيض على مقربة من المكان. ومع نسائم الهواء الطّيّبة وعبق الصيف في تلك الليلة، إلا أن روائح قبيحة ونتنة تنتشر في المكان، وكأنها بقايا النهار المشمس الطويل؛ بما كان فيه من الصخب وحركة الناس الدءوبة والعَرَق ورائحة الإسفلت المتهالك والضجيج الدائم. وكواحة في صحراء قاحلة، تصبح تلك المقاعد – مع حلول المساء – مرتعًا للنساء والوحيدين والباعة المتجوّلين، يجلسون هناك للراحة وقضاء ساعات الضجر والانتظار، في حين تمضي بهم السنون إلى الشيخوخة. ماذا ينتظرون؟ يقول بيرَتّو إنهم ينتظرون حدثًا عظيمًا، كأن تنهار المدينة أو تحلّ نهاية العالم. وتتساقط – أحيانًا – أمطار صيفية غزيرة، فيولّون هاربين، وتغسل الأمطار كل شيء.

وكان المتسوّلان، تلك الليلة، ينامان كالموتى. وفي الساحة المقفرة ثمّة لوحات إعلانية مضيئة، تنعكس أضواءها على جسدَي المتسوّلَيْن.

– أناس هانئة البال – قال أوريسته – يجب أن نتعلّم منهما كيف نصنع – ثمّ هَمّ بالمغادرة.

– تعال معنا – قال له پيَرَتّو – ليس في البيت مَنْ ينتظركَ.

– ولا حتّى حيث تذهبان أنتُما – أجاب أوريسته، لكنه بقي معنا. وسلكْنا الطريق تحت الأروقة.

– يا لروعة المشهد، حين يستيقظ هذان الاثنان، فتغمرهما أوائل خيوط الشمس في الساحة –! قال أوريسته بصوت خفيض. ولم يعلّق پيَرَتّو على الأمر.

– أين نذهب؟ – سألتُهما، وتوقّفتُ عن السير. وتوقّف پيَرَتّو أيضًا، وكان يسبقني ببضع خطوات.

– لو أننا نتّجه إلى مكان معيّن، لتفهّمتُ الأمر – قلتُ – ولكنْ؛ الأماكن كلها مغلقة، والشوارع مقفرة. على أنّي أتساءل: ما فائدة هذه الأضواء كلها؟

ولم يقل پيَرَتّو جملته المعتادة "وأنتَ، ما فائدة وجودكَ؟؟"، لكنه تمتم:

– أترغب في الذهاب إلى التّلّ؟

– أهو بعيد من هنا؟ – سألتُ.

– إنه بعيد، ولكنه يعبق بالأريج.

وسرْنا في الشارع الواسع، وشعرتُ بالبرد ونحن نجتاز الجسر، ثمّ سلكنا الطريق الصاعدة بخطى سريعة، لكي نجتاز – على عجل – ذلك المكان. وكانت الرطوبة عالية والعتمة شديدة، إذ لا قمر في السماء، في حين كانت اليراعات المضيئة تخترق الظلام. مضى بعض الوقت، بدأنا نتصبّب عرقًا، فأبطأنا السير. وكنّا نمشي ونتحدّث عن أنفسنا، نتحدّث بحرارة، وأقحمنا أوريسته – أيضًا – في الحديث. وقد كنّا سلكنا تلك الطريق، من قبل، مرّات كثيرة، يحثّنا النبيذ أو الصحبة الطيّبة. ولكنْ؛ لا أهمّيّة لهذا كله، إنها فقط أعذار للصعود، من أجل أن يكون التّلّ العظيم تحت أقدامنا. وكنّا نمرّ عبر الحقول، والسياجات، وبوّابات الفيلّات الحديدية، ونشمّ رائحة الإسفلت وعبق الغابات.

– لا اختلاف عندي بين هذه الروائح كلها وأريج زهرة في أصيص – قال پيرَتّو.

وبقدر ما يبدو الأمر غريبًا، إلا أننا لم نبلغ قمّة التّلّ، على الأقلّ عبر هذا الطريق. لا بدّ أن هناك نقطة ما، كحافّة المنحدر مثلًا، تصبح فيه الطريق مسطّحة. إنها نهاية السفح، والتي أتخيّلها السياج الأخير، أو أشبه بشرفة مفتوحة، تطلّ على العالم الخارجي للسهل. وقد كنّا بلغنا نقاطًا أخرى من التّلّ، من جهة سوبيرگا أو پينو، وأطللْنا منها على الفضاء، خلال النهار. وقد أشار أوريسته، من ذلك المكان، إلى تلال تبرز في الأفق الشاسع، تكسوها الغابات والظلال، وقال إن بلدته تقع هناك.

– الوقت متأخّر جدًّا – قال أوريسته – عادة ما تكون الحانات هنا مفتوحة.

– إنها تُغلق عند ساعة محدّدة – قال پيرَتّو – لكنّ مَنْ يبقى في الداخل، فإنه يواصل المتعة والبهجة.

– أتحسبون المجيء إلى التّلّ، في الصيف، يستحقّ العناء؟ – قلتُ – أنحن هنا للاستمتاع أمام الأبواب والنوافذ الموصدة؟!

– قد تكون هناك حدائق أو مروج – قال أوريسته – وربمّا هم ينامون فيها.

– سيأتي يوم تنقرض فيه المروج – قلتُ – وتتحوّل إلى بساتين أو مزارع للعنب.

أصدر أوريسته خوارًا من حَنْجَرَته، ثمّ قال لـ پيرَتّو:

– أنتَ لا تعرف الأرياف، تجول فيها طوال الليل، ولكنكَ لا تعرفها – ولم يجبْه پيرَتّو بشيء. وكان يصل مسامعنا نباح كلاب بعيدة.

– لو أننا نكفّ عن السير – قال أوريسته، عند أحد منعطفات الطريق. وقطع پيرَتّو أفكاره الصامتة، ثمّ قال:

– لعلّ هذا أفضل، فالأرانب البرّيّة والأفاعي قد اختبأت تحت الأرض، خوفًا من المارّة. ولا روائح تنتشر في المكان سوى رائحة البنزين. أين هي الأرياف التي تحبّون؟

ثمّ انقضّ عليّ، وقال:

– لو أن أحدًا ما يُذبَح في هذه الغابات – قال بنبرته الحازمة – أتظنّ أنه سيكون حدثًا أسطوريًا؟ أتظنّ أن الجَدَاجِد ستكفّ عن صريرها حول القتيل؟ وأن مستنقع دمه سيكون أثمن من بصقة؟

بصق أوريسته بتقزّز، وهو ينتظرنا. ثمّ هتف:

– احذرا، ثمّة سيّارة تنزل من التّلّ.

وظهرت سيّارة مكشوفة، تسير ببطء وهدوء، يميل لونها إلى الأخضر الفاتح، ثمّ توقّفت برفق. بقي نصفها تحت ظلّ الأشجار. نظرنا إليها بحَيْرة:

– إن فناراتها مطفأة – قال أوريسته.

وخطر في ذهني أن فيها شابًّا وصديقته، وودتُ لو أكون بعيدًا، عند نهاية السفح، بدلًا من أن ألتقي بأحدهم. لمَ لا ينحدران، بسيّارتهما الرائعة هذه، نحو تورينو، ويتركاننا وحيدين هنا، في أريافنا؟ وقال أوريسته، وقد أخفض رأسه، إن علينا مواصلة السير.

وكانت السّيّارة واقفة في مكانها، وكنتُ أتوقّع سماع همسات وحركات خافتة، وربمّا ضحكات، إلا أنني لم أرَ سوى شابّ أمام المقود، دفع رأسه إلى الوراء، واستقبل السماء بوجهه.

– يبدو ميتًا – قال پيَرَتّو.

وكان أوريسته قد تجاوز ظلّ، وسرنا وسط صخب الجَدَاجِد، وخطرت في ذهني، وأنا تحت الأشجار، أفكار كثيرة. ولم أقوَ على الالتفات إلى الخلف، وكان پيَرَتّو يسير بجواري، غارقًا في صمته. وسيطرتْ عليّ حالة شديدة من القلق. توقّفتُ.

– مستحيل – قلتُ – إن هذا الشّابّ لم يكن نائمًا.

– ما الذي يُخيفكَ؟ – سأل پيرَتّو.

– ألم تره؟

– لقد كان نائمًا.

– لا أحد ينام بتلك الطريقة، والسّيّارة تجري – قلتُ. ورنّ في أذني جواب پيرَتّو الحانق:

– لو أن أحدًا يمرّ الآن!

التفتْنا ننظر إلى المنعطف، تحت ظلّ الأشجار. وعبرت يراعة مضيئة الطريق، كأنها جمرة سيجارة.

– لننتظر ونرَ فيما إذا كان سينطلق.

وقال پيرَتّو إن مَنْ يملك سيّارة كهذه بوسعه أن يصنع ما يشاء، كأن ينظر إلى النجوم مثلاً. وأصختُ السمع:

– لعلّه رآنا.

– لنرَ إذنْ، فيما إذا كان سيُجيبنا – قال أوريسته، ثمّ أطلق صرخة في الهواء. وكانت صرخة عالية، بدأت كدويّ انفجار، ثمّ تردّدت في الأرض والسماء، كصرخة ثور، وانتهت بضحكة صاخبة، كضحكة ثمل. وقفز أوريسته، متحاشيًا ركلتي التي سدّدتُها إليه. ثمّ أصخنا السمع جميعنا. عاد الكلب ينبح من جديد، وصمتت الجَدَاجِد بذهول. ولكنْ؛ لم نسمع أيّ ردّة فعل. وفتح أوريسته فمه ليكرّر الصرخة، فقال له پيرَتّو:

– مستعدّ؟

وصرخا معًا هذه المرّة، صراخًا حادًّا ومتكرّرًا. اقشعرّ بدني، وأنا أفكّر أن صوتًا كهذا، كشعاع الضوء، قد يصل إلى كل مكان: إلى السفوح، والطُّرُقات البعيدة، وكتل الظلام، وجحور الحيوانات، وجذور الأشجار، فيهتزّ بفعله ذلك كله.

وجنّ جنون ذلك الكلب من جديد. أصخنا السمع، ونحن نحدّق في المنعطف. كدتُ أقول "لعلّه مات من الهلع"، وإذا بنا نسمع صوت ارتطام باب السّيّارة بقوّة. همس أوريسته في أذني:

– ربمّا ستأتي الشرطة الآن.

وبقينا ننتظر ونحن نتطلّع إلى الأشجار. مضى بعض الوقت، ولم يحدث شيء. وكان الكلب قد كفّ عن النباح، وعلا صرير الجَدَاجِد في كل مكان، تحت نجوم السماء. وكنّا لا نزال نتطلّع إلى كتلة ظلّ تحت الأشجار.

– فلنذهب – قلتُ – فنحن ثلاثة.

-2-

وجدناه جالسًا على مقعد القيادة، يغطّي وجهه بكفَّيْه، دون أي حركة. وقفنا نتطلّع إليه على مسَافة بضع خطوات، كأنه حيوان مخيف.

– أتظنّه تقيّأ؟ – قال پيرَتّو.

– لنرَ – أجاب أوريسته، ثمّ دنا منه، ووضع كفّه على جبهته، يتحسّس حرارته. وكان الشّابّ يضغط بجبهته على يد أوريسته، كأنه كلب يلاطف تلك اليد. بدا كأنهما يدفعان بعض، ثمّ سمعتُهما يتضاحكان.

– إنه پولي – قال أوريسته – يا للرّوعة! إنهم يملكون فيلًا كبيرة.

وكان الشّابّ يمسك بإحدى يَدَي أوريسته، فنفض رأسه كَمَنْ يخرج من الماء. كان شابًّا جميل الطلعة، يكبرنا ببضع سنين، بعينَيْن ذابلَتَيْن وزائغَتَيْن. تطلّع إلينا وما زال يمسك بيد أوريسته، ولكنْ؛ يبدو أنه لم ينتبه لوجودنا. قال له أوريسته، في تلك الأثناء:

– ألم تكن في ميلانو؟

– كان لديّ بعض الوقت للتّنزّه – أجاب الآخر – وأنتَ، هل أتيتَ إلى هنا لاصطياد السناجيب؟

– أترانا في أحراش السفح؟ – قال أوريسته، وحرّر يده. ثمّ تطلّع إلى السّيّارة، وقال – هل غيّرتَها؟

"كيف له أن يحاور رجلًا ثملًا" قلتُ في نفسي. واستحال الرعب فيّ إلى سخط. "لمَ لا يرميه في أحد الأخاديد؟".

وكان پولي هذا يتطلّع إلينا. يبدو كأولئك المرضى الذين يتطلّعون إليكَ، بعيون زائغة حزينة، من سرير المرض. ولم يحصل لأحد منّا، من قبل، أن وصل إلى تلك الحالة من الثمالة. ولكنه كان برونزيّ البشرة، وجديرًا بتلك السّيّارة. تملّكني الخجل، بسبب الصرخات القبيحة التي أطلقها أوريسته وپيَرَتّو.

– هل بمقدورنا رؤية تورينو من هنا؟ – قال الشّابّ، ونهض بحيوية، وهو ينظر من حوله – يفترض أن ذلك ممكنًا. أترون تورينو؟

كان يبدو في حالة طبيعية، لولا صوته المضطرب والمبحوح والضعيف في آن. أخذ ينظر من حوله، ثمّ قال لأوريسته:

– أنا هنا منذ ثلاث ليالٍ. ثمّة مكان هنا، بوسعكم أن تُطِلّوا منه على تورينو . أترغبون بالذهاب إلى هناك؟ إنه مكان ساحر.

تداخلت أصواتنا في الحديث، وسأله أوريسته بغتة:

– هل هربتَ من بيتكم؟

– هناك مَنْ ينتظرني في تورينو – قال – أناس أغنياء، لا أطيق تحمّلهم – ثمّ تطلّع إلينا، بتلك العينَيْن، وتبسّم كطفل خجول – بعض

الناس تثير فيكَ الغثيان، وهي تصنع كل شيء بالقفّازات، حتّى أطفالهم وملايينهم.

دنا منه پيَرَتّو، وحدّق فيه دون أن يُفصح عن ما يدور في خلده.

وسحب الشّابّ علبة السجائر، ثمّ دار بها علينا. وكانت سجائر ليّنة بتبغ جافّ. أخذنا ندخّن معًا.

– لو يروني بصحبتكَ، مع أصدقائكَ، لهرئوا بي. أمّا أنا، فإني أستمتع بتركهم يتقلّبون على جمر الانتظار.

هتف پيَرَتّو بصوت عالٍ:

– إنه يستمتع بالقليل.

فقال له پولي:

– أنا أحبّ المزاح، ألا تحبّه أنتَ أيضًا؟

– لأجل أن تهزأ بالأغنياء – قال پيَرَتّو – ينبغي أن تكون غنيًا مثلهم، أو أن تمضي حياتكَ كلها في جمع المال دون أنّ تُنفق فلسًا واحدًا.

أجابه پولي، بوجه صارم:

– أتظنّ ذلك؟ – وقالها بنبرة مستفزّة، حتّى إن أوريسته لم يستطع أن يكتم ضحكته. وقام پولي باحتضاننا بين ذراعَيْه، وكأنه يشي لنا بسرّ خطير، ثمّ قال بصوت خفيض:

– هناك شيء آخر.

– أفصِحْ عنه، إذنْ.

أرخى پولي ذراعَيْه، وتنهّد. ثمّ تطلّع إلينا بنظرة خضوع، تنبعث من أعماق عينَيْه، وبدا بحالة بائسة:

– أشعر بأنني إله، هذه الليلة.

ولم يضحك أحد. خيّم علينا الصمت للحظات، فقطعه أوريسته باقتراح:

– لنذهب لرؤية تورينو.

ونزلنا في الطريق، حتّى بلغنا ما يشبه الشرفة، عند المنعطف، فظهرت أمامنا تورينو بأضوائها المتألّقة. وقفنا نتطلّع إليها عند حافّة الطريق. وحين غادرنا المكان، لم يلتفت أحد سوى پولي، وضع ذراعه على كتف أوريسته، والتفت يحدّق في بحر الأضواء. ثمّ رمى سيجارته، وأطال النظر إلى المدينة.

– ماذا سنفعل الآن؟ – قال أوريسته.

– كم هو تافه الإنسان! – قال پولي – هذه الشوارع والأبنية والمداخن كلها. تبدو، وأنتَ تنظر إليها من هنا، كأنها بحر من النجوم. ولكنْ؛ وأنتَ في غمرتها، لا تشعر بذلك.

وانتحى پيَرّتّو جانبًا، وصرخ وهو يتبوّل بين الدغل:

– إنكَ تهزأ بنا.

فأجابه پولي بهدوء:

– إنما تعجبني التناقضات. ففي التناقضات فقط يشعر الواحد منّا بمدى تفوّق قوّته الجسدية. ودون تناقضات، فإن الحياة تافهة. لا أُوهِم نفسي بغير ذلك.

– ومَنْ يوهِم نفسه بغير ذلك؟ – سأل أوريسته.

رفع پولي عينَيْه، وتبسّم:

– مَنْ؟ أولئك كلهم الذين ينامون في تلك البيوت. فكلّ منهم يحسب نفسه أحدًا ما، يحلم ثمّ يستيقظ، يمارس الحبّ، ويقول "أنا فلان ابن فلان"، في حين هو ...

– في حين هو ماذا؟ – قاطعه پيَرَتّو وهو يقترب منّا.

وانقطعت سلسلة أفكار پولي، بعد أن قاطعه پيَرَتّو. وأخذ يُفرقع بأصابعه، باحثًا عن الكلمة المناسبة.

– كنتَ تقول إن الحياة مُملّة – قال أوريسته.

– ما الحياة إلا ما نصنعه نحن – قال پيَرَتّو.

فقال پولي:

– لنجلس هنا – ولم تبدُ عليه علامات الثمالة. وخطر بذهني أن أمر عينَيْه الزائغَتَيْن إنما هو كقميصه الحريري، ومصافحته، وسيّارته الجميلة: أشياء قد اعتاد عليها، فما عادت تفارقه. وجلسنا على العشب بعض الوقت، نتبادل أطراف الحديث. ثمّ تركتهم يُثرثرون، وأنصتُّ لصرير الجَدَاجِد. وبدا أن پولي لم يعر اهتمامًا لسخرية پيَرَتّو؛ كان يتحدّث

عن سبب هربه من تورينو، منذ ثلاث ليالٍ، ومن مجتمعها الذي كان بانتظاره؛ وأخذ يذكر أسماء فنادق، وشخصيات ثرية رفيعة المستوى. وبدأ پيَرَتّو يكترث لأمره، ويتفاعل معه، أمّا أنا، فكنتُ أبتعد عنه أكثر، وكنتُ أحسبه إنسانًا ساذجًا. وانتابني مزاج مشابه لذلك الذي اعتراني حينما رأينا السّيّارة تتوقّف، وظننتُ أن ثمّة مَنْ يمارس الحبّ في داخلها.

ثمّ قلتُ لهم:

– أتظنّون أننا خرجنا من تورينو، لنجلس ها هنا ونواصل الثرثرة؟

– معكَ حقّ – قال أوريسته – هيّا، لنعد إلى البيت، فالعمل بانتظارنا غدًا.

ونهض پولي، ثمّ نهض پيَرَتّو:

– ألا تأتي معنا؟ – سألاني.

كنّا نتّجه صوب السّيّارة، فأبطأتُ السير مع أوريسته، وسألتُه عن پولي. قال لي إن لديهم أملاكًا قرب مزارعهم، وفيلّا كبيرة، تحتلّ تلًّا بأكمله:

– كان يتردّد على الأرياف في صغره، وكنّا نذهب للصيد معًا. وكان داعرًا منذ ذلك الحين، ولكنه لم يكن يبالغ في الشرب كما الآن.

ثمّ صرخ يسأل پولي:

– هل ستذهبون إلى الگرَبّو هذا العام أيضًا؟

أتمّ پولي حواره مع پيَرَتّو، ثمّ التفت إلى أوريسته:

– لقد حبسني أبي هناك، في العام الماضي، وحرمني من السّيّارة – قال بلا تردّد – يا للأفكار الغريبة التي تخطر في أذهان الناس! كان يريد أن يمنعني ... لا أعرف عن ماذا! لا أدري إن كنتُ سأعود هذا العام. قد يكون جميلاً أن تقضي يومًا هناك، لا أكثر. والأفضل أن تكون برفقة بعض الأصدقاء، وتحمل معكَ بعض أشرطة الموسيقى.

وفتح، بحفاوة، أبواب السّيّارة. وودتُ أن لا أصعد، وقد أدركتُ أنه لا ينبغي على أمثالنا أن يصاحبوا أمثاله. يجب الإصغاء إليه، وتقبُّل عالمه، والحديث معه بنبرة معيّنة. أن تظهر له الإجلال، فهذا يعني أن تكون مرآة له. لا أعرف كيف استطاع أوريسته أن يقضي معه أيّامًا طويلة؟!

جلس پولي خلف المقود، ثمّ التفت وقال:

– إذنْ، أنذهب هناك؟

– إلى أين؟

– إلى الگرَبّو.

وثب أوريسته:

– وهل أصابنا الجنون؟ أمّا أنا، فإني أريد الذهاب إلى النوم.

واعترضتُّ أنا أيضًا، وقلتُ إننا في ساعة متأخّرة من الليل.

– لم يطلع النهار بعد – قال پولي – ربمّا الساعة الآن الرابعة فجرًا. سنصل هناك عند الخامسة.

وصرخنا معًا بأن لدينا بيوتًا نأوي إليها:

– خذنا إلى بيوتنا – قال أوريسته – وستكون هناك فرصة أخرى.

وهمستُ في أذن أوريسته:

– أبوسعنا الوثوق به؟

فقال أوريسته: – أريد الخلود إلى النوم. اتركنا قرب بوّابة جنوى، عند مدخل المدينة.

وانطلقنا نحو تورينو، وجرت السّيّارة برفق وهدوء.

پيَرَتّو الذي كان جالسًا جنب پولي لم يتفوّه بكلمة. كنّا نسير في شوارع مضاءة ومقفرة. ونزل أوريسته في شارع نيتسا، أمام الأروقة. ودّع پولي، وهو ينزل من السّيّارة. وبعد لحظات، تركاني أنا أيضًا عند باب المنزل. ألقيتُ عليهما التّحيّة، وقلتُ لـ پيَرَتّو إننا سنلتقي في الغد. وانطلقت السّيّارة بهما أمام ناظري، حتّى توارت في الظلام.

-3-

وكنّا نبذل قصارى جهدنا، خلال النهار، من أجل الدّراسة، أوريسته على وجه الخصوص، وكان يدرُس الطّبّ. أمّا أنا وپيرَتّو، فكنّا ندرُس القانون، وقد أرجأنا الجّزء الأصعب من الامتحانات حتّى شهر تشرين الأوّل. ولم يكن لدينا ما يشغلنا في المختبرات، على العكس من أوريسته الذي كان يقضي معظم الوقت فيها، فلا يخرج معنا – دائمًا – في المساء. وكنّا نعرف أين نجده عند العصر. ولأن أهل أوريسته يسكنون في أرياف تورينو، فقد استأجر غرفة في المدينة، وعادة ما يأكل في المطعم.

ومررتُ للقائه في اليوم التالي لتلك الليلة. وجدتُهُ في المطعم يقشر تفّاحة، وقد أسند كوعه إلى الحقيبة، واتّكأ على الحائط. وسألني، وسط حرارة الجوّ، إذا ما كنتُ رأيتُ پيرَتّو.

وتحدّثنا، ونحن نستجلب الهواء بالورق، عن مشروع كنّا خطّطنا له في ذلك العام: أن نذهب، نحن الثلاثة، إلى الأرياف، حيث يسكن أوريسته. وكانت لديهم مزرعة كبيرة، قد توفّر لنا الكثير من المتعة. ولكنّي وپيرَتّو كنّا نفكّر في الذهاب سيرًا على الأقدام، حاملين معنا بعض المؤن. على أن أوريسته قال أن لا فائدة من ذلك، فإذا ما بلغنا بلدتهم، سننعم بما يكفي من الأرياف والدفء.

– ماذا كنتَ تقول عن بيرَتّو؟ – سألتُ.

– أتحسب فعلاً أنه خلد إلى النوم، الليلة الماضية؟ – قال أوريسته.

– لعلّه يدرس الآن.

– لا أظنّ ذلك، وهو بصحبة پولي وسيّارته – أجاب أوريسته – ألم ترَ كيف كانا على وفاق؟

وأخذنا نتحدّث عن الليلة الماضية، عن پولي وعن تلك الأشياء الغريبة كلها. وقال أوريسته إنه ليس هناك ما يثير الاستغراب. هو وپولي كانا يتصرّفان كصديقَيْن، مع أن والد پولي كان رجلاً فاحش الثراء، وهو من نبلاء ميلانو، ويملك تلك المزرعة الشاسعة، لكنه لا يتردّد عليها أبدًا. وقد نشأ پولي في ذلك التّلّ، حيث يأتي إليه كل صيف مع عشر مربّيات، وعربة تجرّها الخيل. وحينما كبر وبلغ مبلغ الرجال، أصبح يخرج من هناك، وتعرّف إلى بعض الأشخاص في الأرجاء. وأخذ يذهب برفقتهم في رحلات الصيد، واستمرّ الحال لسنَتَيْن أو ثلاث، حيث كانت هناك وفرة من الطيور المهاجرة. وكان ولدًا طيّبًا حميد الخصال، لكنّ ما ينقصه هو الحزم. كان يغيّر رأيه قبل إتمام أي أمر.

– إنها طبيعة حياتهم – قلتُ – يصبحون كما النساء.

– ولكنه فطن – قال أوريسته – أسمعتَ ماذا يقول عن أشباهه من الناس؟

– كان يقول ذلك، فقط، رغبة في الحديث. ثمّ إنه كان ثملاً.

وهزّ أوريسته رأسه، قال إن پولي لم يكن ثملاً. أن تكون ثملاً لهو شيء مختلف.

– ربمّا هو ثمل منذ ثلاثة أيّام، وأتى بأشياء أكثر فحشًا. إنه الآن أسوأ بكثير. بوسعكَ أن تشعر بالعطف نحو رجل ثمل – وكان أوريسته عادة ما يتفوّه بأشياء لا تخطر على البال.

– لا أظنّه كان يسخط على أمثاله من الناس، إنه ساخط على أولئك الذين يجمعون المال، ولا يُحسنون العيش – قلتُ – أنتَ صديقه، لا بدّ أنكَ تعرفه جيّدًا.

– ليس الأمر كما تظنّ – قال أوريسته – إن الذهاب معًا إلى الصيد كالذهاب إلى المدرسة. وكان أبي يولي الأمر اهتمامًا شديدًا.

أفرغ أوريسته قدح النبيذ، وغادرنا. وحين كنّا نسير على الرصيف، في الشمس، قلتُ إن پيرَتّو كان يسخر من كل ما يقوله پولي.

– إن لـ پيرَتّو طريقة في الضحك أشبه بمَنْ يبصق في وجهكَ. وهو لا يكترث للأمر، لكن الآخرين يشعرون بالإهانة.

– مَنْ يدري؟ – قال أوريسته – لم يحصل أن رأيتُ پولي يشعر بالإهانة.

ولم يأتِ، عند المساء، لا پيرَتّو ولا أوريسته. وكنتُ أقضي لحظاتٍ مريرة، ذلك العام، حينما أبقى وحيدًا. فالعودة إلى البيت، من أجل الدراسة، أمر خالي المعنى، وكنتُ معتادًا على قضاء الوقت في تبادل أطراف الحديث مع پيرَتّو، والتجوال في الطُّرُقات. وكان في الهواء، في

حركة الناس وحتّى في ظلام الشوارع، ثمّة أشياء كثيرة أعجز عن إدراكها والاستمتاع بها. وكانت عادة ما تعتريني الرغبة للحديث مع فتاة ما، أو ولوج حانة سيّئة الصيت، أو السير بعيدًا في شارع ما حتّى طلوع النهار، لأجد نفسي حيث لا أدري. ولكنْ؛ دائمًا ما ينتهي بي الحال أن أتجوّل في الطُّرُقات نفسها، أمر بتكرار في تقاطعات الشوارع وأمام لوحات المحال التجارية، وألتقي بالوجوه ذاتها. ثمّ أقف – أحيانًا – في ركن ما، أقضي ساعات طويلة، يفور في داخلي غضب جارف.

على أني كنتُ في حال أفضل ذلك المساء. فلقائي مع پولي، بالأمس، نزع عنّي الكثير من الهواجس، وأدركتُ أن في هذا العالم، سواء في الليل أم في النهار، ثمّة مَنْ لديهم امتيازات أكثر منّي، أناس خاملون يستمتعون أكثر منّي. وكان ما غرسه في ذهني أمّي وأبي والبسطاء الذين يسكنون المدينة هو أن نزوات الفقراء متاحة لي، أمّا نزوات الأثرياء، فلا. ولكنْ؛ ليكن واضحًا، لا أقصد بالفقراء أولئك المعدَمين.

قضيتُ المساء في السينما، مسرورًا مرتاح البال، وأنا أفكّر بالشّابّ پولي. خرجتُ من السينما ولم أكن أشعر بالنعاس، فذهبتُ أتجوّل في الأزقّة المقفِرة، تحت النجوم والهواء العذب. لقد وُلدتُ ونشأتُ في مدينة تورينو، ولكنّ تفكيري، في ذلك المساء، ذهب إلى الطُّرُقات الطويلة في بلدة أبوي، تلك الطُّرُقات التي تشقّ الحقول في الأرياف. فقد كان أوريسته يعيش في بلدة مثلها، وسيعود إليها، يعود ليمضي حياته هناك. وكان ذلك جلّ طموحاته. ولو أنه أراد، لكان بوسعه البقاء في المدينة. ولكنْ؛ ما الفارق؟

وصلتُ باب المنزل، وإذا بأحد يُناديني. كان پيَرَتّو، خرج من ظلّ الجدار الذي كان يتّكئ عليه، وعبر الشارع، متّجهًا نحوي. كان يرغب

في الثرثرة، ولا يريد المغادرة إلى البيت، فهو لا يشعر بالنعاس. وقال إنه لم يحضر أوّل المساء، لأنه قضى النهار مع پولي. وقد أمضيا ليلة البارحة يجوبان الأرياف بالسّيّارة. وصلا، مع أوائل خيوط الشمس، إلى البحيرات، وهناك تدهورت حالة پولي الصّحّيّة، وهوى على الأرض حالما نزل من السّيّارة. ربمّا بفعل انعكاسات الشمس على الماء في وجهه. وكان مشبَعًا بالكوكايين، وقد سرت في أعضاء جسده جميعها. فقام پيرَتّو – عندئذٍ – واتّصل بالفندق الذي تحدّث عنه پولي في تورينو، فطلب منه أحدهم أن يتّصل بميلانو.

– لا أملك المال من أجل الاتّصال – صرخ پيرَتّو. تقدّم إليه قسّ يجيد قيادة السّيّارة، ونقل پولي إلى مستشفى في مدينة نوڤارا. هناك قام الطبيب بإيقاظ پولي، وجعله يتقيّأ ما في بطنه. ثمّ دار شجار مع القسّ الذي اتّهم پيرَتّو بالأمر، وعَدّه صديق سوء بالنسبة إلى پولي. في النهاية استطاع پولي أن يعيد الأمور إلى نصابها: دفع أجرة الطبيب، وتكلفة الاتّصال ووجبة الغداء. ثمّ عادا بالقسّ إلى بيته، بعد أن حدّثاه طويلاً، في أثناء الطريق، عن الخطيئة وعذاب الجحيم.

وكان پيرَتّو في قمّة السعادة، فقد استمتع بنزوات پولي، وبالنزهة التي قاما بها، ثمّ في النقاش مع القسّ. وكان پولي قد ذهب للاستحمام، ولتغيير ملابسه. على أن هناك سيّدة في انتظاره، وقد تبعتْه من ميلانو حتّى تورينو، وكانت تبعث له باقات الورد، وترجو اللقاء به والحديث إليه.

– قد يكون أبلهًا – قال پيرَتّو – لكنه يجيد الفكاهة، ويستمتع بما ينفق من المال.

– ولكنه يتجاوز الحدّ المعقول – قلتُ – إنه فتى طائش.

وقال لي بيرَتّو إن پولي لا يصنع ما هو أسوأ ممّا نصنع. نحن، البرجوازيّيْن المعسرين، نقضي الليل على المقاعد، نتجاذب أطراف الحديث، ندفع المال من أجل ممارسة الجنس، نحتسي النبيذ. أمّا هو، فلديه وسائل أخرى؛ تعاطي المخدّرات، الحرّيّة المطلقة، النساء الرفيعات المستوى. إن الثراء يمنح السلطة. هذا كل ما في الأمر.

– لا بدّ أنكَ جننتَ – قلتُ له – إننا نفعل الأشياء بتعقّل. فأنا أحاول فهم الباعث من وراء تجوالي المتواصل. أنتَ، مثلًا، تفضّل التجوال في تورينو، في حين أنا أفضّل صعود التّلّ. وأحبّ روائح الأرض، لماذا؟ هذا كله لا يعني شيئًا لـ پولي. إنه فتى طائش، أوريسته يقول ذلك أيضًا.

– يا لكما من أحمقين! – أجاب بيرَتّو، ثمّ شرح لي كيف أن الإنسان ميّال للتجارب والمغامرات، وأن الحدود يضعها المحيط الذي نعيش فيه.

– لعلّ پولي يتكلّم ويتصرّف بحماقة – قال بيرَتّو – من الممكن أنه لا يُقدِم على توافه الأمور التي نقوم بها نحن. ولو أنه يفعل ما نفعل، لأصبحتْ حياته حزينة بائسة.

ومشينا ونحن نتناقش، كعادتنا. وقال بيرَتّو إن پولي يصنع خيرًا، إذ هو يخبر الحياة بالوسائل المتاحة له.

– ولكنه يتفوّه بالحماقات – قلتُ معترضًا.

– لا يهمّ – قال بيرَتّو – إنه يسعى جاهدًا، بطريقته الخاصّة، من أجل اختبار أشياء لا تخطر لكم على بال.

– وهل سينعم عليكَ بالكوكايين أيضًا؟

اغتاظ پيرَتّو، وقال إن پولي لا يتّخذ من المخدرات شيئًا أساسيًا في حياته، وإنه نادرًا ما يأتي على ذكرها. ولكنه تحدّث طويلًا عن الخطيئة مع القسّ، وأظهر معرفة عميقة وخبرة حقيقية. ضحكتُ – عندئذٍ – في وجه پيرَتّو، فاغتاظ مجدّدًا.

– تشعر بالسخط تجاه مَنْ يتعاطى المخدّرات – قال پيرَتّو – ثمّ تضحك حين يأتي الحديث عن الخطيئة؟

توقّف أمام أحد البارات، قال إنه سيجري اتّصالًا. بعد وقت قصير، أخرج رأسه من الكابينة، وسألني فيما إذا كان أوريسته قد حضر أم لا.

– لقد حلّ منتصف الليل، إن أوريسته – الآن – يغطّ في النوم. جسده بحاجة لذلك.

واصل پيرَتّو حديثه على الهاتف لبعض الوقت، كان يتحدّث ويضحك. وحينما خرج قال لي:

– هيّا نذهب للقاء پولي.

-4-

لقد أرعبتني فكرة السهر لليلة أخرى بكاملها. وما كان أبواي ليعنّفاني؛ ربّما بضع كلمات عن الوقت الذي أبدّده، أو نظرة من فوق طبق الطعام، وأسئلة دقيقة عن الامتحانات. ولا أعرف كيف يواجه پيرَتّو أبوَيْه. ولكنّ أبويّ يثيران فيّ الرأفة، وكنتُ أتساءل أي فتى كان أبي وهو في العشرين من عمره؟! وأي فتاة كانت أمّي؟! وأتساءل فيما إذا سيكون لي – ذات يوم – أولاد غريبو الأطوار مثلي. لا بدّ أن ما يخطر على بال أبويّ، حينما ينظران إليّ، هو لعب القمار، والنساء، والضياع والسجن. ولكنْ؛ ماذا يعرفان عن هيامنا الليلي؟ ولعلّهما محقّان فيما يفكّران به: فما كان يعترينا هو سأم العيش، ولعلّه أوّل الرذائل، ومنه تُولَد الأشياء كلها.

وصلنا الفندق، فوجدنا سيّدة اسمها روزالبا، تتمشّى ذهابًا وإيابًا، وكان پولي يناور بالسّيّارة، وقبل أن نصعد قلتُ لـ پيرَتّو:

– لنتّفق مقدّمًا، لا أريد أن أتأخّر هذه الليلة. لقد تجاوزتِ الساعة الآن منتصف الليل.

وبدا جليًا أن پولي يرغب برفقتنا، ليحدّ من تصرّفات تلك السّيّدة معه. بل إنه كان يتحدّث في الأمر علانية، بحجّة المزاح. وقدّمَنا إليها على أننا "خيرة شباب تورينو"، لذا عليها أن تستمع إلينا وتتعلّم منّا. والحقيقة

إن الآخرين، في عالم پولي، يصبحون قليلي الشأن، فهو يستخدمهم، بوقاحة، من أجل متعته. ولا أفهم تصرُّف پيرَتّو الذي يتماشى معه في تلك اللعبة.

وصعدت السّيّدة روزالبا في المقعد الأمامي، مع پولي. وكانت المسكينة هزيلة، متعالية، بعينَيْن حمراوَيْن، وزهرة في الشَّعْر. كانت في حركة دائمة، تتطلّع إلينا، حتّى قبل صعودنا، بنظرات مُجهَدَة، وهي تحاول التّبسّم، ثمّ تتطلّع إلى المرآة باستمرار. وكانت ترتدي فستان سهرة ورديّ اللون، تكبر پولي بكثير، وكأنها أمّه.

وكان پولي يمزح ويثرثر، ينظر إلى المرأة بنظرات بهيجة، ثمّ يضحك وهو يقود السّيّارة. وخرجنا من تورينو في لحظات، ومال پيرَتّو نحو پولي، وهمس في أذنه شيئًا ما.

توقّف پولي فجأة، كنّا وسط عتمة الأرياف، وأمامنا الجبال. قالت روزالبا وهي تضحك بانفعال:

– أين سنذهب؟

وقلتُ بحزم إنني لا أريد البقاء خارجًا طوال الليل. التفت پولي إليّ وقال:

– بودّي أن تبقى برفقتنا. لن نتأخّر كثيرًا، كن واثقًا من ذلك.

وقالت المرأة بقلق:

– لنتوقّف ها هنا، يا پولي. لماذا تريد السير بنا طوال الليل؟ أنتَ هكذا، متهوّر دائمًا.

أدار پولي محرّك السّيّارة، ثمّ أخذ يتهامس مع المرأة، قبل أن ينطلق بالسّيّارة. وكنتُ أرى رأسَيْهما يدنوان من بعض، وأُميّز قلق الأصوات وحميميّتها، ثمّ أومأت المرأة برأسها بحزم. التفتَ إلينا پولي، وتبسّم.

وناور بالسّيّارة في الشارع، ثمّ انطلق عائدًا صوب تورينو. وسرنا قرب التّلّ المعتم، في الشوارع المقفرة، ثمّ مررنا جنب نهر البو، عند سفح التّلّ. اجتزنا بلدة ساسّي، وبدا جليًا أن پولي وروزالبا يعرفان هذا المكان. وكانت هي تلصق كتفها بكتف پولي. ما المتعة التي يجدها پيَرَتّو في هذَيْن؟ وحاولتُ أن أتخيّل إذا ما كانت هي تعرف بأمر المخدّرات التي يتعاطاها پولي، ثمّ حاولتُ أن أتمثّلهما أمامي وهما ثملان، وأن أمقتهما، ولكني عجزتُ عن ذلك. وكان ما استجدّ عليّ في تلك الليلة من التجوال الليلي، ومجرى النهر المعتم، والتّلّ القريب الغائص في العتمة، قد سلب تفكيري.

– ها قد وصلنا – صرخت روزالبا، وخفّف پولي السرعة أمام فيلّا تشعّ منها الأنوار، ثمّ انعطف في الطريق المغطّى بالحصى، وركن السّيّارة في موقف السّيّارات. وكانت أمامنا ساحة في ظلّ، يمتد خلفها فضاء النهر المعتم، انتشرت فيها طاولات بإضاءة خافتة. لمحتُ بين الطاولات لباس الندل الأبيض.

جلسنا إلى الطاولة، وكنّا في حَيْرة من أمرنا أمام قوائم الطعام، وقد غيّرت روزالبا رأيها غير مرّة، وكانت لا تُنصت إلى ما يُقال لها، بل تعبس بوجهها، وتتحدّث بصوت عالٍ. في حين أسند پيَرَتّو كوعَيْه إلى الطاولة، فبانت أكمامه المتآكلة. وقلتُ في نفسي، بعد أن انتهت هذه

الفوضى كلها "على أي حال، إنه مطعم كالمطاعم كلها". استرخيتُ على الكرسي، ثمّ أصختُ السمع جهة الفضاء المعتم، علّني أسمع جريان المياه.

على أنه لم يكن مطعمًا كالمطاعم كلها. بدأت ثمّة أوركسترا بعزف موسيقى صاخبة، سرعان ما خفتت، ثمّ ظهرت امرأة وسط دائرة الأضواء الخافتة، وأخذت تغنّي. وكانت المرأة ترتدي فستان سهرة، وتضع زهرة في شَعْرها. وأخذ الأزواج، شَيئًا فشيئًا، يخرجون من بين الطاولات، ويرقصون، متعانقين، في ظلّ. وكان صوت المرأة يجذب الراقصين، وهي تعبّر عن ما يجول في مشاعرهم، وتتهامس معهم. بدت الحفلة كأنها طقس مشوّش، ما بين النهر والتّلّ، حيث يستجيب الراقصون بحركاتهم إلى صوت المغنّية الصارخ. إذ كانت المغنّية، وهي أشبه بروزالبا ترتدي فستانًا زيتونيًا، تصرخ في غنائها، تتمايل واضعة يَدَيْها على صدرها، وكأنها تستدعي شيئًا ما.

وكانت روزالبا، في ذلك الحين، قد جذبت يد پولي إليها، في حين هو يتحدّث، بعفوية، إلى پيَرَتّو.

– كلّ يسعى لما يبغي – قال پيَرَتّو – ثمّة أشياء يجب أن نُنجزها بأنفسنا، وحدنا فقط.

فأجابه پولي ضاحكًا:

– مَنْ يرقص فإن لديه ما يبغي، ويجب التماس العذر له.

– مَنْ يرقص فهو لا شكّ أبله – أجاب پيَرَتّو – إنه يبحث، تمامًا، عن ما يملك بين ذراعَيْه.

وأخذت روزالبا تصفّق ببهجة طفلة، وكانت تثير الغثيان، بعينَيْها المتّقدَتَيْن. وجلب لنا النادل، في تلك الأثناء، القهوة والليكير، فوجب على روزالبا، حينها، أن تنفصل عن پولي.

عاودت الأوركسترا العزف، دون غناء هذه المرّة. ثمّ توقّفت الآلات عن العزف، عدا البيانو الذي استمرّ ببعض الألحان. وكنّا نستمع دونما رغبة. وعادت الأوركسترا، وغطّت على موسيقى البيانو. وكانت الأضواء التي تنعكس على الشجيرات، في أثناء العزف، تتغيّر ألوانها بطريقة ساحرة، فكانت تتغيّر ألواننا من الأخضر إلى الأحمر فالأصفر.

– مكان لا بأس به – قال پولي وهو يجول ببصره في المكان.

– أناس خاملون – قال پيرّتّو – لو أن صرخة أوريسته تدوّي هنا!

رفع پولي رأسه، وبانت عليه الدهشة وهو يتذكّر أوريسته:

– هل خلد صديقنا إلى النوم؟ – قال – ليته كان معنا هنا.

– إنه يعوّض سهر ليلة البارحة – قال پيرّتّو – للأسف، ثمّة أشياء لا يقوى على تحمّلها.

ولاحت لي روزالبا وكأنّها تتعرّى، في الحركة التي قامت بها. إذ انتفضت فجأة:

– أرغب بالرقص – قالتْ لـ پولي بضجر.

– عزيزتي روزي – قال لها – ليس بوسعي ترك صديقَيّ، سيشعران بالضجر. وهذا سلوك غير لائق. إننا في تورينو، مدينة لها تقاليدها.

احمرّ وجه روزالبا غضبًا. أدركت، في تلك اللحظة، أنها مخبولة وسفيهة. مَنْ يدري؟ لعلّ لديها أولادًا في ميلانو. حوّلتُ نظري عنها، ما إن تذكّرتُ قصّة إرسالها باقات الورد لـ پولي. ثمّ سمعتُ پيرَتّو يقول:

– يسعدني أن أراقصكِ، يا روزالبا، ولكنّني أعلم أن لا أمل لي في ذلك، فأنا، ويا للأسف! لستُ پولي. ثمّ إنكِ تنظرين إلينا بنظرات محرجة، عدا كونها سيّئة.

وكانت الأوركسترا، في الأثناء، تواصل العزف، فتمتمتُ بشيء آخر أنا أيضًا، أوضحتُ فيه أنّي لا أجيد الرقص. وكان پولي ينظر إليّ بلا اكتراث، وحالما انتهيتُ من الكلام قال:

– أرغب أن أُخبركم أن هذه الأيّام، بالنسبة إليّ، مهمّة للغاية. لقد أدركتُ أشياء كثيرة، ليلة البارحة. لقد أيقظتْني تلك الصرخات من غفلتي. كان كصراخ يوقِظ السائر في أثناء النوم. إنها أشبه بفعل ما، أو صدمة عنيفة تضع حدًّا للمرض ...

– أكنتَ مريضًا؟ – سألت روزالبا.

– بل كنتُ أسوأ من ذلك – أجاب پولي – كنتُ شيخًا يحسب نفسه شابًّا. أمّا الآن، فقد أدركتُ أني رجل، لعلّي مدلّل وضعيف، ولكني، على أي حال، رجل. إن تلك الصرخة وضعتني أمام نفسي، لا شكّ في ذلك.

– يا لعظمة تلك الصرخة! – قال پيرَتّو. وتطلّعتُ أنا، لا إراديًا، إلى عينَي پولي، لأرى فيما إذا كانتا زائغَتَيْن.

– أصبحتُ أتأمّل حياتي، كأنها تعود إلى شخص آخر – أكملَ پولي – أعرف مَنْ أنا الآن، ومن أين أتيتُ، وماذا أفعل ...

– ولكنْ؛ أكنتَ سمعتَ هذه الصرخة من قبل؟ – سألتُ أنا.

– يا لكَ من رجل صلب! – قال پيَرَتّو.

– إنه النداء الذي كنّا نستخدمه في أثناء الصيد – أجاب پولي باسمًا.

– أذهبتُم للصيد؟ – سألت روزالبا.

– بل كنّا فوق التّلّ.

وتبع ذلك صمت محرج، وكان الكل يتطلّع إلى أظفاره، عدا پولي. وعادت المغنّية تغنّي، من جديد، في الدائرة المحاطة بالطاولات. وسمعت روزالبا المجهدة وهي تنقر بكعب حذائها لتمزيق الوقت. وفي حين كانت تصل مسامعي الأصوات المتناغمة وهمسات الجموع، خطر في ذهني صرير الجَدَاجِد في التّلّ المعتم.

– حسنًا – هتفت روزالبا – هل انتهيتَ من حكاياتكَ؟ أترغب في الرقص معي الآن؟

لم يلتفت إليها پولي، ولم تصدر عنه أية حركة. ربّما كان منغمسًا في التفكير بتلك الصرخة.

– ما أجمل أن تستيقظ، دون إيهام للنَّفْس – واصل الحديث متبسّمًا – تشعر أنكَ حرّ، وأن ثمّة مسئولية على عاتقكَ. إن الحرّيّة، في داخلنا، قوّة مذهلة: تمنحكَ القدرة على ملامسة براءتكَ، ومقاساة الآلام.

أطفأت روزالبا السيجارة في المطفأة. ما دام الصمت يلفّها، تلك المسكينة الهزيلة المتهالكة، فليس من الصعب تحمُّل وجودها. على الأقلّ بالنسبة إلينا، نحن الذين لا نعرف الشبع في تلك السنين. لقد أخضعها پولي بنبرته المؤدّبة، وردعها. وكانت روزالبا تتلوّى، كأنها عارية. ثمّ قالت له، آخر الأمر:

– أطلِعْنا بوضوح على ما تفكّر به. أتودّ الهرب من تورينو؟

قطب پولي، ووضع يده على كتفها، ثمّ أمسك بها من تحت إبطها، كَمَنْ يسند أحدًا، يكاد يخرّ. دفع پيرَتّو رأسه إلى الأمام، كَمَنْ لا يريد أن يفوّت المشهد، وهو يُومِئ برأسه مشجّعًا. وكانت روزالبا تتنفّس بصعوبة، بعينَيْن شبه مغمضَتَيْن.

– هل أُلبّي رغبتها؟ – سألنا پولي بنبرة شكّ – هل أراقصها؟

انتبه پيرَتّو لنظرتي صوبها، حينما بقينا وحدنا، فضحك بتهكّم. وكان صوت المرأة، ذات الفستان الزيتوني، يملأ الليل. عبستُ وقلتُ:

– اللعنة.

شعر پيرَتّو بالانشراح، ثمّ سكب لي قدحًا من الليكير، وآخر له.

– لكلّ طريقته في الحياة – قال پيرَتّو – ألا يعجبكَ الوضع؟

– لم أقلْ سوى "اللعنة".

– لا يبدو پولي فتى فطنًا – قال پيرَتّو – بوسعه أن يمارس أشياء كثيرة مع هذه المرأة.

– إنها امرأة بلهاء.

– المرأة العاشقة بلهاء دائمًا – قال پيرَتّو.

واستمعتُ لبعض كلمات الأُغنيّة التي يرقص على أنغامها الآخرون. كانت تقول *"عشْ حياتكَ، عشْ حياتكَ – خذْ ما يحلو لكَ"*، ولكنها تغنّي بلا عاطفة. ومع عدم رضا الراقصين وضجرهم، إلا أنه كان من الصعب عليهم التّوقّف. وتساءلتُ إذا ما كان صوت المغنّية يتردّد فوق التّلّ.

– بقدر ما هي عصرية هذه الأماسي، فإنها أزلية كما الحياة – قال پيرَتّو .

-5-

رقص پيرَتّو - أيضًا - في تلك الليلة، ذلك أنّ روزالبا كانتْ تترفّع عن پولي، وتسعى في إذلاله. ولا أعرف كم من الليكير شربنا، حتّى بدا أنّ الليلة غير منقضية، وكانتِ الأوركسترا قد كفّت عن العزف منذ زمن، فنادت روزالبا النادلَ، وطلبتْ من پولي أن يدفع الحساب، ويأخذنا للإفطار في بار ڤالنتينو. وكنتُ أرى فستانها الوردي يخفق في دائرة الضّوء الضّئيل - وكانتْ تلك آخر الأضواء في السّاحة - في حين تهبّ علينا نسائم باردة من ناحية نهر البو. ولمّا كان پولي قد حرن بالمكان، يثرثر مع پيرَتّو والنّادل، فقد توجّهت روزالبا إلى السّيّارة، وأحدث جلبة ببوقها. خرج - عندئذٍ - صاحب المطعم والنّدل، وكذلك الزّبائن الذين كانوا يحتسون كأس آخر السّهرة؛ ترجّلتْ روزالبا من السّيّارة، وأخذت تصرخ: پولي .. پولي!

عند العودة، كان پولي يطوّق روزالبا بذراعه، وكانتْ هي تميل نحوه بانشراحٍ ورضا. ثمّ تلتفت إلينا - بين الحين والآخر - وتبتسم، في محاولة لبثّ البهجة فينا، كما لو كنّا شركاءها في البهجة. وكان پيرَتّو يلوذ بالصّمت طوال الوقت. ولم ينعطف پولي بالسّيّارة صوب تورينو، بل اجتاز الجسور، وانطلق في الشّارع الذي يقود إلى مدينة مونكاليري.

على أنّنا لم نتوقّفْ حتّى هناك، وبدا جليًّا أنّنا نسير فقط لتمزيق الوقت، حتّى طلوع النّهار. أغمضتُ عينَيَّ، وقد تمكّن منّي النّبيذ.

أيقظتْني هرّة عنيفة، كقفزة على الأمواج، وكنتُ قبلها في كابوس رهيب: كانتْ هناك سماء عميقة شديدة الضّياء تنفتح من فوقي، وشعرتُ كأني سأهوي فيها على رأسي. أفقتُ على ضياءٍ وردي باردٍ، وقد انبلج الصّبح، وكانت السّيّارة تتقافز على الحصى في بلدة صغيرة. خفقتْ عيناي بفعل الهواء الناجم عن سرعة السّيّارة، نظرتُ إلى الآخرين، فكانوا كلهم نيامًا، وكانت البلدة مقفرة، وشبابيكها مقفلة. پولي فقط كان يقظًا، يقود السّيّارة بسكينة.

ولم يُوقِف پولي السّيّارة إلا عندما بزغتِ الشمسُ من وراء التّلّ. استيقظ پيرَتّو منتشيًا، وكانتْ روزالبا تفرك عينَيْها: يا إلهي، كم كانت تبدو عجوزًا في ثوبها الوردي ذاك! وكنتُ أشعر، في آن، بالغضب والرّأفة تجاه الجّميع. التفت إلينا پولي، وألقى علينا تحية الصباح.

– إن الذّنب ذنبي. أين نحن الآن؟

– اتصلْ بأهلكَ – قال له پيرَتّو – وتظاهرْ بأنكَ أُصبتَ بوعكة صحّيّة.

وأخذ پولي وروزالبا يتمازحان، ويعضّ كل منهما أذنَ الآخر. وقامت روزالبا، فأزالت الوردة عن شَعْرها، وأبعدتها عن پولي الذي حاول انتزاعها من يدها، ثمّ ناولتني إيّاها:

– ها قد أبعدتها، ولن تُفسد علينا متعتنا – قالت بصوتها المبحوح.

وكنتُ أشمّ عطر تلك الوردة طوال الطريق، وأشعر بالأسى. إذ كانتْ

تلك المرّة الأولى التي تمنحني فيها إحداهنّ وردة، ولم تمنحني إيّاها سوى امرأة مثل روزالبا! وكانتْ هي تشعر بالغضب من پولي، بعدما حدث في الليلة الماضية.

وبرز أمامنا برج الناقوس لبلدة أخرى. وبلغنا السّاحة المركزية للبلدة عن طريق شارع ضيّق برصيف مسقوف، نسير تحت شرفات مقوّسة. وفي ذلك ظلّ الصباحي كانتِ هناك فتاة ترشّ الماء على حصى الطريق من قنّينة بيدها.

وكانت أرضية البار الخشبية قد نُظِّفت بالماء أيضًا، فكانت تنبعث منها روائح كروائح قبو النبيذ، أو المطر. جلسنا جنب نافذة تقع قبالة الشمس، وسألتُ إن كان هناك هاتف، فأتاني الجواب بالنفي.

– إن الذنب ذنبُكِ – قال پولي لروزالبا – لو أنّكِ لم تحمليني على الرّقص ...

– لو أنّكَ لم تشربْ – أجابت هي – كنتَ لا تعي شيئًا. وكان الكونياك يفوح من مسامات جلدكَ.

– دعكِ من الأمر – قال پولي.

– سَل رفيقيكَ عن ثرثرتكَ، إذنْ – صرختْ باستياء – سَلْهم، فقد سمعا كل شيء.

فقال پيَرَتّو:

– كان حديثًا مهمًّا : يتناول البراءة وحرّيّة الاختيار.

النّادلة التي كانتْ تقوم على خدمتنا، وهي تتفحّص روزالبا، أخبرتنا أن بوسعنا العثور على هاتف في مكتب البريد. فهممتُ بالقيام، وطلبتُ من پيرَتّو محفظة النّقود. قامت روزالبا، وقالت لي:

– سآتي معكَ، علّني أصحو. فهنا تنتشر روائح كروائح مستشفى المجانين.

وهكذا خرجنا، ونحن الاثنَيْن، إلى السّاحة، وكانت هي طويلة ونحيفة، بثوبها الوردي ذاك. فيا له من مشهد! وكانت بعض الوجوه تُطلّ من النوافذ، سوى أن الشّوارع كانت خالية من المارّة.

– لا بدّ أن الجّميع الآن في الحقول – قلتُ أنا، لمجرّد كسر جدار الصّمت.

طلبت منّي روزالبا سيجارة، ثمّ توقّفتْ، وطلبتْ منّي أن أُشعلها لها. دنتْ منّي، وقالتْ ضاحكة، وبصوت فاتر:

– أنتَ أصغر عُمرًا من پولي.

رميتُ بانفعال عود الثقاب الذي لسع يدي. أكملت روزالبا حديثها وقد توهّجت بشرة وجهها احمرارًا:

– وأكثر صدقًا منه.

تنحّيتُ عنها وأنا أتطلّع إليها.

– ها قد وصلنا – قالتْ، ثمّ أردفتْ – لا تكترثْ، إنها طبيعة بشرتي. والآن أريدكَ أن تخبرني بشيء.

وطلبتْ منّي، بصوتها المبحوح، أن أخبرها بما قمنا به في الأيّام الماضية، برفقة پولي. وبدأتُ أحدثها عن لقائنا به، فخفقت عيناها سريعًا:

– كان پولي وحده؟ – سألت – وماذا يفعل على التّلّ عند منتصف الليل؟

– أجل، كان وحده، ولم يكن الوقت منتصف الليل، بل الثّالثة بعد منتصف الليل.

– وكيف تعرّفتُم إليه، ثمّ ماذا فعلتُم بعد ذلك؟

قلتُ لها إن أوريسته وپيرَتّو مَنْ كان يعرف پولي، ولستُ أنا. وقد ذهبتُ، بعد ذلك، إلى النّوم، في حين رافقه پيرَتّو حتّى الصّباح. ثمّ قلتُ لها إن پولي – في حينها – كان يبدو ثملًا بعض الشّيء، وإنها إذا ما أرادت أن تعرف أكثر، فعليها أن تسأل پيرَتّو، لقد تحدّث إليه طويلًا.

وأدركتُ، في تلك اللحظة، أنها لم تضيع الوقت، وكانت قد استفسرت من پيرَتّو من قبل، حينما كانا يرقصان معًا. حدّقتْ فيَّ بعينَيْها تلك، فأشحتُ بوجهي، ثمّ عاودنا السّير على حصى الشّارع.

وحين كنتُ أنا أنتظر دوري على الهاتف في مكتب البريد، كانت روزالبا تدخّن عند الباب، فقلتُ لها:

– إن أوريسته يعرف پولي منذ الصّغر، وقد كان معنا – أيضًا – في تلك الليلة.

لم تجبْ بشيء، وبقيتْ تنظر إلى الشّارع. تقدّمتُ أنا إلى الباب، ثمّ تطلّعتُ إلى السّماء.

وبعد أن أنهيتُ الحديث مع أمّي في كابينة الهاتف الصغيرة، وصرخنا وتناقشنا، خرجتُ عند الباب، فوجدتُ روزالبا في مكانها دون أن تتحرّك. قلتُ لها بنبرة بهيجة:

– أنذهب؟

– إن صديقكَ شخص ماكر – قالتْ وهي ترفع كتفَيْها – ألم يخبركَ عن ماذا تحدّثا؟

– لقد ذهبا إلى البحيرة.

– أعرف ذلك.

– وكان پولي ثملًا، فأصابه الألم.

– كلا، أقصد قبل ذلك – قالتْ روزالبا بصوتٍ راجفٍ، وقد بدأتْ تفقد صبرها.

– لا أعرف. لقد التقينا به على التّلّ، وكان يحدّق إلى النجوم.

فتعلّقتْ – عندئذٍ – بحركة خفيفة إلى ذراعي. وكانت تمرّ بالقرب منّا فلاحتان، فتطلّعتا إلينا باستنكار.

– أنتَ تفهم وضعي، أليس كذلك؟ – قالتْ بصوت مجهَد – وقد رأيتَ كيف يعاملني پولي. لقد كدتُ أموت البارحة، بعد أن قضيتُ

ثلاثة أيّام وحيدة في الفندق. ولم يكن بوسعي حتّى أن أخرج، فالنّاس تعرفني هنا. أنا هنا تحت رحمته، وأهلي في ميلانو يظنّون أنّني أقضي الوقت على شاطئ البحر. ولكن پولي يُهملني تمامًا، أظنّه تعب منّي، فلا يرغب حتّى بالرقص معي.

وكنتُ أنا أتطلّع إلى الحصى، وأراقب الرّؤوس المطلّة من الشرفات.

– ... لعلّكَ رأيتَهُ مبتهجًا هذه الليلة، فهو يتقبّلني أكثر حينما يكون ثملًا، ولكنه حينما يسكر يقوم بأشياء تُبعده عنّي أكثر. على أي حال – قالتْ وبدا في صوتها إجهاد أكبر – نحن الآن نعيش حياتنا يومًا بيوم.

ولم تتركْ روزالبا ذراعي حتّى ونحن ندخل البار، وقد أزحتُ ستارة المدخل المصنوعة من الخرز، وكان پولي وپيرَتّو يجلسان في ظلّ، يتحدّثان بصوت خفيض. وصرخ پيرَتّو:

– إذنْ، ماذا نأكل؟

جلبوا لنا بيضًا مقليًا، إضافة إلى إناء مليء بالكرز. وكنتُ أحاول ألّا تلتقي عيناي بعينَي روزالبا، في حين استمرّ پولي بحديثه وهو يكسر الخبز:

– كلّما كانت خياراتكَ أكثر حرّيّة، ازداد هبوطكَ نحو العمق، حتّى تمسّ القاع. وحينما تفقد كلَّ شيء، فإنّكَ حينها – فقط – تجد نفسكَ.

وكان پيرَتّو يضحك، فقال:

– الرّجل الثّمل لا يتعدّى كونه ثملًا، وليس له أن يختار الكوكايين

أو النّبيذ. لقد اختار من قبل، ربمّا منذ وقت طويل جدًّا، حينما أطلق صرخة النّشوة الأولى.

فقال پولي:

– ثمّة براءة ونقاء يأتيان من الأعماق ...

وكانت روزالبا تلتزم الصّمت، ولم أجرؤ على النّظر إليها.

– كنتُ أقصد أنّكَ فقدتَ إدراكَكَ للوقت، هذه الليلة، لأنّكَ فقدتَ القدرة على الاختيار – قال له پيَرَتّو مقاطِعًا.

– وأنا أبحث عن هذه البراءة – قال پولي بإصرار – وكلّما دنوتُ منها، ازدادت قناعتي بأنّني حقير، وأنّني إنسان. أتَتّفق معي أن جوهر الحالة الإنسانية – مبدئيًا – هو الضّعف؟ كيف لكَ أن تنهض بنفسكَ، إن لم تُدرك ذلك أوّلًا؟

كانت روزالبا تلوك الكرز بصمت. هزّ پيَرَتّو رأسه غير مرّة، ثمّ قال:

– ليس بوسعكَ فعل ذلك.

وكنتُ أنا أفكّر بالحوار السّابق مع روزالبا، ولم تشغل ذهني كلماتها، بل صوتها وتعلُّقها بذراعي. وكانت عيناي تحرقانني من شدّة التعب. وحين نهضنا لمغادرة المكان، رمقتُها بنظرة، فبدتْ لي هادئة نعسى.

–6–

تركناهما عند باب الفندق، في الضّياء الشّاحب لذلك الصّباح الذي أهدرنا. وكان انعكاس الشّمس على واجهات المحال التّجارية يسبب حرقة في عينَيّ. اجتزتُ برفقة پيرَتّو الحديقة العامّة دون أن نتفوّه بكلمة، وكنتُ – حينها – أفكّر بأوريسته.

– أراكَ فيما بعد – قلت لـ پيرَتّو عند زاوية الشارع.

دخلتُ البيت، وارتميتُ على السّرير. كنتُ أشعر بأمّي تجول في الممرّ، لكنني حاولتُ أن أُرجئ اللقاء بها. ولم أكن أنوي النّوم، كنتُ أحاول – فقط – أن أستردّ قواي. وكان من السهل عليّ، وقد تمكّن منّي التّعب، أن أتناسى أحداث الليلة الماضية، والفوضى، وتنهّدات روزالبا، بل وكان بوسعي أن أغوص في تلك السّماء التي بدت لي في الحلم، في ذلك الضّياء الصّباحي البارد، وأن أتجوّل في أزقّة البلدة، وأنا أتطلّع إلى الأعلى. وكنتُ أعرف تلك البلدات التي يكثر انتشارها في الأرياف. وكنتُ قد خبرتُ البستان الصّيفي قرب بيت جَدّي، حيث كان أبواي يرسلانني في صباي لقضاء العطلة الصيفية. وكانت بلدة جَدّي في أرض منبسطة، مليئة بقنوات الماء والأشجار المتراصّة. وكانت أرصفة أزقّتها مسقوفة بسقف واطئ، فتبرز من بين تلك الأزقّة سماء عالية. ولم يبقَ في ذاكرتي شيء من صباي، سوى أيّام تلك العطل

الصّيفية. وتمثُّل تلك الأزقّة التي تقودكَ إلى الحقول، ليلاً أو نهارًا، بوّابات مشرعة نحو الحياة والعالم. ومن أعجب ما يُرى في تلك البلدة هو مرور سيّارة، تُحدِث الضجيج ببوقها، وهي تقطع الشّارع الرّئيس، ثمّ تغيب عن الأنظار، ومَنْ يدري؟! أتتّجه إلى البحر أم إلى مدينة أخرى، وقد شتّتِ الأولاد وتركتْ وراءها سحب الغبار؟

وعادتْ إلى ذهني، في الظلام، فكرة عبور التّلال رفقة پيرَتّو، وكيس النوم على الظهر. ولم أكن أحسد أصحاب السّيّارات، لأني أدرك أن بوسعكَ اجتياز المكان بالسّيّارة، ولكنْ، لا يمكنكَ اكتشافه. «إن كنتَ تريد أن تعرف الأرياف – كنتُ سأقول لـ پيرَتّو – إذنْ، فلنذهب سيرًا على الأقدام. نسلك الدروب الضّيّقة الوعرة، ونحاذي حقول الكروم، ونرى كل شيء. سيّان أنَ تنظر إلى الماء أو أن ترتمي فيه. أن تكون كمتسوّلٍ بثيابٍ رثّة، لهو أفضل بلا شكّ».

وكان پيرَتّو يضحك في الظلام، ويقول لي إن رائحة البنزين(*) في كل مكان في العالم.

– ما هذا الذي تقول – أجيب باستياء – إن الفلاحين لا يعرفون ماذا قد يكون البنزين. المعول والمنجل هي الأدوات الأساسية في حياتهم. وما زالوا يدرسون النجوم قبل أن يغسلوا برميلاً أو يقطعوا شجرة. لقد رأيتُهم بأمّ عيني. إذا توعّدتِ السّماء بالبَرَد، فإنهم يبسطون السلاسل أمام البيت ...

*) كان تعلُّق پاڤيزه وشغفه بالأرياف والتلال كبيرًا جدًّا. فهي بالنسبة إليه الطبيعة التي لم تُفسدها يد الإنسان بعد. وقد استخدم البنزين في إشارة إلى التّقدّم الحضاري الذي أفسد الأرياف، وعدّ وصول السّيّارات ومحطّات البنزين إلى الأرياف دليلاً على انتصار الحياة المدينيّة. (المترجم).

– ويدفعون بوليصة التأمين – يقول پيرَتّو – ويستخدمون آلة الدَّرّاسة الميكانيكية في الحصاد، ويرشّون كبريت النحاس على شجيرات الكروم.

– يستخدمونها فقط – زأرتُ – الفلاحون يستخدمون هذه الأشياء، ولكنهم يعيشون بنحو مختلف. إنهم لا يحتملون العيش في المدينة.

وكان پيرَتّو يضحك بخبث:

– جرِّب أن تهدي سيّارة إلى فلاح ما – قال مكشّرًا عن أسنانه – وانظرْ كيف سيشقّ بها الريح. ولن يسمح لامرأة مثل روزالبا أن تستقلّها، ولا لأشخاصٍ مثلنا. بل سيستعملها من أجل العمل والربح.

خطر بذهني أوريسته الذي كان يدرس الطّبّ:

– ها هو أحد الفلاحين الّذين يعيشون في المدينة – قلتُ لـ پيرَتّو – لديه من مصاعب الدراسة ما يفوقنا، لكنه قوي العزيمة. ولليل بالنّسبة إليه طعم آخر، وكنتَ أنتَ – تمامًا – مَنْ قال ذلك ...

قطع عليّ رنين الهاتف غفوتي. ناداني أهلي، ظننتُ أن روزالبا مَنْ كان على الهاتف، وأنني لم أتخلّص منها بعد. ولكنّي وجدتُ أخت پيرَتّو على الهاتف، وكانت تسألني إن كنتُ رأيتُ پيرَتّو:

– منذ يومَيْن وهو لم يعد إلى البيت.

– لقد كنتُ رفقته قبل نصف ساعة – قلتُ لها – ولا بدّ أنه سيعود بعد قليل.

وقد تجنّبتُ الحديث عن ما فعلناه طوال الليل، لكي لا أُثير المشاكل. فقالت لي:

– وأينَ نمتُم، أيّها الأوغاد؟

– لم نَنَمْ.

– مَنْ يَنَم، لا يرتكب الأخطاء – علّقت هي ضاحكة.

– ومن أين لنا أن ننام؟

وحين كنّا جالسين إلى الطاولة، أخبرتُ أبوَيّ أنّ سبب تأخّرنا هو الثقب الذي حصل في إطار السّيّارة، فقال أبي إن ذلك من الممكن أن يؤدّي إلى كارثة، على الأخصّ، إذا كان السائق ثملاً. ثمّ أضاف قائلاً إنه لا يجب المبالغة في استغلال الأصدقاء، فَمَنْ يُسرف في الاتّكال على الآخرين سيعجز – حتمًا – عن تسديد ديونه.

وعقدتُ العزم على أن أقضي العصر في الدّراسة، ولكني استحممتُ قبل ذلك، لكي أستعيد نشاطي. وفكّرتُ فيما إذا كان پولي وروزالبا يقومان بالشيء ذاته، وفكّرتُ فيما إذا كانتْ روزالبا قد تقدّمتْ بالسّنّ، فترهّل جسدها، وليس بوسعها أن تتعرّى أمامه. رنّ الهاتف عند المساء، كان پيرَتّو:

– تعال هنا، عند أوريسته – قال مباشرةً.

– سآتي، إذا ما كان بوسعي الدّراسة.

– تعال، هيّا، فإن الأمر يستحقّ المجيء – قال – لقد أطلق العاشقان النّار على بعضهما.

جلسنا في المطعم والعرق يسيل على وجوهنا، نستفسر عن الأمر من أوريسته. وكان قد عاد للتّوّ من المستشفى، بل وهاتَفَ بعض أصدقائه

الممرّضين مرّتَيْن، ليستعلم عن حالة پولي. وكان پولي يُحْتَضر: لقد اخترقتْ رصاصة خاصرته، وخدشت الرّئة. في حين كانت روزالبا تصرخ بالنّدل الذين يتراكضون "اقتلوني، لماذا لا تقتلوني أنا أيضًا؟"، حتّى أُجبروا على احتجازها في الحمّام.

– ومتى حصل ذلك؟ – سألتُه.

– إن المرأة هي مَنْ قامتْ بذلك – قال أوريسته – لقد سيطر عليها الغضب، ففتحتِ النّار عليه. وكانتْ – قبل ذلك – تصرخ بصوتٍ عالٍ، حتّى بلغ صراخها البار. مَنْ يدري أية خبيّةٍ وراء الأمر؟!

وقد جرتِ الأمور عند العصر، وكان القيظ على أشدّه. ولا بدّ أن پولي قد تعاطى بعض المخدّرات، قبل حدوث ذلك، فقد كان – حينها – ممدًّا على السّرير، غارقًا في نوبة من الضّحك. تحدّثنا في الأمر طوال المساء. وكان الآخرون، في المستشفى وفي الفندق، ينتظرون أن تأتيهم التّعليمات من أهل پولي في ميلانو. في حين كانت روزالبا سجينة الغرفة، يتوقّف مصيرها على مصير پولي ومجيء والده. وكان والده رجلًا ذا نفوذ، فإذا ما شعر بأن في الأمر فضيحة، فإن بوسعه تغيير مسار التحقيق بكلمة واحدة، وإقفال الموضوع برمّته. نعم، كان هناك المسدّس الدّوّار الذي استخدمته روزالبا، بمقبض من الصدف يجعله أشبه ما يكون بأدوات الزينة التي تقتنيها النساء، بَيْد أن هناك مَنْ هو مستعدّ لإبداله سلاحًا آخر، يتماشى ومقتضيات الأمور.

– إنها سلطة المال – قال پيرَتّو غير مكترث – بوسعها أن تُجنّبكَ عقابًا على جريمة ما، أو تخلّصكَ حتّى من الإعدام.

اتّصل أوريسته برفاقه مرّة أخرى.

– لحسن الحظّ، سيصل والده – قال وهو يلتف صوبنا – مَنْ يدري إذا كان يعرف تلك المرأة؟

أخبرْنا أوريسته – عندئذٍ – أن پولي هو المذّنب، وأنّنا أمضينا الليلة برفقتهما، وكان پولي يتعامل مع المرأة بنذالة.

– هذا ما جناه على نفسه – قال پيَرَتّو – امرأة مثل روزالبا لا يبدر منها غير هذا.

– سأعود في الحال إلى المستشفى – قال أوريسته – سوف ينقلون له الدم.

قضيتُ ذلك المساء أتمشّى مع پيَرَتّو، وكنتُ منهَكًا من الاضطراب والنّعاس، وكان هو يفكّر بالأمر مليًا، ثمّ يطرح أفكاره. أخبرته أن روزالبا سألتْني، في الصّباح، عن پولي.

– كان جليًا أن هذا ما ستنتهي إليه الأمور – قال پيَرَتّو – قد تتقبّل المرأة كل شيء من الرَّجل، سوى أن يعاني من تأنيب الضمير في علاقته معها. أتعرف ماذا قالت لي في الليلة الماضية؟ قالت إن پولي، على شبابه، فإنه لا يعير اهتمامًا لأي امرأة.

– أمّا أنا، فقد سألتْني عن ما كنّا نفعَل، برفقته، فوق التّلّ.

– أظنّها كانت تفضّل أن يُمارس فاضح الأمور، بدل تأنيب الضمير هذا. إنها شؤون لا تفهمها سوى النساء.

فقلتُ، إذّاك، إنه كان يقوم بفاضح الأمور. وإن تعاطيه الكوكايين وحديثه عن حرّيّة الاختيار ما هي إلا حماقات، إنه يهزأ بنا، هذا كل ما في الأمر. وأظنّ أنه يستحقّ ما جرى له.

تبسَّم پيرَتّو، وأجابني قائلًا: إن قضى پولي أو نجا، فإن هذه الحادثة، على أية حال، من أجمل ما شهدنا من المغامرات.

– قد لا تعقل الأمر – أضاف پيرَتّو – ولكنْ؛ عن ماذا تظنّنا نبحث ونحن نمضي الليالي في ذرع الشوارع؟ أنّنا نبحث، دون شكّ، عن شيءٍ يكسر الروتين، ويجعلنا نحيا يومًا مغايرًا.

– بودّي أن أرى كيف تصنع، لو أنّ المصيبة وقعت عليكَ أنتَ؟

– ولكنْ؛ ألستَ أنتَ مَنْ يفكّر، ليل نهار، في طريقة للخروج من هذا القفص اليومي! لماذا، برأيكَ، نذهب ما وراء نهر البو؟ سوى أنّكَ مخطئٌ في شيء واحد: ما لا تتوقّعه من الأشياء يقع في إحدى غرف تورينو، أو في بارٍ ما، أو فوق سكّة الترام ...

– أنا لا أبحث عن الأشياء غير المُتوقّعة.

– حسنًا – قال پيرَتّو – إن هذا العالم يمتلكه پولي ومَنْ هم على شاكلته، وَطِّنْ نفسكَ لهذا الأمر.

وجاء اليوم التالي، وكان پولي لازال يتأرجح بين الحياة والموت، ونقلوا له كمّيّة أخرى من الدم، وكان يرشح بالعرق فوق سرير المرض. وعلى حدّ قول أوريسته، فما بين العناية التي أولاها إيّاه والده، وبين تحرّر جسده من الكوكايين، فقد جعل ذلك من پولي يبدو كطفلٍ خائف، يكاد يتفجّر بالبكاء. وكان والده قد التقى – في الليلة ذاتها – بروزالبا، على أنَّ لا أحد يعلم ما دار بينهما من حديث. وقد أُودِعَت روزالبا في منزل للراهبات، ولم يأتِ أحد على ذكر جريمة القتل.

– إنه حادثٌ محزن – يقول الطّبيب المسؤول وهو يحدّث مساعديه.

وكانتْ هذه هي الأخبار التي تروق لـ بيرَتّو، وكان أوريسته يعرف ذلك جيّدًا. يا لأوريسته المسكين، كادتْ تضيع عليه الامتحانات كلّها. وكان يقضي نوبة العمل في المستشفى عند سرير پولي. وقد تحدّث إلى والد پولي، وعرّفه بنفسه. قال إن الرّجل كان يحدِّثه عن الأرياف، وعن المحاصيل، وعن المزارع الواقعة على منحدرات التلال، وبدا مضطلعًا بذلك كله. وكان يستخدم سيّارة پولي الخضراء، من أجل المجيء إلى المستشفى، واصطحاب أوريسته، عند الصّباح، إلى بيته، للذهاب إلى النوم.

وصلتْ – أخيرًا – أخبارٌ مؤدّاها أن پولي تجاوز مرحلة الخطر. وذهب بيرَتّو لزيارته، وقال عند عودته:

– ما زال كما هو، وقد وجدتُهُ يطالع كتابًا لنينو سالڤانيسكي(*).

ولم أذهب أنا لزيارته، ولم تكن لديّ نيّة لفعل ذلك. ودار بيننا الحديث عن الأمر، لبضعة أيّام أخرى، بعد ذلك أخبَرَنا أوريسته أنهم أرسلوه للاستجمام على البحر، وقد استقلّ عربة القطار التي تحوي على أَسِرَّة للنوم.

---

*) نينو سالڤانيسكي، شاعر وصحفي وكاتب ايطالي، وكان أحد أوائل كُتّاب رواية الخيال العلمي في ايطاليا، ما بين الحربَيْن العالميَّتَيْن الأولى والثانية. تفجّر في نفسه، فجأة، ميلٌ نحو المسيحية، فتعمّق إيمانه بقوّة. وكتب عدّة أعمال من أجل حبّ الحياة وحبّ الله والإيمان به. ومع أنه فَقَدَ بصره، إلا أنه كان أحد الكتّاب والشعراء القلائل الّذين مجّدوا الحبّ والحياة. (المترجم).

-7-

وكنتُ خلال ذلك الصّيف أتردّد على نهر البو، وأمضي هناك ساعة أو اثنَتَيْن من ساعات الصّباح الباكر. وكان يروق لي أن أبذل الجهد في رياضة التّجديف، لأنغمس بعدها في الماء البارد المظلم، حتّى يتخلّل عينَيّ، وينظّفهما. وكنتُ عادة ما أذهب وحدي، ذلك أن پيرَتّو، في ساعة كتلك، كان قد خلد إلى النوم لتوّه. وإذا ما حدث وجاء معي، فإنه يتولّى قيادة القارب، في حين أسبح أنا في النّهر. وكنتُ أبحر بالقارب صاعدًا عكس تيّار الماء، أمرّ تحت الجسور، على امتداد ضفّة النهر التي ترتفع بمحاذاتها الجدران، ثمّ أمر ما بين الكثبان والأشجار الواقعة تحت سفح التّلّ. وكان منظر التّلّ الشامخ فوق النهر بهيّ الجمال، بالأخصّ عند العودة، وأنا أنفث دخان أوّل غليون في الصباح. ومع أنّنا كنّا في شهر حزيران، إلا أن الهواء المثقل بالرطوبة، في تلك الساعة المبكّرة، كان ينتشر في التّلّ، وكأنه نفحات أنفاس جذور الأشجار. وقد تولّد فيّ، على متن ذلك القارب، حبّ لقضاء الوقت في الهواء الطلق، وأدركتُ أن ولعي بالماء والحقول ما زال يحيا في نفسي، وقد تعدّى نزوات الطفولة، والمتع الماضية التي قضيتُها في حقل ما أو في مزرعة فاكهة. وقد خامرتْني فكرة، في تلك الأصباح، مؤدّاها أن الحياة أشبه ما تكون بلعبة تحت الشمس.

على أن عمّال الحفر لا يلعبون، والماء يغمرهم حتّى المِحْزم، وهم

يرفعون الرمل بالمسحاة بجهد كبير، ويعبّئونه في المركب. ويمتلئ المركب بالرمل، بعد ساعة أو اثنَتَيْن، ويرزح تحت ثقله، فتلامس حوافّه سطح الماء. ويقوم، إذّاك، رجل نحيف فاحم البشرة، عارٍ إلا من صدرةٍ، فيسيّر المركب، ببطء، بواسطة خشبة طويلة. يفرّغ حمولته من الرمل في المدينة، ما وراء الجسور، ثمّ يصعد عكس تيّار الماء، وتصعد رفقته المراكب الأخرى، تحت وطأة الشمس التي بلغت، في تلك السّاعة، كبد السماء. وساعة أغادرُ النّهر، يكونون هم قد نقلوا شحنَتَيْن أو ثلاث. وفي حين أقضي أنا النهار في التّجوّل في المدينة، وفي الدراسة، وفي الثرثرة مع الأصدقاء، وفي الراحة، كانوا هم، في الأثناء، ينزلون مع مجرى النهر أو يصعدون، يُفرغون الحمولة، ثمّ يعودون، فينزلون في الماء من جديد، تحت وطأة الشمس الحارقة. وكنتُ أتذكّرهم، على الأخصّ، أوّل المساء، وقد بدأتْ – حينها – مغامراتنا الليلية، في حين كانوا هم يعودون إلى خرائبهم على ضفاف النهر، أو في الطوابق العليا من البيوت الشعبية، ليخلدوا إلى النوم مباشرةً. ولعلّهم يتّجهون إلى الحانة، ليحتسوا قدحًا من البيرة. وعلى ذلك، فهم – أيضًا – ممّنْ يحيا تحت الشمس، ويرى التّلّ شامخًا أمامه.

وفي الأيّام التي كنتُ أمارس فيها رياضة السباحة في النهر، يبقى الدم في عروقي حيويًا طوال اليوم، بفعل التّماسّ مع ماء النّهر. فكان كما لو أن الشمس وقوّة اندفاع تيّار الماء غمرتاني بفضائلهما، ومنحتاني قوّة خارقة، وملأتاني بالمسرّة والسكينة، تمامًا كما تفعلان مع جذع شجرة أو حيوان برّيّ. وكان پيرَتّو – أيضًا – يستمتع بعذوبة الصباح، حينما يرافقني. وكنّا نعود صوب تورينو طفاةً فوق سطح الماء، وقد غسلتِ الشّمسُ والقفزُ في الماءُ أعيننا، ثمّ نخرج ونستلقي على الضّفّة، لنجفّف

أجسادنا تحت الشّمس، وقبالتنا التّلّ والفيلات وغابات الأشجار التي تتراقص أغصانها في الهواء.

– لو أنّنا نمضي أيّامنا هكذا، طوال الحياة، لأصبحنا حيوانات برّيّة – قال بيرَتّو.

– قد يكفيكَ أن تتأمّل عمّال الحفر ...

– أمّا هؤلاء، فلا – أجاب – إنهم يعملون فقط. ما أقصده هو أن نُصبح حيوانات قويّة صحيحة الجسد ... وأنانيّة – أضاف على عجل – تلك الأنانيّة العذبة التي تجعل منكَ بطينًا.

– ليس هذا بجرم – تمتمت.

– ومَن اتّهمكَ بذلك؟ ليس الذّنب ذنبنا أن جئنا لهذه الحياة. إنه ذنب الآخرين، ذنب الآخرين دائمًا. أمّا نحن، فإنّنا لا نفعل شيئًا سوى الإبحار بالقارب وتدخين الغليون.

– ولكنّنا لسنا حيوانات بما فيه الكفاية.

يضحك بيرَتّو:

– مَنْ يدري كيف هو الحيوان الحقيقي؟ أهو سمكة أم شحرور أم سحليّة ... أم لعلّه سنجاب؟ بعضهم يدّعي أن في جسد كلّ حيوان نَفْسًا إنسانية ... نَفْسًا تقاسي العذابات. وهم يقصدون بذلك المطْهر(*).
– ثمّ أضاف – لا شيء يشبه طعم الموت كشمس الصيف، والضوء

*) المطْهر، في المعتقد المسيحي، مكان تُطهَّر فيه النَّفْس بعد الموت، بعذابٍ موقوت. (المترجم).

الصارخ والطبيعة الخلابة. وأنتَ إذ تستنشق الهواء، فإنكَ تشعر بحضور الغابة، وتُدركُ أن النباتات والحيوانات لا تأبه لوجودكَ. الكون كله يرفل بالحياة، ثمّ يؤول إلى التّفسّخ في ذاته. إن الطبيعة ليست سوى الموت ...

– وما شأن المطْهر في هذا؟ – سألتُ.

– ليس هناك من طريقةٍ لتفسيره – أجاب پيرَتّو – إما ألّا يكون له وجود، أو أنه مكان تسكنه الأرواح.

وكان هذا حوار قديم فيما بيننا، وقد استذكره. وهذا – تمامًا – ما أبغضه في پيرَتّو؛ وأنا لستُ كأوريسته الذي يقابل مثل هذا التّصرّف بأن يرفع كتفه، ويتضاحك. فكل كلمة تتناول في طيّاتها الرّيف تخصّني، بل تهزّ كياني. ولم يكنْ بمقدوري أن أجيبه، فكنتُ ألوذ بالصمت، وأحرّك المجداف.

وكان پيرَتّو هو الآخر يستمتع بالنظر لجريان ماء النّهر، مع أنه قال لنا في العام الماضي:

– ماذا تجدون هنا، عند نهر البو؟ لماذا لا نغادر المكان؟

وهكذا جعلنا نفقد براءتنا، أوريسته وأنا، وكنّا – على العكس منه – لا نُقْدِم على فعل الأشياء التي لم نُجرّبها من قبل. وكان پيرَتّو قد أقبل للعيش في تورينو منذ سنين قليلة، إذ قضى شطرًا من حياته بين مُدُنٍ مختلفة، يتبع أباه المعماري الذي كان يعمل بلا هوادة، ويجرجر العائلة وراءه. وذات يوم، وكانوا حينها في إقليم پوليا[*]، أقاموا في أحد الأديرة،

*) پوليا هي أحد الأقاليم الايطالية الجنوبية. (المترجم).

فكانت الأمّ والبنت تقيمان مع الراهبات، في حين أقام الأب وپيرَتّو في صومعة مع أحد الرهبان. وكان قد أُوكل إلى الأب بعض أعمال الترميم في المبنى.

– إن أبي لا يطيق الرهبان – يقول پيرَتّو – إنهم يثيرون فيه شيئًا من الخوف، وليس بمقدوره تحمّلهم، وكان عادة ما يتشاجر معهم، لأنه كان قلق بشأني، ويخشى أن أسلك طريق الرهبنة.

أمّا الآن، فقد خفتت رغبةِ الأب العملاق، بقميصه المفتوح على الدوام، ورضي بالإقامة في تورينو، حيث تقيم العائلة، وبقي هو يتجوّل بين المُدُن. وفي المرّات القليلة التي قابلتُه فيها، كنتُ أراه وابنه يمزحان فيما بينهما، أو يتبادلان النصح، أو يتجاذبان أطراف الحديث، وما كنتُ أظنّ أنّ أبًا يتصرّف بتلك الطريقة مع ابنه. على أنّ هذا النوع من الحرّيّة في التّصرّف لم يرقْني، فكان أبوه يبدو لي كفتى تافه من أترابنا.

– لقد طاب لكَ العيش في الدَّيْر – يقول لأبيه – لأنكَ كنتَ تعيش كما الأعزب.

– هراء – يجيب الأب – أن العيش يطيب حيث تشعر بالسلام. ألا ترى كيف يسمن الرهبان؟

– ولكنْ؛ بينهم مَنْ هو هزيل الجسم.

– لقد أصبح هؤلاء رهبانًا بالخطأ، إنهم أناس محزونون. أن تُصبح قدّيسًا لهو علامة سيّئة، فليس بمقدوركَ أن تنعم بصحبة الآخرين.

– إنه شيء أشبه بالسفر على درّاجة نارية – قال پيرَتّو – كما لو أن قسًّا يتنقّل على الدّرّاجة النارية، مَنْ يصدّق ذلك؟

تطلّع إليه أبوه متشكّكًا:

– وأي سوءٍ في الأمر؟

– لا شيء – أجاب بيَرَتّو – كل ما في الأمر هو أن شأن القداسة الآن أشبه بشأن قسّ يتنقّل على الدّرّاجة الهوائية.

– كَمَنْ يعيش في غير زمانه – قُلتُ.

– ما الدِّيْن إلّا دكّان قديم للتّربّح – قال الأب بانزعاج – وأصحابه يعرفون ذلك خيرًا منّا.

وكان الأب يعمل في مدينة جنوى ذلك العام، بعد أن ربح مناقصة هناك، فأراد بيَرَتّو الذهاب إلى جنوى، ليقضي يومًا على البحر. وقد سبقتْه أخته إلى هناك، وكان بيَرَتّو يرغب في أن نذهب نحن الثلاثة، أنا وهو وأوريسته، لقضاء أوقات ممتعة، والتّعرّف على بعض الأصدقاء. ولكنْ؛ كان هناك مشروع آخر أيضًا، وهو الذهاب عند أوريسته، في الأرياف. على أنّي كنتُ مدركًا أن مبالغتي في الأسفار ستُفسد عليّ حياتي في البيت. ولمّا كان نهر البو يعوّضني عن البحر، فقد قرَّرتُ البقاء في تورينو، بانتظار أن يعودا في شهر آب، لنضع أكياس النوم على ظهورنا، وننطلق في رحلتنا عبر الأرياف.

وما كنتُ أحسب أن مطلع ذلك الصيف، الذي قضيتُه في المدينة، سيكون بذلك القدر من المتعة. وكنتُ أتجوّل في شوارع المدينة الخالية دون رفقة، وأُعيد التفكير بالماضي، أو أذهب لممارسة رياضة التجديف، وأنا أتخيّل أشياء جديدة قد تصادفني. على أن الساعات التي تضيق فيها نفسي كانت ساعات الليل، وكنتُ قد اعتدتُ على قضاء المساء

مع بيرَتّو. أمّا أجمل ساعات النهار، فكانت من منتصف النهار حتّى الثانية بعد الظهر، حينما تكون الشوارع خالية إلا من سماءٍ تمتدّ أمام البصر، من بين الأبنية الشاهقة. وكان من بين الأشياء التي كنتُ ألاحظها باستمرار، في تلك الأحيان، وقوف بعض النساء اللواتي يشعرنَ بالملل أمام الشّبّاك، ساهمات بطريقة لا تجيدها سوى امرأة. أو أن أرفع رأسي، وأنا أمر بالطُّرُقات، فأشاهد بعض الأجزاء الدّاخلية لبيتٍ ما، أو غرفة ما، أو ربمّا جزءًا من مرآة، وكنتُ أحمل في قلبي عذوبة ما رأيتُ. لذا لم أكن أحسد صديقَيَّ اللّذين كانا يمضيان تلك السّاعات على شاطئ البحر، أو في البارات، بين حسناوات شبه عاريات، ببشرة برونزية. لا شكّ أنهما كانا يستمتعان، ولكنهما سيعودان، أمّا أنا، فأمضي الصّباح في التّشمّس هنا، أو في الرّياضة، مستمتعًا بوقتي الاستمتاع كله. وكانت تأتي النّساء – أيضًا – على ضفاف نهر البو. ترتفع أصواتهنّ بالصراخ من على القوارب، أو على ضفاف نهر السانغون(*)؛ حتّى إن عمالّ الحفر يرفعون رؤوسهم – أحيانًا – ويُطلقون تعليقاتهم على الأمر. وكنتُ أدرك أنيّ سأتعرّف بإحداهنَّ، وأن شيئًا ما لا شكّ سيحدث بيننا؛ كنتُ أتخيّل عينَيْها، ساقَيْها وكتفَيْها، وكانت امرأة حسناء باهرة، كنتُ أحلم بها وأنا أجدِّف أو أدخِّن الغليون. وكان من الصعب ألّا تبدو إنسانًا رياضيًا وبدائيًا وأنتَ تجدِّفُ واقفًا، وتمسك بالمجداف بصورة عمودية، وكان من الصعب ألّا تتطلّع إلى الأفق، وإلى التّلّ أمامكَ. وعادةً ما كنتُ أتساءل فيما إذا كان بوسع پولي، وأشباهه من النّاس، أن يستلذّوا بهذه المسرّات، وأن يستوعبوا طريقتي في العيش.

وصحِبتُ فتاةً معي – ذات يوم – إلى نهر البو، في أواخر شهر تمّوز.

---

*) نهر ينزل من جبال الألب، ويصبّ، عند مدينة تورينو، في نهر البو.

ولكنْ؛ لم تكن ثمّة إثارة في الأمر، ولم يكن حدثًا جديدًا في حياتي. كنتُ أعرف تلك الفتاة من قبل، كانت تعمل في إحدى مكتبات المدينة، وهي نحيفة بارزة العظام، تعاني من قصر النظر، لكنها رقيقة اليَدَيْن، بحركات مثيرة للشهوة. كنتُ أقلّب الكُتُب، وإذا بها تسألني عن بشرتي البرونزية وعن المكان الذي أتشمّس فيه. ثمّ وعدتْني، بانشراحٍ، أنها سترافقني يوم السبت.

جاءت معي إلى النهر وهي ترتدي مايوهًا أبيضَ تحت التّنّورة. أعطتْني ظهرها، وتضاحكت، ثمّ تجرّدتْ من تنّورتها. استلقت على الوسائد، في نهاية القارب، وكانت تتذمّر من الشّمس، وتتطلّع إليّ وأنا أجدِّف. كان اسمها تيريزينا، وكنتُ أناديها "ريزينا". خضْنا في أحاديث عن الطّقس الحارّ، وعن الصّيّادين، وعن المنتجعات الصّيفية في مونكاليري(*). وكانت تشير في حديثها إلى المسابح أكثر من النّهر. ثمّ سألتْني إذا ما كنتُ أتردّد على صالات الرّقص. كانت عيناها شبه مغمضَتَيْن، فبدت لي شاردة الذّهن.

أوقفتُ القارب على الضّفّة، تحت أغصان الأشجار، ثمّ نزلتُ للسّباحة. ولم تنزل ريزينا معي، لأنها دهنت بشرتها بالكريم الواقي من الشّمس، فكانت تنبعث منها رائحة أشبه برائحة أدوات الزّينة. خرجتُ والماء يتقاطر من جسدي، فقالتْ لي إنني كنتُ بارعًا في السباحة، ثمّ أخذتْ تتمشّى على ضفّة النّهر. ولم تكن ساقاها الطويلتان الحمراوان تعوزان إلى الجمال، ولكنني شعرتُ بالشّفقة تجاهها. تناولتُ الوسائد، ووضعتُها فوق الصّخور، لكي تجلس عليها. وطلبتْ منّي أن أجلب لها علبة الكريم، لكي أدهن ظهرها في الأماكن التي عجزتْ عن الوصول

*) بلدة في تورينو، تقع على ضفاف نهر البو. (المترجم).

إليها. جثوتُ على ركبتَيّ، ورحتُ أُدلّك ظهرها بأصابعي، وكانتْ هي تتضاحك، وتطلب منّي ألّا أكون ماكرًا في حركاتي، تتضاحك وتسند رأسها على فمي. وفي لحظة ما أدارتْ رأسها، وقبّلتْني على فمي، وكانتْ لا شكّ تُدرِك ما تقوم به. فسألتُها:

– لماذا دهنتِ جسدكِ بالكريم؟

أخذت تداعب أنفي بأنفها، ثمّ قالت:

– ما الذي ترمي إليه، أيّها الحقير؟ هذا ممنوع عليكَ.

واستمرّت بالضّحك، بتلكما العينَيْن الصغيرتَيْن، ثمّ سألتْني لماذا لا أدهن جسدي أنا أيضًا. فجذبتُها إليّ حتّى التصقْنا جسدًا بجسد. أفلتتْ منّي قائلةً:

– لا لا، يجب أن تدهن جسدكَ أوّلًا.

ومع قبولها الذهاب برفقتي وراء الأدغال، ومع أنّني تغلّبتُ على تمنّعها المصطنع، إلا أنها لم تمنحني سوى القُبل، ولم يؤسفني – في حقيقة الأمر – أن تنتهي المسألة عند هذا الحدّ. فقد كان جسدانا العاريان والرّائحة المنبعثة من رزينا غير متوائمَيْن مع الشمس والعشب. أمور كتلك يُستحسن ممارستها في المدينة، وسط ظلام الغرفة. والجسد العاري ليس في شيء من الجمال في الهواء الطلق، بل كان يُسبّب لي الضيق، ويهين تلك الأماكن الخلابة.

واتّفقنا على الذهاب إلى أحد المسابح، وكانت رزينا مبتهجة هناك، وهي تتطلّع إلى الفتيات اللواتي يمارسنَ السباحة. ثمّ طلبت كازوزة، وشربتْها بمصّاصة العصير.

-8-

صرتُ أتهرّب من اللقاء برزينا، لأنّ مسألة الكريم الواقي ورغبتها في المسبح وكذلك أوراق اللعبة المكشوفة فيما بيننا، ذلك كله كان يُسبّب لي الضّجر. على أي حال، كنتُ أشعر بالراحة في البقاء وحدي، ولم تكن رزينا المرأة الأولى التي تُسبّب لي خيبة أمل. وقد كان ذلك يعني أنّني لن أتباهى أمام پيرَتّو بمغامرة عشقٍ عظيمة، بل سأقول له أن ليس ثمّة امرأة تساوي صباحًا أقضيه في الماء والشّمس. وكنتُ أعرف جيّدًا كيف سيُجيبني:

– ربمّا تساوي الصباح، أمّا المساء، فبالتأكيد لا.

ولم يكن بمقدوري أن أتخيّل أوريسته على البحر رفقة پيرَتّو. ففي العام الماضي، حينما رافقتُ پيرَتّو وأخته، لم يأتِ أوريسته معنا، بل عاد، على جناح السرعة، إلى بلدته، فوق التلال.

– ما الذي يفعله هناك؟ – يقول پيرَتّو – يجب أن نرافقه ذات يوم.

وهكذا فقد خطرت فكرة أن نقطع الطريق إلى بلدة أوريسته مشيًا على الأقدام، على أن أوريسته قد أقنعنا، خلال الشتاء، أنه من الأفضل قضاء الوقت في مزارع الكروم، بدل أن نُضيّعه في المسير. وكان أوريسته محقًّا، على أن پيرَتّو أبدى عدم قناعته في الأمر. ولم يكن پيرَتّو ذلك

الشخص الذي يحبّذ المقام طويلاً في المكان نفسه، وقد كان، في العام الماضي حين كنّا على البحر، يجرّني وراءه كلّ صباح بحثًا عن شاطئ جديد. وكان لا يملّ التّدخّل في شؤون الآخرين، فأقام علاقات صداقة في أرجاء الشّاطئ كلها، سواء في الحانات السّيّئة الصّيت أم في الفنادق الراقية، إذ لا فرق لديه. ومع أنه لا يعرف لهجاتهم المحلّيّة، إلا أنه كان يُحادِثهم جميعًا. كان يقول لهم:

– نراكم عند المساء، في الكازينو – يقول ذلك للعامل على الشّاطئ، لمرؤوسه أو لعجوز تُؤجِّر الغرف. كان يُحسن اكتشاف نقاط ضعفهم، ويقضي المساء معهم في الكازينو. وكان الأمر مثيرًا للضحك، وأنتَ تنظر إليه وهو يقوم بذلك. على أنه كان يفشل في مساعيه مع النّساء، فلا يجدي أسلوبه نفعًا. كان يُغرقهنّ بالكلام المعسول، لكنه يفقد الصّبر معهنّ، فجأة، وإذا به يُوجّه إليهنّ كلامًا جارحًا، وتتبدّد مساعيه. ولستُ واثقًا إن كان بالفعل يرغب في إقامة علاقة مع امرأة ما. وكنتُ أقول له، مواسيًا:

– يجب أن تكون على قدر من الحماقة حتّى تثير إعجاب امرأة.

– ها ليس صحيحًا – يقول لي – قد تكون بحاجة للحماقة، ولكنها وحدها لا تكفي.

وكان پيرَتّو متوسّط الطّول أسمر البشرة، بوجه نحيف وشَعْر مجعّد. ويبدو أنه قادر على سلب قلوب النساء من رجالهنّ، سواء بنظرة أم بابتسامة. ولا شكّ أنه الأكثر جاذبية، إذا ما قورن بي أنا، أو بأوريسته،

العظيم البنية والبارز العظام. مع هذا كله، فهو لم ينجح في إثارة إعجاب إحداهنّ، حتّى على شاطئ البحر.

– إنكَ مرتبكٌ جدًّا – كنتُ أقول له – فأنتَ لا تعطي للفتاة فرصة للتّعرّف إليكَ. إن الفتاة ترغب في معرفة مَنْ يحاول جذب انتباهها.

وذهبنا نتجوّل – ذات مرّة – في الشوارع المرتفعة التي تطلّ على صخور الشّاطئ النّائية، بحثًا عن شاطئ صغير.

– ها هي النساء، وها هو مكان للسباحة – قال پيرَتّو.

في الأسفل، على الشّاطئ، كانت هناك ليندا، شقيقة پيرَتّو، برفقة صديقتها. كانتا تخلعان ملابسهما استعدادًا للسباحة، وكانتا تبدوان صغيرَتَيْن بفعل ما يفصل بيننا من ارتفاع. وكانت صديقة ليندا تكبرنا بالسّنّ قليلًا، لكنّها فتاة بالغة الجمال: لو حصل والتقينا بها في الطريق، لما سَلِمَتْ من نظراتنا.

– يا لأفكار أختي اللطيفة! – قال پيرَتّو، ثمّ أضاف – إنهما بانتظارنا.

– لعلّ ليندا جلبتْها من أجلكَ!

رفع پيرَتّو يَدَيْه في حَرّ الشّمس، وكوّرهما أمام فمه، ثمّ صرخ عاليًا، ولكنْ؛ يبدو أن ضوضاء البحر، والذي كان بالكاد يصل إلينا، قد غطّى على صرخته. قمنا، عندئذٍ، ورمينا بعض الحصى، فرفعتِ الفتاتان رأسَيْهما صوبنا، ولوّحتا لنا بأيديهما، ويبدو أنهما صرختا بشيء ما، لكنّه لم يصل مسامعنا.

– هيّا لننزل – قلتُ.

ووجب علينا أن نبلغ الشّاطئ عن طريق البحر، بعد أن عمْنا في الماء الأخضر. أمضينا وقتًا طويلًا في اللعب مع الفتاتَيْن، فوق الصخور وفي الماء. بعد ذلك، استلقيتُ على الرمال، تحت وطأة الشّمس، وأنا أتأمّل زبد البحر يتسلّق رمل الشّاطئ، وكان پيرَتّو يُشاغل أخته وصديقتها بأحاديثه. وأذكر، من بين ما أذكر، أنّنا أكلنا الدّرّاق. وكانتْ حواراتهم تدور حول نواة الدّرّاق، وقصاصات الصّحف المنتشرة على الشّواطئ التي لا يرتادها أحد. وكان پيرَتّو يصرّ في القول على أن ليس ثمّة زاوية في هذا العالم إلا ودنّستها قدم الإنسان. يقول إن الغيوم والأفق البحري ما زالا، بالنسبة إلى الكثيرين، مكانَيْن عذراوَيْن، لم يُفسدهما البشر بعد. ويقول إن رغبة الإنسان الأزلية في أن ينال المرأة قبل أن يمسّها أحد قبله، ما هي إلا بقايا تلك الرّغبة، أي الهوس الأحمق في نيل شيء ما قبل الآخرين. وكانت كارلوتّا، صديقة ليندا، تجادله، وشَعْرها يخفق أمام عينَيْها، ولم تفهم طبيعة مزاحه، فكانت تتضاحك بحنق.

أكان عليه أن يخوض هكذا حوار مع كارلوتّا بالذات؟ وكانت كارلوتّا إنسانةً بسيطةً، عادةً ما تقول: يا إلهي، كم هو جميل! تقول ذلك حينما ترى البحر، أو حين ترى طفلًا أو قطًّا. نعم، كان لها أصدقاء كُثُر على الشاطئ، وفي صالات الرقص التي ترتادها، لكنها كانت تقول إنها لا ترغب في أن تلتقي، في شوارع المدينة، بمَنْ رآها شبه عارية على شاطئ البحر. وكانت تشبك ذراعها بذراع ليندا، حينما يذهبان للتّمشّي.

على أن پيرَتّو لم يكترث لهذه الأمور كلها. فصرخت به ليندا، وكانتْ مستلقية تحت الشّمس، فوق الصخرة، وطلبت منه أن يكفّ عن

الحديث في هذا الأمر. لكنّ بيرَتّو أخذ يتحدّث عن الدماء. قال إن توق الإنسان في نيل ما لم يمسّه أحد قبله، وبحثه عن الأماكن التي لم تدنّسها قدم الإنسان، ما هي إلا رغبة في سفك الدماء.

– نحن نمارس الجنس من أجل أن نجرح الآخر، ومن أجل سفك دمه. – ثمّ شرح مقصده قائلاً – إن البرجوازي الذي يرمي إلى الزواج بامرأة عذراء، إنما يفعل ذلك من أجل تحقيق هذه الرغبة.

– كفّ عن هذا – صرخت كارلوتّا.

– لماذا؟ – أجاب هو – كل واحدٍ منّا يأمل في نيل تلك الرغبة.

نهضت ليندا، تمطّت بمواجهة الشّمس، ثمّ اقترحت أن ننزل للسباحة.

– نتسلّق الجبال أو نذهب إلى الصيد، إنما نقوم ذلك للسبب ذاته – أكمل بيرَتّو حديثه – كذلك تفعل الوحدة في الأرياف، فهي تجعلكَ متعطّشًا للدماء.

لم تعُدْ كارلوتّا الجميلة، بعد ذلك اليوم، إلى ذلك الشاطئ. فقالت لنا ليندا، عندئذٍ:

– الزما حدودكما.

كان بيرَتّو يتعامل مع النساء بهذه الطريقة، ويدّعي بأنه يسلب عقولهنّ. بعد ذلك يعاود تجواله، من أجل استكشاف أماكن جديدة وأناس جدد، وينتهي الموضوع. يمضي الصيف على هذا المنوال، ولم

يجنِ منه پيرَتّو سوى صداقاتٍ مع أصحاب الحانات السّيّئة الصيت، وبعض المتقاعدين العجائز.

وكان ذلك الشاطئ الصغير قد علق في ذاكرتي، إذ لم يكن البحر الشّاسع يمثّل لي شيئًا، بل كانت الأماكن الضّيّقة هي ما يملك شغاف قلبي، بما لها من شكل محدّد، وما تنبض فيها من حياة : كالشّواطئ الضّيّقة، والطُّرُقات التّرابية، والرّوابي، ومزارع الزّيتون. وعادة ما يحدث، وأنا مستلقٍ على صخرة كبيرة عند الشاطئ، أن أتأمّل حجرًا بحجم قبضة اليد، فأراه شاهقًا أمام السماء، كجبلٍ عظيم. هذه هي الأشياء التي تسلب لُبّي.

أمّا الآن، فإني أفكّر بأوريسته، وكانت تلك المرّة الأولى التي يصطاف فيها على البحر. لا أظنّ أن پيرَتّو سيسمح له بالنّوم، ويهيّأ لي أن هذَيْن الاثنَيْن قادران على ممارسة أيّ شيء، كأن يسبحا أو يتجوّلا عُراة. ثمّ ستكون هناك ليندا وصديقاتها، وكذلك والد پيرَتّو، وهو رجلٌ صارمٌ، لا يُؤمَن جانبه. وكان ما افتقده هناك هو النهوض المبكّر، قبل شروق الشّمس، والتّمشّي – بتؤدة – على طول الساحل، تحت ما تبقّى من نجوم السّماء. بيد أن أوريسته لا يحتاج لهذه الأشياء كلها، من أجل أن يستمتع بالعطلة الصيفية. على أنّي مستعدّ لدفع أيّ شي، في سبيل أن أسمع رأيه حول طريقة العيش تلك، وأنا أصحبه معي في جولة على القارب، في نهر البو.

على أن أحدًا منهما لم يعد إلى تورينو، لكنّ ليندا عادتْ، وكانتْ مرتبطة بالعمل، واتّصلتْ بي في مطلع شهر آب.

– اسمع – قالتْ لي – إن صديقَيْكَ ينتظرانكَ في بلدة ما، لم أعد أتذكّر اسمها. عرّج عليّ في العمل، وسأزوّدكَ بالتّفاصيل.

فذكرتُ لها – على الفور – اسم البلدة:

– إنها بلدة أوريسته التي تقع فوق التلال. لقد سبقاني إلى هناك، هذان اللعينان.

والتقيتُ بليندا قبيل العشاء، أمام المقهى الذي اعتادت ارتياده. وكدتُ أن لا أتعرّف عليها، من شدّة سمرة بشرتها. وحدّثتني، كعادتها، وهي تتضاحك، كما يتمازح الشباب فيما بينهم.

– هلاّ طلبتَ لي شراب الڤيرموت(*)؟ إنه تقليد معمول به على شواطئ البحر.

جلستْ، ووضعتْ ساقًا على ساق، ثمّ قالت:

– كم هو مرير أن تغادر الشاطئ إلى المدينة في شهر آب. أحسدكَ لأنكَ لم تخرج منها.

ثمّ أخذنا نتحدّث عن أوريسته وپيرَتّو:

– لا أعرف ما قام به هذان الاثنان، لقد تركتُهما يتصرّفان كيفما يحلو لهما، إذ لم يعودا صغيرَيْن. وقد كنتُ برفقة أصدقائي هذا العام، وهم شباب ناضجون، قياسًا بكم.

– وماذا عن كارلوتّا الجميلة؟

---

*) نبيذ ايطالي أحمر أو أبيض، معطّر ببعض النباتات المرّة المذاق، وتُعدّ نبتة الأفسنتين العنصر الرئيس فيه. (المترجم).

ضحكت ليندا ملء فمها، وقالت:

– إن پيرَتّو عادة ما يبالغ في الأمور، شأن أفراد عائلتنا كلهم. أنا أيضًا أقوم بهذا أحيانًا. نحن عائلة رهيبة، تزداد حالتنا سوءًا، كلّما تقدّم بنا العمر.

كنتُ أتطلّع إليها، دون أن أبدي اعتراضًا على مقالتها. انتبهتْ إليّ، فكشّرتْ في وجهي.

– ربمّا لم أعد في العشرين من العمر، مثلكم – قالت – ولكنْ؛ هذا لا يعني أنّني طاعنة في السّنّ.

– أحيانًا يُولَد المرء عجوزًا، لا أن يُصبح كذلك فيما بعد – قلتُ.

– هذه – لا شكّ – إحدى الدُّرر التي يتفوّه بها پيرَتّو – صرخت ليندا – تلك التي تتدحرج من فمه بطريقة تلقائية.

فكشّرتُ أنا – أيضًا – في وجهها، وقلتُ:

– تصدر عنّا واحدة يوميًا، على أقلّ التقديرات، حتّى نملّ منها، فنبحث عن غيرها.

-9-

ويقع بيت أوريسته، الوردي الطلاء، يقع على قمّة تلّ صخريّ، وتمتدّ تحته، في غمرة الضوء الساطع، أودية ومنحدرات باهرة الجمال. قطع القطار الهضبة طوال الصّباح، تلك الهضبة التي كنتُ أعرفها عن ظهر قلب، فكانت تمرّ أمام ناظري – عبر النافذة – أماكن الطّفولة: السّواقي التي تحفّ بها الأشّجار، سطح الماء الذي يبدو كمرآة، قطعان الإوز والمروج الشّاسعة. كنتُ غارقًا في التّفكير حينما سلكَ القطار الطُّرُقات المُنحدِرة، فكان عليّ أن أرفع بصري إلى الأعلى، كي أرى الشّمس. توقّف القطار، بعد أن اجتاز نفقًا ضيّقًا، خرجتُ إلى ساحة المحطّة، وكان الطقس خانقًا والهواء محمّلاً بالغبار، وتمتدّ أمام عينَيّ سفوح التلال. وصف لي صاحبُ عربة بدين الطريقَ التي يجب أن أسلكها: وكان يُفترَض بي أن أتّخذ الطريق الصاعدة، فالبلدة كانت فوق قمّة التّلّ. رميتُ الحقيبة فوق العربة، ومشيتُ إلى جانب الرجل البدين، نساير خطى الثيران البطيئة.

سلكنا طُرُقات تنتشر على جانبَيْها مزارع الكروم وحقول القمح الذهبية، ومع اتّساع طريق التلال كانت تبرز أمام ناظري بلدات بعيدة، مزارع كروم جديدة وسفوح تلال أخرى. سألتُ صاحب العربة عن مَنْ غرس مزارع الكروم الجديدة، وفيما إذا كانت اليد العاملة كافية لسدّ

الحاجة. وكان هو ينظر إليّ باستغراب، ويتحدّث عن أمورٍ عامّة، محاوِلًا أن يكتشف من أكون:

– إن هذه المزارع موجودة منذ زمن طويل. أتحسبُ أن غرس مزارع الكروم مثل بناء البيوت؟

وحين كنّا نسير تحت السفح الذي تعتليه بيوت البلدة، وددتُ أن أسأل الرجل عن سبب إنشاء تلك البيوت فوق قمّة التّلّ، ولكنّ عينَيْه الضّيّقَتَيْن ووجه الشديد السمرة جعلتْني أُحجم عن ذلك. وكان الهواء المضطرب يخترق أنفي، محمّلًا برائحة التّين، فكانت تلك النسائم، في طريق المنحدرات، تبدو لي كأنها نسائم بحرّيّة. استنشقتُ الهواء ملء رئَتَي، وتمتمتُ:

– يا للهواء العذب!

وكانتِ البلدة عبارة عن شارع ضيّق، تتوزّع على جانبَيْه باحات، تتوسّط البيوت، أو فِلّات تُطلّ منها الشرفات. لاحت لي حديقة، تنتشر فيها أزهار الأضاليا، والزينيا واللّقلقي – يغلب عليها اللونان الأحمر والأصفر – فضلًا عن أزهار نبتَتَي الفاصولياء والكوسة. وكانت تنتشر بين البيوت فسحات ظليلة، أو سلالم، أو أقفاص الدجاج، أو مجالس تحتلّها بعض الفلاحات العجائز. وكان بيت أوريسته في أحد أركان تلك الساحة، يقع على طرف سفح التّلّ، وقد طُلي بلون وردي متفاوت الكثافة. وكان أشبه بفيلا، أكلت الريح والنباتات المتسلّقة طلاءه. فقد كان هبوب الريح العالية، هناك في الأعلى، لا ينحصر على وقت معيّن، وقد أدركتُ ذلك ما إن دخلتُ تلك الساحة، وأشار صاحب العربة إلى

البيت. وكنتُ مبتلًّا بالعرق، ولكنني توجّهتُ مباشرةً، وارتقيتُ درجات السّلّم الثلاث، أمام باب الدار. طرقتُ الباب بالمقرعة البرونزية، وأخذتُ أجول ببصري في المكان وأنا أنتظر مَنْ يُجيبني: كان هناك الطلاء الخشن تحت ضوء الشمس، ونبتات العشب البارزة أمام أفق السماء، وصمت ما بعد الظهيرة العميق. كان ضجيج العربة المغادرة يملأ المكان، حين خطر في ذهني أن هذه الأماكن مألوفة بالنسبة إلى أوريسته، فقد وُلد ونشأ هنا، ولا بدّ أنها تعني له الكثير. وفكّرتُ بالأماكن الكثيرة في هذا العالم، والتي ينتمي إليها أحدهم، بل وتسري في دمه، في حين لا تعني شيئًا للآخرين. طرقتُ الباب بيدي، مرّة أخرى.

أجابتْني امرأة من وراء دفَّتَي شبّاك الباب الموارَبَتَيْن، سألتْني مَنْ أكون؟ تمتمتُ بشيء ما، كانت تريد أن تعرف عمَّنْ جئتُ أبحث. أخبرتْني أن أوريسته وصديقه ليسا في البيت، ثمّ طلبت منّي أن أنتظر، اعتذرتُ لمجيئي في وقت غير مناسب.

أخيرًا فتحت لي الباب. وكانت هناك نساء كثيرات يتنقّلنَ في أرجاء البيت؛ عجائز وخادمات شابّات وأطفال. استقبلتْني والدة أوريسته باضطراب، وكانت امرأة بدينة، تضع مئزر المطبخ، سألتْني كيف كانت رحلتي؟ ثمّ صحبتْني إلى غرفة غارقة في ظلّ – وحين فتحت الشبابيك، بدت أمامي صالة كبيرة، تتوزّع فيها الأواني الفخّاريّة واللوحات والمزهريات وطاولة من الخيزران، وكانت الأغطية تكسو الأثاث. سألتْني المرأة إن كنتُ أرغب بفنجان قهوة. وكانت تنتشر في البيت رائحة الخبز والفاكهة. جلستْ معي، نتجاذب أطراف الحديث، وعلى محيّاها ابتسامة، تشبه ابتسامة أوريسته. وأخبرتْني أن أوريسته سيعود في الحال،

كذلك باقي الرجال، ذلك أن موعد الغداء كان سيحين بعد ساعة. ثمّ قالت لي إن أصدقاء أوريسته طيّبون كلهم، أولا يدرسون معه في الكلّيّة ذاتها؟ ثمّ نهضت وهي تقول:

– هناك ريح قوية – وأغلقت النوافذ – أرجو أن تعذرنا، عليكم أن تناموا معًا في الغرفة ذاتها. أتودّ أن تغتسل؟

وحين عاد أوريسته وپيرَتّو كنتُ أنا قد استكشفتُ جوانب البيت كلها. فقد كانت غرفتنا تُطلّ على الفضاء، حيث تتناثر التلال البعيدة في الأفق، وعرفتُ أنّهم يغتسلون في حوض دائري كبير، يتساقط الماء من جوانبه، ويبلّل الأرضية المصنوعة من الطابوق الأحمر.

– لا تشغلْ بالكَ إذا ما ابتلّت الأرضية، فهذا يساعد على طرد الذباب – قالت لي والدة أوريسته.

وكنتُ قد خرجتُ إلى الشرفة، ونزلتُ إلى المطبخ، حيث تعمل النساء أمام الموقد الذي تتفرقع فيه النار. وكنتُ قد تصفّحتُ روزنامات وكُتُبًا دراسية قديمة في مكتب والد أوريسته، حيث دخل فيما بعد وهو يتحدّث بصوت عالٍ، وكنتُ قد تعرّفتُ إليه من الصور المعلّقة في الصالون. وكان لوالده شوارب كثّة، أشعل لي سيجارة، وحدّثني عن أشياء كثيرة. وكان يريد أن يعرف إذا ما كنتُ أنا أيضًا قادمًا من البحر، وإذا ما كان لوالدي أراضٍ في الريف، وإذا ما كنتُ قد درستُ الرهبنة، مثل صديقي پيرَتّو. وكنتُ حذرًا في الحديث معه، فتركتُه يثرثر كما يشاء. عليّ أي حال، فقد كان ذلك ممكنًا.

– وهل قال لكَ أوريسته ذلك؟ – سألتُه.

– إنّنا نثرثر، كما تعرف – قال لي – والنساء يصدّقنَ هذه الثرثرة، أو قلْ يرغبنَ في تصديقها. ويبدو أن پيَرَتّو له باع طويل في شؤون الرهبان، فقد درس الرهبنة، وكان يتحدّث عن مدرسة القساوسة، وعن الأسس الدينية ... حتّى إن حماتي جوستينا أرادت أن تتّصل برئيس الرهبان في البلدة.

– ولكنّ كلام پيَرَتّو ليس إلا ثرثرة. ألم يعرفنَهُ بعد؟

– أمّا بالنسبة إليّ – قال الرجل ذو الشوارب – فهي ليست سوى ثرثرة فارغة. ولكنّ النساء يفقدنَ عقولهنّ حينما يأتي الحديث عن هذه الأمور.

– هذا بالضبط ما يقوله والد پيَرَتّو أيضًا – قلتُ. ثمّ رويتُ له كيف أن پيَرَتّو عاش مدّة في الدَّيْر، وكيف تعرّف إلى الرهبان عن كثب، ورآهم يمارسون حياتهم. ثمّ قلتُ إنه وأباه ليسا شديدَي الإيمان.

– إنه يمزح فقط، هذا كل ما في الأمر.

– هذا من دواعي سروري – قال والد أوريسته – أنا مسرور بالفعل لسماع ذلك. يا إلهي، أعاش حقًّا داخل الدَّيْر؟! تصوّر!

وجاء أوريسته وپيَرَتّو، وقميصَيْهما مشرّعَيْن في الهواء، وأخذا يصفعانني – مازحَيْن – على قفاي. وكانت بشرتهما طاعنة في السمرة، وبدا أنهما يتضوّران جوعًا، فانطلقا من فورهما للجلوس إلى المائدة. وأخذ والد أوريسته مكانه في رأس الطاولة، في حين كانت النساء في حركة مستمرّة، عمّات وخالات عجائز، فضلًا عن أخوات أوريسته

الصغيرات. تعرّفتُ إلى المرأة التي وقعت ضحية لثرثرة بيرَتّو، السّيّدة جوستينا شقيقة أمّ أوريسته، وكانت امرأة مسنّة، لكنّ حمرة وجهها تنمّ عن صحّة جيّدة، وأخذت مكانها في الرأس الآخر من الطاولة. وكانت الفتيات الصغيرات يُمازحنَها، ويسخرنَ منها، يتحدّثنَ عن زهور ما يجب وضعها أمام المذبح، إلا أن القسّ وضعها في إناء الماء المقدّس. فكانت القصّة تلمّح إلى طقوس انتقال العذراء(*) الذي يتمّ الاحتفال به في الخامس عشر من آب. وكنتُ أنا أراقب الجميع، ويبدو أن أحدًا ما أوصى بيرَتّو أن يكون حذرًا في أحاديثه، فقد كان يأكل بصمت.

ولم يحدث ما يثير القلق. فقد تحدّثنا عن ذهاب أوريسته إلى البحر، أمّا أنا، فقد حدّثتُهم عن ارتيادي نهر البو، من أجل التّشمّس، وأخبرتُهم أن نهر البو كان يعجّ بالسابحين. وكانت الصغيرات يستمعنَ إلى أحاديثنا بانتباه. أنصتَ إليّ الأب حتّى انتهيتُ من حديثي، ثمّ قال إن الشمس تنتشر في كل مكان، وإنه في زمانه لا يذهب إلى شواطئ البحر سوى المرضى.

– لا يذهب الواحد إلى الشاطئ من أجل الشمس – قال بيرَتّو – ولا من أجل الماء.

– من أجل ماذا يذهب إذنْ؟

– من أجل أن ترى نظيركَ في الخلق عاريًا مثلكَ تمامًا.

---

*) يُعدّ انتقال مريم العذراء، روحًا وجسدًا، إلى السماء بعد موتها أحد أركان الديانة المسيحية بمختلف طوائفها. فبعد وفاة العذراء، الرحم الذي حمل كلمة الله، رُفعت في اليوم الثالث من موتها إلى السماء، لتجتمع الأمّ بابنها في السماء. ويحتفل المسيحيون بهذا الطقس في الخامس عشر من آب/ أغسطس. (المترجم).

– أهناك شواطئ للسباحة على ضفاف البو، أيضًا؟ – سألتْ والدة أوريسته بفضول.

– بالطبع – أجاب أوريسته – بل وهناك أماكن للغناء والرقص.

– عراة – قال پيرَتّو.

من نهاية الطاولة تمتمت جوستينا العجوز:

– أن يذهب الرجال، فهذا أمر أتفهّمه – ثمّ أضافتْ باستهجان – ولكنْ؛ أن تذهب الفتيات لهو عار كبير! يجب أن يذهب الرجال وحدهم.

– أتعنين أنّ على الرجال أن يرقصوا فيما بينهم فقط؟ – قال پيرَتّو – هذا أمر مستهجَن.

– بل الأكثر استهجانًا هو أن تتعرّى الفتيات في الخارج – صرخت العجوز.

واستمررنا بالأكل بنهم، والأحاديث تدور فيما بينهم، تنتقل من فم إلى آخر. وكانوا يتحدّثون – أحيانًا – عن بعض شؤونهم، أو عن شؤون أهل البلدة، عن العمل والأرض، ولكنْ؛ حالما يتدخّل پيرَتّو في الموضوع، يسخن الحوار. ولو لم نكن أصدقاء، ولولا أن تصرّفه ينسحب عليّ أنا أيضًا، لكنتُ استمتعتُ كثيرًا. وكان أوريسته يتطلّع إليّ بانشراح وابتسامة تلوح في عينَيْه، كان سعيدًا بوجودي في بيتهم. لوّحتُ له بيدي مهدّدًا، ثمّ رسمتُ بأصبعَيْن حركةً، تمثّل شخصًا يمشي. لم يدْرك أوريسته قصدي، وجال بنظرةٍ ساخرةٍ بين الجالسين. كان يظنّ أنني سئمتُ الجلوس إلى المائدة.

– يا لمزحتكم السمجة! – قلتُ – ألا يُفترض بنا أن نأتي إلى هنا سيرًا على الأقدام؟

رفع أوريسته كتفَيْه:

– سترى كم سنقطع من المسافات سيرًا على الأقدام، بين سفوح التلال ومزارع الكروم – قال لي – لم نأتِ إلى هنا إلا من أجل التسلية.

ولم يدرك الأب ما عنينا، فشرحنا له مخطّطنا بالمجيء من تورينو إلى هنا سيرًا على الأقدام. أصدرت إحدى أخوات أوريسته الصغيرات صوتًا يوحي بالدهشة، ثمّ شبكت يَدَيْها على فمها، تكتم ضحكتها. وقال والد أوريسته:

– ولكنْ؛ هناك القطار، فما الغاية من ذلك؟

فأجاب بِيرَتّو من مكانه:

– إنه لمن الجميل أن تسافر سيرًا على الأقدام، في حين يسافر الجميع في القطار. قد يشبه الأمر موضة السباحة في البحر. لقد صار لدى الجميع حمّام في البيت، لذا أصبح الاستحمام خارج البيت أجمل.

– تحدَّثْ عن نفسكَ، إذ ذهبتَ إلى البحر – قلتُ.

– يا لغرابة المجتمع! – قال والد أوريسته – كانت الموضة في أيّامنا تسمح فقط للمتزوّجات بارتياد شاطئ البحر.

نهضْنا من المائدة وقد سيطر علينا السُّكْر والنُّعاس. إذ لم تتركِ النساءُ طبقي فارغًا للحظة واحدة، ولم يكفّ والد أوريسته، الذي كان يجلس بجواري، عن سكب النبيذ في قدحي. فقالوا لي:

– اخلدْ إلى النوم قليلًا، فالجوّ حارّ هنا.

صعدْنا، نحن الثلاثة، إلى الغرفة الخانقة. غسلتُ وجهي في الحوض الأبيض، بغية أن أستعيد حيويّتي، ثمّ قلتُ لأوريسته:

– كم سيستمرّ هذا المهرجان؟

– أي مهرجان؟

– يبدو أنّنا لا زلنا في بداية الطريق. إنّنا نأكل ما يعادل غلّة مزرعة كروم في كل وجبة.

فقال پيرَتّو:

– تصوّر لو أنّنا جئنا سيرًا على الأقدام!

وكان أوريسته يضحك وعلى وجهه خطوط ظلّ والضوء المنبعثة من مشربية الشّبّاك الخشبية. وكان قد خلع قميصه، فبرزت عضلاته المسمرّة والمدوّرة.

– أشعر بالراحة ها هنا – قال أوريسته، ثمّ ارتمى على السرير.

– يبدو أن أوريسته اعتاد على الرقص وملامسة النساء – قال، عندئذٍ، پيرَتّو – وكان يرقص وكأنه في غمرة بحر هائج. ما زالتْ رائحة البحر تغزو أنفه، كلّما رأى فتاة ما.

– إن هذه الأرياف تزدحم بالروائح المختلفة – قلتُ وأنا أدنو من مشربية الشّبّاك – انظرْ هناك، كأنه البحر.

فقال پيرَتّو:

– في اليوم الأوّل مسموح لكَ التّأمّل، فتطلّعْ إلى المنظر كما تشاء. ولكنْ؛ عليكَ أن تكفّ عن ذلك ابتداءً من الغد.

تركتُهما يضحكان ويتحدّثان كما يحلو لهما:

– تبدوان سعيدَيْن– قلتُ – ماذا حدث؟

– لقد أكلتَ وشربتَ كفايتكَ، فماذا تطلب أكثر؟ – سأل پيرَتّو.

وأضاف أوريسته:

– لعلّكَ ترغب في تدخين الغليون؟

وكانت نبرتهم المتآمرة تلك، في الغرفة المظلمة، قد جعلتْني أشعر بالضيق. فقلتُ لـ پيرَتّو:

– لقد سبّبتَ الذعر للنساء في البيت. إنكَ تتصرّف كعادتكَ، وأظنّ أن ذلك سيحملهم على طردكَ من البيت.

قفز أوريسته من على السرير، وقال:

– لا مزاح في الأمر، ستبقون هنا حتّى موسم قطف العنب.

– وماذا سنفعل خلال شهر آب؟ – تمتمتُ متذمّرًا، ثمّ رفعتُ قميصي، لأخلعه. وما إن سحبتُ رأسي منه حتّى سمعتُ پيرَتّو يقول:

– إنه شديد السمرة، مثلنا تمامًا!

– الشمس حارقة على ضفاف نهر البو، مثلما على شاطئ البحر – تمتمتُ، فأخذا يضحكان من جديد.

– ماذا دهاكما؟ لعلّكما ثملان؟

– أرنا منطقة السّرّة – قال أوريسته. أزحتُ حزام السروال قليلاً، فظهر جزءٌ أبيض شاحبٌ من البطن. أخذا يقهقهان ويصرخان:

– يا للأحمق! ما زال هناك جزء أبيض في جسده.

– ما تزال العلامة في جسدكَ – قال پيَرَتّو ضاحكًا والبصاق يتناثر من فمه – لا بدّ أن تأتي معنا إلى المستنقعات. لا قيود في هذا المكان، ولا شيء يُخبَّأ عن الشمس هنا.

-10-

وذهبنا إلى هناك في اليوم التالي. وكان ثمّة مجرى ماء، يجري في أخدودٍ واسعٍ، يفصل بين سفح التّلّ الذي كنّا فيه وأرضٍ صخرية مرتفعة. وقد بلغناه بعد أن قطعنا طريقًا تتوسّط مزارع الكروم، وتمرّ عبر حقول الذرة البيضاء، حتّى تنتهي بمنحدر شديد، يؤدّي إلى الأخدود الذي تنتشر فيه أشجار السَّنْط والنّغْت. في عمق ذلك الأخدود كان هناك مجرى ماءٍ ضعيف، تتكوّن منه عدّة مستنقعات متتابعة، يقع أحدِها في حوض عميق أشبه بالبئر، لا يُرى فيه سوى انعكاس السماء وشجيرات توت العلّيْق المتناثرة من حوله.

– يا لها من بلدة! – قال پيرَتّو – يجب عليكَ النزول إلى باطن الأرض، من أجل أن تتمدّد عاريًا تحت الشمس.

واكتشفتُ أن تلك هي لعبتهما؛ يخرجان من البيت عند انتصاف النهار، ويمضيان هناك ساعة أو اثنَتَيْن، عُراة كما ولدتهما أمّاهما، ينغمسان في ماء ذلك الحوض، ويتقلّبان في الشمس. وكان هدفهما من ذلك هو أن يسمرّ جسماهما بالكامل، حتّى المنطقة الخثلية والأرداف، من أجل محو تلك العلامة البيضاء. بعد ذلك يعودان مع موعد الغداء. وكانا عائدَيْن من هناك، يوم وصلت إلى بيت أوريسته.

ها قد فهمتُ الآن سبب أحاديث النساء واضطرابهنّ. ولم يكن لأهل

أوريسته علم بمخطط بيَرَتّو، ولكنّ الاستحمام في مجرى ماء مستترٍ بين مزارع الذرة البيضاء، وإن كانوا رجالًا فقط، وإن كانوا يرتدون السراويل، فإنه لا شكّ يحرّك المخيّلة.

ثمّ اكتشفتُ، عصر ذلك اليوم، أشياء أخرى. وعادة ما يستحيل على المرء النوم، عند وصوله لأوّل مرّة إلى مكانٍ جديد، حتّى لو خلد الجميع إلى القيلولة. وفي أثناء ما كان البيت يغطّ في نومه، وطنين الذباب يملأ أرجاء البيت، هبطتُ السّلّم الحجري، ودخلتُ إلى المطبخ، حيث كانت تصل من هناك خبطات مكتومة وكلام خافت. فوجدتُ في المطبخ أخوات أوريسته الصغيرات وأمّه، وقد سحبنَ أكمام ثيابهنّ، يعجنّ بحيوية على الطاولة. بينما كانت هناك عجوز أمام طست كبير، تغسل فيه الأطباق. ابتسمنَ لي، وقلنَ إنهنّ يجهّزنَ وجبة العشاء.

– ألم يزل الوقت مبكّرًا؟ – هتفتُ. التفتتْ إليّ العجوز التي كانت أمام الطست، تبسّمت عن فم خالٍ من الأسنان، وقالت:

– إنما الجوع يأتي مبكّرًا.

ثمّ تكلّمت أمّ أوريسته، وهي تمسح جبينها:

– إن في هذا البيت نساء كثيرات، فلا يزيد ثقل العمل علينا، إن كان هناك رجلان أو أربعة.

وكانت هناك طفلة بضفائر شقراء، تسكب الماء فوق الطحين بملعقة كبيرة، بقيتْ تتطلّع إليّ ساهمة.

– تحرَّكي أيّتها البلهاء – صرخت بها الأمّ، ثمّ عادت إلى عجينها.

وقفتُ هناك أتفرّج عليهنّ، وقلتُ إنّني لا أشعر بالنعاس. ثمّ توجّهتُ صوب سطل معلّق إلى الحائط، غرفتُ بمغرفة، تساقط منها بعض الماء، وإذا بأمّ أوريسته تنادي ابنتها:

– دينا، اجلبي له قدحًا، ليشرب الماء، هيّا.

– لا حاجة لذلك – قلتُ لها – لقد عشتُ في الأرياف في صباي، وكنّا نشرب الماء من السطل مباشرةً.

وهكذا حدّثتُها عن الإسطبلات التي كانت بحوزتنا، وعن الحقول الفائضة بالماء، وعن قطعان الإوز.

– لحسن الحظّ أنكَ عشتَ في الأرياف – قالت الأمّ – فأنتَ، إذنْ، معتاد عليها، وتعرف كيف هي الحياة هنا.

ثمّ أخذنا نتحدّث عن پيرَتّو الذي كان معتادًا على حياة مختلفة، إذ لم يعشْ سوى في المدينة.

– على العكس، إنه لا يعاني البتّة – قالت الأمّ ضاحكةً – بل هو لم يستمتع في أي مكان كما هنا.

ثمّ حدّثتها عن أبيه المجنون الذي جال بهم في مختلف المُدُن، وحلّ بهم في الأديرة، وفي الفلّات، وفي شقق صغيرة.

– لا يُبهجه سوى الثرثرة، والحديث بسوء عن الآخرين – قلتُ – ولكنه مرحٌ جدًّا، وقضاء الوقت معه أمرٌ مُسلّ بالفعل.

وكانت الأمّ تُعمِل يَدَيْها في العجين، فقالت:

– يؤسفني جدًّا، ولكنْ؛ ها هنا عليكم أن تأنسوا بصحبة أوريسته، أمّا نحن، فإنّنا نساءٌ جاهلات.

ربمّا الجهل هو أسوء الشَّرَّيْن، قلتُ في نفسي، ولم أُفصح عن ذلك، ولكنّني سعيدٌ، إذ ليس في البيت سوى نساء مسنّاتٍ وفتياتٍ صغيرات. تخيّل لو كانتْ هناك فتاة في سنّنا، كإحدى أخوات أوريسته أو صديقة ما، مثل كارلوتّا، ونحن من حولها! في حين كانت أكبر الصبيات هي ديانا، وليس لها من العمر سوى إحدى عشرة سنة. وكانت تلك التي شبكت يَدَيْها على فمها، حين كنّا جالسيْن إلى الطاولة، لتكتم ضحكتها.

وحين سألتُ فيما إذا كان هناك محلّ لبيع السجائر في البلدة، نادت الأمّ ابنتها ديانا، وطلبت منها أن ترشدني إليه. خرجنا معًا إلى الساحة، وسلكنا الطريق ذاتها التي سلكتُها في الصباح. وقد خفّت حدّة الريح، وكانت تجلس على جوانب البيوت، تحت ظلّ، فتيات وعجائز، هربًا من البيوت الخانقة. مررنا بحديقة الأضاليا، ولاحظتُ أنّ هناك فسحات ما بين البيوت، تُطلّ منها الأودية، وتبرز فيها، بارتفاع مستوى النظر، تلال أخرى، كأنها جُزُر معلّقة في الهواء. كان الآخرون يتطلّعون إلينا بنظرات متشكّكة، في حين كانت ديانا الصغيرة تسير بجواري، أنيقة ونظيفة، وقد أثارت فضولهم. فسألتُها عن مكان مزرعة والدها.

– إن مزرعتنا في سان گراتو – قالت، ثمّ أشارت إلى مرتفع أصفر، يَظهر تقوّسه من وراء البيوت في الساحة – هذه المزرعة الأولى، حيث يُنتَج النبيذ الأبيض. ثمّ هناك المزرعة التي اسمها الروسّوتّو، وفيها الطاحونة أيضًا – وأشارت صوب المنحدر، حيث المروج التي تنتشر

فيها المزارع – هناك تقام الاحتفالات، ما وراء محطّة القطار. وقد أُقيمت هذا العام، وأطلقوا الألعاب النارية. لقد شاهدناها برفقة أمّي من شرفة بيتنا.

– ومَنْ يعتني بشؤون المزارع؟ – سألتُها.

– مَنْ؟ الفلاحون طبعًا – أجابت.

– كنتُ أظنّ أنكَ وأخواتكَ تَعملْنَ برفقة والدكنّ.

كشّرت دينا، وتطلّعت إليّ بدهشة:

– بالتأكيد لا، ليس لدينا الوقت للقيام بذلك، إذ علينا أن نشرف على عمل الفلاحين. أبي هو مَنْ يُصدر الأوامر، ثمّ يتولّى بيع المحصول.

– ألا يُعجبكِ العمل في المزارع؟

– العمل هناك يجعلكَ شديد السمرة، ثمّ إنه عمل رجال.

حين خرجتُ من المحلّ، وكان أشبه بقبو تنتشر فيه رائحة الكبريت والخروب، كانت دينا تنتظرني، بملامح جادّة، في الخارج.

– هناك الكثير من النساء يتشمّسنَ على شاطئ البحر – قلتُ لها – لقد أصبحتِ السمرة الشديدة موضة هذه الأيّام. أرأيتِ البحر من قبل؟

قطعنا الطريق ودينا تتحدّث عن هذه الأمور. قالت إنّها لن ترتاد شاطئ البحر قبل أن تتزوّج. ليس بوسعها أن تذهب إليه وحدها، وليس هناك مَنْ يصحبها. فأوريسته لا يصلح لذلك، لأنه ولد.

– وأمّكِ؟

قالت دينا إن أمّها امرأة شديدة الالتزام بالعادات والتقاليد. تقول إن المرأة إذا ما أرادت فعل شيء ما، فعليها أوّلًا أن تتّخذ بعلًا.

– أنذهب لرؤية الكنيسة؟ – قلتُ لها عندئذٍ. وكانت الكنيسة في الساحة المركزية، وهي مبنى عظيم، بُني بالحجر الأبيض، تتوزّع تماثيل الملائكة والقدّيسين في التجاويف المنتشرة في حائطها الداخلي. رفعت الستارة عند المدخل، مرّت دينا بخفّة، رسمت علامة الصليب، ثمّ جثت على ركبَتَيْها. ألقيْنا نظرة من حولنا، في ظلّ البارد المزدهي بالألوان. لاح لنا المذبح الأبيض في العمق، كأنه قطعة من حلوى التروّنه(*)، وحوله الأزهار والشموع.

– مَنْ يحمل الورود إلى السّيّدة العذراء؟ – سألتُ.

– الفتيات الصغيرات.

– ألا يصبحنَ شديدات السمرة حين يذهبنَ لقطفِ الأزهار من المزارع؟

بينما كنّا نخرج، التقينا بامرأة عجوز عند الباب، كانت السّيّدة جوستينا. تنحّت جانبًا بتهذيب، ثمّ تعرّفتْ إليّ وإلى دينا، فزمّت شَفَتَيْها بابتسامة دهشة. انتهزتُ لحظات دهشتها، وعجّلتُ بنزول السّلّم في الخارج إلا أن جوستينا كادت تطير من الفرح، فالتفتت إليّ، وقالت:

– خيرًا صنعتَ، يا فتى. عبادة الله تأتي قبل كل شيء. هل التقيتَ بالقسّ؟

---

*) التروّنه هي حلوى ايطالية بيضاء اللون، تُحضّر غالبًا في عيد الميلاد المجيد، وتُصنع من بياض البيض والعسل والسّكّر، وتُحشى بالجوز والبندق المحمّص والفول السوداني. (المترجم).

قلتُ متلعثمًا إنني مررتُ لمجرّد إشباع فضولي، لا لشيء آخر.

– ما الذي أسمعه؟ – قالتْ – لا ينبغي عليكَ أنّ تشعر بالحياء. ما فعلتَ إلا صالحًا، فلا تكترث لما يقوله الآخرون. لقد أثلجتَ صدري ...

تركناها تصعد السّلّم، وحين كنّا نقطع الساحة أخبرتْني دينا أن العجوز تختلف إلى مقرّ الرهبان المجاور للكنيسة طوال الوقت، مهمِلةً أعمال البيت، كنشر الغسيل والطبخ وغسل الأطباق. ذلك كله من أجل أن تقوم على خدمة الرهبان، تقرّبًا إلى الله.

– لو أن الجميع يفعل ما تفعلين – تقول لها أمّي – فماذا سيحلّ بالبيوت؟

– ستحلّ بها الجنّة – تجيبها السّيّدة جوستينا.

وحدثتْ أشياء أخرى عصر ذلك اليوم، والتقيتُ بأشخاصٍ آخرين. ثمّ حلّ المساء، فأكلنا وشربنا، وتجوّلنا في البلدة، تحت النجوم. في اليوم التالي أعدتُ التفكير بكل شي، وكنتُ عاريًا في عمق الحوض، تحت الشمس الحارقة، وبجواري أوريسته وبيرَتّو يلعبان بالماء كالصبيان. من عمق الحوض الخانق كنتُ أرى السماء شاحبة اللون، بفعل حدّة الضوء، وأسمع اهتزاز الأرض وضجيجها. كنتُ أفكّر فيما قاله بيرَتّو عن أن الأرياف المصطلية تحت شمس آب تجعلكَ تفكّر بالموت. ولم يكن مخطئًا في مقالته. فنزولنا هناك عُراة، ونحن ندرك ذلك، واختباؤنا عن الأعين من أجل الاستحمام وحرق بشرتنا لتصبح كجذع أسود، فيه شيء من الشؤم؛ وهو أقرب إلى السلوك الحيواني منه إلى السلوك الإنساني. وكنتُ ألحظ في جدار الحوض المرتفع بروز الجذور والأعشاب وكأنها شرايين سوداء: إنها الحياة الباطنة والخفية للأرض. وكان أوريسته

وپيرَتّو، وقد اعتادا النزول هناك، يتقلّبان ويمرحان ويُثرثران. وهزئا من بياض جنبَيْ، وكأن البياض وصمة عار.

وليس لأحد أن يكتشف وجودنا هناك، إذ كانت حقول الذرة الصفراء، التي تلاعبها الريح، تُصدِر ضجيجًا، يغطّي صخبنا. لذلك كنّا مطمئنّين. أوريسته الذي كان مستلقيًا في الماء قال:

– دعا الشمس تحرقكما في كل مكان، عمّا قريب سنصبح كالثيران.

كان يبدو غريبًا أن تفكّر بالعالم الخارجي، بالناس وبالحياة العامّة، وأنتَ هناك في الأعماق. مساء الأمس كنّا نتجوّل في البلدة، وجلسنا على الجدار الواطئ في الساحة. النبيذ والهواء الطّيّب بعثا فينا الحياة، فمزحنا وضحكنا، والتقينا بالشّبّان، واستمعنا للغناء. وكان هناك القسّ أيضًا، يتمشّى في ظلّ، ويتبع تحرّكاتنا. وصادفنا شبّانًا يُثرثرون، أخذوا يصرخون ويحيّون أوريسته. تبادلنا الكلام والمزاح تحت النجوم، دون حتّى أن نرى وجوه بعضنا، مع فتاة ما، مع رجل مسنّ، أو فيما بيننا. غمرني هذا كلّه بسعادة غريبة المذاق، وجعلني أشعر بالبهجة والمسرّة، وقد ساهم الهواء الطّيّب وتراقص النجوم والأضواء البعيدة، في زيادة رحابة النشوة والسعادة حتّى تسرّبتا إلى المستقبل، وشملتا الحياة كلها. وكان هناك أطفال في الساحة، يلاحق بعضهم بعضًا، وضجيجهم يملأ المكان. خطّطنا لمشاريع كثيرة، وذكرنا أسماء بلدات صغيرة تنتشر على قمم التلال وسفوحها، وتحدّثنا عن أنواع النبيذ الذي سنحتسيه، وعن المتع التي تنتظرنا في قادم الأيّام، وعن مواسم قطف العنب.

– في شهر أيلول – قال أوريسته – سنذهب في رحلات للصيد.

عندئذٍ، خطر في ذهني پولي.

-11-

ودار الحديث عن پولي، وسط صرير الجَدَاجِد.

– يقع تلّ الگَرَبّو هناك – قال أوريسته – أسفل كومة النجوم تلك. بالكاد يبرز شيءٌ منه وراء المرتفع. عند أوائل الصبح بوسعكَ أن ترى قمم أشجار الصنوبر.

– لنذهب إلى هناك، هيّا – صرخ پيرَتّو.

ولكنّ أوريسته قال إن الذهاب إلى هناك في الليل لا يستحقّ العناء، وإن پولي بالتأكيد لا يزال على شاطئ البحر.

– وإن لم يبقَ هناك، هذه المرّة؟ – قال پيرَتّو.

– ولم لا، فقد تحسّنت صحّته، وشُفي.

– لعلّ امرأة أخرى أطلقت عليه النار.

– أيجب أن يتعرّض دائمًا إلى ذلك؟

– ألا تعرف أن الأمر الذي يصيبكَ مرّة، لا بدّ له أن يتكرّر؟ – قال پيرَتّو بصوت مرتفع، بفعل هبوب الرياح – وكما كانت ردّة فعلكَ الأولى، فستكون هكذا دائمًا. ليس عبثًا أن الواحد منّا يقع في مصيبة، ثمّ تتكرّر المسألة مرارًا. هذا ما يسمّيه الناس بالقدر.

تحدّثنا مجدّدًا عن پولي في اليوم التالي، على الغداء، بعد عودتنا من الحوض. وقال أوريسته للجالسين حول المائدة:

– أتعرفون بمَن التقيتُ هذا العام؟

وأخذ يحدّثهم عن إصابة پولي، وعن روزالبا والسّيّارة الخضراء، وعن الليالي التي قضيناها نتنقّل في السّيّارة. فانتاب الجالسون الفضول، وأمطروه بالأسئلة وعبارات الدهشة، وفي لحظة صمت قالت أمّ أوريسته:

– كم كان طفلًا جميلًا! لا زلتُ أذكره حين يمرّون من هنا في العربة المكشوفة. وكانت المربّية تحمله، وهو يرتدي ثوبًا من الدانتيل، تتدلّى منه الحلي. وكنتُ حينها حُبلى بأوريسته.

– أنتَ واثقٌ أنه پولي، ابن صاحب تلّ الكَرَبّو؟ – سأل الأب.

كرّر أوريسته الحكاية ابتداءً من الليلة التي التيقنا فيها پولي على التّلّ.

– ومَنْ تكون تلك المرأة؟ – سألتِ الأمّ بوجه شاحب.

وكانت الفتيات يستمعنَ إلى الحكاية والدهشة مرسومة على وجوههنّ.

– كم أنا آسف من أجل أبيه – قال والد أوريسته – كان أحد أبرز الرجال في ميلانو. انظر كيف تنفد الأموال!

– أي أموالٍ تنفد؟! – هتف پيَرّو – هذا لا شي بالنسبة إليهم. لقد أعاد والده كل شيء إلى نصابه. إنها أمورٌ عادةً ما تحدث في العائلات الراقية.

– ليس عندنا، هنا في البلدة – ردّ أوريسته.

تدخّلت العجوز جوستينا، وكانت تُنصت بانتباه حتّى تلك اللحظة، متأهّبة كالصقر، وهي تنقل نظرها بين المتحدّثين.

– الولد محقٌّ فيما يقول – هتفتْ وهي تُومِئ إلى پيرَتّو – إن هذه المعاصي تُرتكبُ في كل مكان. على الأبوَيْن أن لا يتركا أبناءهما طليقين كالكلاب السائبة، بل يجب أن يفرضا عليهم الطاعة، ويحاسباهما على كل شيء ...

واستمرّت بخطبتها لبعض الوقت، وعرّجت بحديثها الغاضب على الرقص والسباحة في البحر. ولم تفلح كلمات أختها، أمّ أوريسته، في إيقافها، وهي تُومِئ صوب الفتيات الصغيرات، وإلى دينا على وجه الخصوص. على أن السّيّدة سابينا، ولا أعرف إن كانت إحدى الخادمات أو إحدى أقاربهم، نجحت في مقاطعتها وهي تسأل، من نهاية الطاولة، عن المقصود من حديثنا؟ صرخوا شيئًا ما في أذنها، فأجابت بصوتها الحادّ، وفي شيء من الاستياء، أن البيت في مزرعة الگرپّو مفتوح، وأن زوج الخيّاطة التي تعمل قرب المحطّة قال إنه رآهم يحملون الصناديق إلى البيت، ولكنّها لم تسمع شيئًا عن أمر الفتى. الشيء المؤكّد هو أن خادماتهم هناك، في البيت.

صعدنا عصر ذلك اليوم إلى سان گراتو، حيث المزرعة الواقعة على التّلّ الذي خلف البلدة، فاستقبلنا والد أوريسته، وكان قد سبقنا إلى هناك بعد قيلولة الظهيرة. كان فلاحوه يكافحون أشجار الكروم بكبريتات النحاس. يدورون تحت وطأة الحَرّ، مَحنيّي الظهر، وهم يرتدون قمصانًا

وسراويل متيبّسة وملطّخة باللون الأزرق، ويضخّون الماء الأزرق من قنانٍ حديدية على الظهر. وكانت أوراق الكروم تقطر السائل، ويصدر عن القناني ضجيجها المستمرّ. وقفنا عند حافّة حوض كبير وعميق، مليء بالماء القاتم اللون، وكأنه عين زرقاء أو سماء في الأسفل. قلتُ للأب إنه لمن الغريب أن يُمطر عناقيد العنب بذلك الرذاذ السّامّ، وقد لاحظتُ أن قبّعات الفلاحين كان متآكلة بسببه.

– كان البشر، في الماضي، يُنتجون العنب دون رشّ هذه الأشياء – قلتُ له.

– لا أدري – قال، وصرخ برجل يضع القنّينة على العشب – لا أدري كيف كانوا يُفلحون في ذلك. أمّا الآن، فالأمراض تغزو الأشجار – رفع رأسه بقلق نحو السماء – أرجو أن لا ينزل المطر ويغسل الأشجار، لأن ذلك يحتّم علينا أن نرشّها بكبريت النحاس من جديد.

ناداني أوريسته وپيَرَتّو من الأعلى، وهما يتقافزان نحو أغصان شجرة ما.

– اِلحقْ بهما، لتأكلَ الخوخ – قال لي الأب – هذا إن تركتْ لكم الطيور منها شيئًا.

اجتزتُ حقلًا ما زال فيه بقايا الحصاد، والتحقتُ بهما على القمّة، فبدا وكأني حلّقتُ في السماء. كانت ساحة البلدة تبدو صغيرةً تحتنا، وحولها غابة من الأسطح والسلالم ومستودعات التبن. تملّكتْني رغبة بالوثوب من تلّ إلى آخر، حتّى يملأ الأفق ناظري. مددتُ بصري ناحية الشرق، حيث ينتهي المرتفع، وحاولتُ أن أشاهد قمم أشجار الصنوبر

في تلك الكريبّو. وكان الضياء يتكدّس هناك، ما بين المنحدرات، والأفق يتألّق. ضيّقتُ عينَيّ، لأواجه قوّة الضوء، مع ذلك، لم أميّز شيئًا سوى ذرّات غبار تتراقص في أشعّة الشمس.

لحق بنا الأب، وهو يثب من صخرة إلى أخرى.

– إنها بلدة رائعة الجمال – قال پيرَتّو بدهشة – أنتَ أحمق، يا أوريسته، لأنكَ تبتعد عن هذه الحياة.

فقال الأب، وهو يُومِئ إلى أوريسته:

– خطر في ذهني أن أرسله للدراسة في كلّيّة الزّراعة. لقد ازدادت صعوبة استثمار الأرض مع مرور الزمن.

– في بلدتنا عادة ما يُقال إن الفلّاح أوسع معرفة من الخبير الزراعي – قلتُ.

– هذا هو المنطق الصحيح – قال الأب – الممارسة أوّلًا. أمّا الآن، فكل شيء يتمّ بالأسمدة الكيمائية. أمّا وقد قرّر أن يدرس الطّبّ، وهو مجال مفيد للآخرين، فالأفضل أن يُنجز دراسته، ويستفيد منها.

– إن دراسة الطّبّ أشبه بالزراعة – قال أوريسته بانشراح – فجسد الإنسان الصحيح مثل الحقل، يعطي ثمارًا جيّدة.

– ولكنْ؛ إن لم تكن حاذقًا، فستذهب ثماره لغيركَ.

– أهناك أمراض كثيرة تصيب أشجار الكروم؟ – قال پيرَتّو مبتعدًا عن الموضوع.

التفت والد أوريسته صوب المزرعة في الأسفل، وسرح بصره فوق الأشجار، حيث يتصاعد دخان مكافحة الفلاحين:

– نعم، هناك الكثير – قال – لقد فسدتِ الأرض. لعلّه كما قال صديقكَ، كانت الأرياف نقيّة، ذات يوم، أمّا الآن، فما إن تُهملها لأيّام حتّى تجد الأمراض منتشرة ...

ودون أن أراه، شعرتُ أن پيرَتّو كان يضحك بخبث.

– إن الأرض كالمرأة – أضاف والد أوريسته – ربمّا أنتُم لا تزالون شبابًا، ولكنّكم ستُدركون ذلك في الوقت المناسب. المرأة تعاني كل يومٍ من شيء ما: ألم في الرأس أو في الظهر، أو لعلّها معكّرة المزاج. أجل، لا بدّ أنها تأثيرات القمر، في طلوعه ومغيبه – قال ذلك، وغمز بعينه مع شيء من الحزن.

ضحك پيرَتّو، بخبث، مرّة أخرى.

– وأنتَ، ماذا تعني بقولكَ إن الأرياف تغيّرت؟ – قال پيرَتّو مشاكسًا إيّاي، ثمّ أضاف – إن الأرياف يصنعها الرجال، والمحراث وكبريت النحاس والنفط ...

– أظنّه كذلك – قال أوريسته، فهزّ الأب رأسه موافقًا.

– ليست هناك أشياء مبهمة في الأرياف – ألحّ پيرَتّو – فحتّى المجرفة آلة علمية.

– لم أقل قطّ إن الأرياف تغيّرت – هتفتُ.

– في الحقيقة إن عمل المجرفة عجيب، بالذات حينما تكون الأرض جرداء، وتتغيّر هيئتها لتصبح كالصحراء – قال والد أوريسته.

وكنتُ أنا مَنْ تطلّع إلى پيرَتّو هذه المرّة، وتفجّرتُ ضاحكًا دون أن أتفوّه بشيء.

هتف پيرَتّو، قائلًا:

– ولكنّ المستنقعات شأن آخر.

– ماذا تعني؟

– إنها تختلف عن هذه المزارع، على سبيل المثال. فالسّيّد هنا هو الإنسان، أمّا في المستنقعات، فالضفدع.

– إن الضفادع والأفاعي توجد في كل مكان في الأرياف. والجَدَاجِد أيضًا – أضفتُ – والخُلْد. والأشجار تتشابه حيثما كانت، في الليل أم في النهار. ثمّ إن في الأراضي المهجورة جذورًا كما في هذه الأرض.

كان والد أوريسته يستمع إلينا بذهن شارد. وفي لحظة ما قال:

– إذا أردتَ أن ترى أرضًا مهجورة، فعليكَ أن تذهب إلى تلّ الگَرَبّو. يا إلهي، لم يفارق هذا الولد وأبوه تفكيري طوال اليوم! هناك أشياء تفهمها لاحقًا. كانت لديهم الكثير من المزارع، حينما كان الجَدّ على قيد الحياة، فلا يشترون من السوق سوى الملح والزيت. لا أسوأ من أن تكون لكَ أرض، ولا تستثمرها.

-12-

كنّا نختلف كل يوم إلى الحوض في الأخدود، نخرج في الصباح ونحن نثرثر ونمزح. وممّا كان يبهجني هو المرور بمروج، ما زال الندى يحطّ على أعشابها. وكنتُ – أحيانًا – وأنا في الحوض الخانق، أشعر بالأرض تحت ظهري وساقَيّ وهي لا تزال باردةً، وتعبق بعطر الليل. أصبحنا الآن نعرف الزوايا الخفية في ذلك الحوض، وخيوط الضوء النحيلة، ونميّز ضوضاء الصباح أو حفيف الأشياء في الخارج. وفي اللحظات الخانقة، حين تمرّ غيمة بيضاء فوق الحوض، يصبح الماء معتمًا، فتبدو الصور المنعكسة في الماء، كالزهور على جدار الحوض أو جزء من السماء، أشدّ وضوحًا.

وقد اعتدنا الاستحمام في ذلك الحوض، مع أن أجسادنا أصبحت سمراء بالكامل. وفي أوّل يوم أحد من مكوثي هناك أمضينا وقت الظهيرة في الكنيسة، دون الذهاب إلى الحوض. كنّا عند باب الكنيسة، بين الجموع، نستمع إلى القدّاس من هناك، بين حركة الأولاد المتواصلة وموسيقى الأورغ وجرس الكنيسة. افتقدتُ، لحظتها، قضاء الوقت هناك، عاريًا تحت حرارة الشمس، وأنا أشعر بالأرض تحت ظهري. ومرّتْ في ذهني أشياء لم أُطلعْ عليها أحدًا.

قلتُ لـ بيَرَتّو الذي كان ينظر ساهمًا إلى قفا أوريسته:

– ألكَ أن تتخيّل هذا الجمع كله عاريًا تحت الشمس، مثلنا؟

پيرَتّو لم يحرّك ساكنًا، فانكفأتُ على أفكاري. وكنتُ قد دخلتُ في نقاش مع أوريسته، حين كنّا نقضي ساعات العصر في مزارع سان گراتو، وكان پيرَتّو حينها يتجوّل في مكان آخر. سألتُه إذا ما كانت هناك بقعة ما في الأرياف، أو ضفّة نهر أو أرض مهجورة، لم تطأها قدم الإنسان، تتساقط فيها الأمطار، وتغمرها الشمس، وتمرّ عليها الفصول، منذ الأزل، دون علم أحد. قال أوريسته إن هذا غير ممكن، فليس هناك مغارة أو بقعة في الغابات إلا ووطأها الإنسان بقدمه أو ببصره. لا بدّ أن يمرّ بها الصّيّادون، على أقلّ التقديرات، أو الهاربون من العدالة، وقد توغّل هؤلاء في كل مكان. قلتُ له إنني حين أقول الإنسان أقصد بذلك الفلاح. لا يهمّ إن كان قد وطأها الصّيّادون، فالصياد يحيا حياة فريسته. كنتُ أريد أن أعرف إذا ما كان الفلاح قد بلغ كل بقعة في المكان، ومرّت يده على تلك الأرض. لنقل إنه اغتصبها. فقال أوريسته:

– مَنْ يدري؟! – وأظنّه لم يدرِك قصدي. هزّ رأسه، وتطلّع إليّ، ورمقني بنظرة ماكرة، كنظرة أمّه. وكنّا – إذّاك – نجلس على طرف مزرعة الكروم، وحين نرفع رؤوسنا، تلوح أمامنا براعم أشجار الكروم راقصة في الهواء. وإذا ما نظرتَ إلى شجرة كروم من الأسفل نحو الأعلى، وأنتَ تراها شامخة نحو السماء، تشعر أنكَ في عالمٍ آخر. وكانت الأرض، المكسوّة بكبريت النحاس، عند أقدامنا، وكذلك أغصان الكروم المنحنية من الأعلى، في حين كانتْ تملأ ناظرينا الأوراق الخضراء، والأعمدة المتشابهة التي تسند أشجار الكروم، وكأنها تبسق نحو السماء. تغزو أنفكَ روائح مختلفة، وتصل مسامعكَ أصوات خفية.

– إن صاحب العربة الذي التقيتُ به عند المحطّة قال لي إن مزارع الكروم موجودة منذ زمن بعيد – قلتُ لأوريسته.

– بالطبع – أجاب هو – فقد كانت المزارع تدرّ الكثير من المال، فتمنح أصحابها حياة ميسورة ورغيدة.

– لكن المدينة، أيضًا، كانت قائمة منذ الأزل – قلتُ – لعلّها كانت قذرة، أو أن بيوتها من القشّ، بضعة بيوت ليس إلا، أو مغارات. فحيث يوجد الإنسان توجد المدينة. يجب علينا الاعتراف أن پيرَتّو على حقّ.

رفع أوريسه كتفَيْه، كانت له طريقته في النقاش، مثل أي شخص.

– مَنْ يدري؟! – قال فجأةً – كم يشعر پيرَتّو بالضجر حينما تُقفل أمّي الباب. وهو المعتاد على التجوال في شوارع تورينو.

– يجب أن نخرج في إحدى هذه الليالي – قلتُ – لديّ رغبة كبيرة في رؤية التلال تحت ضوء البدر. لقد رأيتُه هلالًا البارحة.

– أمّا نحن، فقد سبحنا في البحر تحت ضوء القمر. تشعر وكأنكَ تشرب كأس حليب بارد.

ولم يُخبراني بذلك من قبل، فانتابني إحساسٌ بالحزن والتيه، وشعرتُ بالغَيْرة منهما.

– إن الوقت يمرّ والعنب لا ينضج – قلتُ – متى نعود إلى تورينو؟

وكان أوريسته لا يرغب في الحديث عن العودة إلى تورينو، وقال لي أن لا شيء يعوزني هنا؛ فهم يوفّرون لي الطعام اللذيذ والنبيذ الجيّد، دون أن أصنع شيئًا طوال النهار.

– هذا تمامًا ما أقصد. إن أمّكَ والجميع من حولها يعملون، طوال النهار، من أجلنا – قلتُ له.

والحقيقة كنتُ أنا مَنْ حثّهما على الذهاب إلى الكنيسة، فعلتُ ذلك كرمى العائلة، لا غير.

– ألم نتّفق على الذهاب إلى المزرعة، حيث توجد الطاحونة، اليوم؟

وكنّا نذهب كل يوم إلى البَيت الريفي في المزرعة الأخرى، الروسّوتّو. ندور حول بناءٍ متواضعٍ، تُحفظ فيه الآلات الزراعية، فيظهر والد أوريسته من تحت السقيفة أمام قبو الخمور، ويقدّم لنا الشراب. ولكنّ أجمل ما يميّز مزرعة الروسّوتّو هي الحقول التي حُصدت للتوّ، والمروج المنحدرة نحو الوادي، والمفروشة بحشائش النفل، وأسراب الإوز. في المساء كنّا نمارس لعبة البوتشي(*) مع اثنَينْ من الفلاحين، هما پالي وكوينتو، في حين يذهب أوريسته إلى المحطّة، لإنجاز بعض المهامّ.

– أعتقد أن هناك سرًّا ما يخبّئه أوريسته – قال پيرَتّو – إنه يرسل الرسائل، كل يوم، إلى جنوى.

يبتسم أوريسته، ويهزّ رأسه حينما نتحدّث إليه في الأمر. ثمّ توجّه إلينا بالابتسامة ذاتها، حين كنّا نمرّ أمام بيت، تفتّحت فيه أزهار اللقلقي، وصاح ملقيًا التّحيّة، فأجابه صوت أنثوي بهيج. طلب منّا أن نواصل السير، وانعطف هو على عجل.

– أهي ابنة رئيس محطّة القطار؟ – سأل پيرَتّو، ما إن عاد أوريسته. فضحك الأخير، ولم يتفوّه بشيء.

---

*) لعبة إيطالية تعود أصولها إلى العهد الروماني، تُمارَس على الرمل، لذا عادة ما تنتشر على شواطئ البحر. وهي أشبه بلعبة البولينغ. (المترجم).

– ها هو شيء لا نستطيع القيام به – قلتُ حينها – أن نكون عراةً في غابة ما، ونحتسي النبيذ حتّى الثمالة.

– لمَ لا؟ – سأل أوريسته.

– وليس بوسعكَ، أيضًا، ممارسة الجنس في الغابة، أقصد في غابة حقيقية. ذلك أن احتساء النبيذ وممارسة الجنس هي أمور مدينية. حينما كنتُ أخرج في القارب ...

– أنا على يقين أنكَ لم تفهم شيئًا في هذه الحياة – قال پيرَتّو مقاطعًا حديثي.

– حينما كنتَ تخرج في القارب ... – قال أوريسته، يحثّني على الكلام.

– أجل، كانت معي إحدى الفتيات، وكان بوسعي أن أفعل معها ما شئتُ. ولكنّي لم أستطع فعل شيء، إذ كان يبدو لي أنيّ قد أُقْدِم على إهانة شيء ما، أو أحد ما.

– بل لأنكَ لا تعرف شيئًا عن النساء – قال پيرَتّو.

– وإذا كنتَ عاريًا في المستنقع، أتُقدِم على فعل ذلك؟

قلتُ إنيّ قد أفعل ذلك، ولكنْ؛ على مضض.

– يبدو لي أنّني أرتكب إثمًا – اعترفتُ – لهذا السبب قد يكون جميلاً.

تبسّم أوريسته، وأومأ برأسه، وقد أدرك أنّ النبيذ نال منّا. ثمّ أكملتُ أنا حديثي:

– والدليل على ذلك هو أن هذه الأمور تُمارَس في الخفاء.

فقال پيرَتّو إن هناك أمورًا كثيرة تُمارَس في الخفاء، ولكنّها ليست آثامًا. إنه يتعلّق بمسألة التقاليد والذوق السليم. ربمّا الإثم الحقيقي هو عدم وعينا بالأشياء التي نمارسها.

– خذْ، أوريسته، على سبيل المثال – قال پيرَتّو – إنه يذهب خفية، كل يوم، للقاء فتاته، وهيَ على مسافة قريبة منه. وما الضير في ذلك؟ كل ما يقومان به هو تجاذب أطراف الحديث، ولعلّه يأخذ يدها بين يَدَيْه. وتسأله هي متى سيتخرّج في الجامعة، حتّى يكونا معًا طوال الوقت؟ فيقول لها لم يبقَ سوى عام واحد، بعد ذلك يبدأ الخدمة العسكرية، وحينما ينهيها يحاول الحصول على التعيين. ربمّا ثلاث سنوات، أهذا جيّد؟ ثمّ يستلطفها، ويطبع قبلة على ضفيرتها ...

احمرّ وجه أوريسته خجلًا، وهزّ رأسه، ثمّ مدّ يده إلى قنّينة النبيذ.

– ... أتظنّ أن هذا إثمًا بالفعل؟ – سأل پيرَتّو وهو يميل جانبًا – أهذا المشهد، هذه اللعبة الاجتماعية البريئة، إثم فعلًا؟ ولكنْ؛ بوسعه أن يثق بنا، ويُحدّثنا عن الأمر، وإلّا، فهو ليس صديقًا حقيقيًا. أخبِرْنا، يا أوريسته، اسمها، على الأقلّ اسمها.

تبسّم أوريسته، وتضّرج خدّه خجلًا:

– سأُخبركما في يوم آخر – قال– أمّا الليلة، فلنستمتع باحتساء النبيذ.

بالعربة. قضينا اليوم كلّه في البيت، ننتقل من شبّاك لآخر، بين نساءٍ وفتيات يجفلنَ فزعًا بفعل البرق، وهنّ يُنجزنَ أعمال البيت. في حين وضع الأب حذاءً طويلًا، وغادر البيت. وكان الخشب يقرقع في موقد المطبخ، ويبعث نورًا أحمر، يصنع ظلالًا ساحرة على الورق الملوّن الذي يُزيّن الجدران، وعلى أواني الطبخ، وعلى صور العذراء وأغصان الزيتون المعلّقة على الجدار. وكانتْ هناك قطعٌ من لحم الأرنب على لوح التقطيع الملطّخ بالدم، تفوح منها رائحة الريحان والثوم. أخذ الزجاج يهتزّ، فصرخ أحدهم من الطابق العلوي، يطلب إغلاق الشبابيك.

– إن جوستينا لم تعُد بعد! – صاح أحدهم من على السّلّم. فسمعتُ – حينها – صوت والدة أوريسته:

– لا تقلقوا بشأنها، فلن يصعب عليها أن تجد مكانًا تأوي إليه.

ومرّتْ لحظات، شعرتُ فيها بعزلة غريبة، كأنها لحظات سكينة وهدوء، وسط العاصفة. ووقفتُ تحت السّلّم، وكانت تقطر من المنور بعض قطرات من الماء، وتنبعث منه رائحة المطر، فوصل إلى مسامعي الضجيج الذي يصدره هطول كتل الماء الصلدة. وأخذتُ أتخيّل البساتين التي تسيل فيها الأمطار، ويكسوها الضباب، وكذلك حوض الماء الخانق والجذور العارية، والمغارات المختبئة عن الأعين، تخيلتُ هذه الأماكن كلها وقد اخترقها المطر، ونفذت إليها مياهه.

وتوقّفتِ العاصفة فجأةً مثلما بدأتْ. ولمّا خرجتُ إلى الشرفة، برفقة دينا والأخريات، بلغ مسامعنا لغط أهل البلدة من كل ناحية، في حين كانت هناك بقع جافة فوق الإسمنت الذي افترشته أوراق

الشجر. وهبّت علينا نسائم الوديان، وكانت السحب تندفع بسرعة. وكانت قمم التلال غارقة في ظلّ، وتبرز فيها – هنا وهناك – أحجار بيضاء اللون، فتبدو القمم أقرب لبعضها من ذي قبل. ولم يثر دهشتي الأفق ولا الغيوم المتناثرة، بل الروائح العجيبة التي غزت أنفي، والتي فيها شي من الرطوبة والبرودة، وعبير أزهار سحقها المطر. روائح حادّة لاذعة، فيها طعم الصواعق وجذور الأرض.

هتف بيَرَتّو قائلاً:

– يا للروعة!

حتّى أوريسته كان يعبّئ رئَتَيْه بالهواء، ويضحك منتشيًا. ولم نذهب في ذلك اليوم إلى الحوض، وكان والد أوريسته قد طلب منّا المجيء إلى المزرعة في سان گراتو، لكي يُطلعنا على الأضرار التي نجمتْ عن العاصفة. وقد تساقطتِ الكثير من الفواكه، وبعض قراميد سقف قبو الخمور. وقمتُ، بصحبة الفتيات الصغيرات، بملءالسلال الكبيرة بفواكه التّفّاح والخوخ الملطّخة بالطين، ثمّ رفعنا بعض أغصان الكروم التي هوت على الأرض. وكان يفاجئني بهاء الأزاهير الصغيرة المتناثرة في أرض المزرعة، وهي تنتصب بسيقانها الرهيفة، مع ظهور الشمس، بطريقة ساحرة. وكان دم الأرض الكثيف قادرًا على الإتيان بذلك السحر. وكان الجميع يردّد قائلاً إن الغابة ستمتلئ، عمّا قريب، بالكمأة.

ولم نذهب في اليوم التالي لجمع الكمأة، بل توجّهنا لزيارة ابنَي عمّ أوريسته. انطلقنا من المحطّة، يجرّ الحصان عربتنا، وسلكنا طريقًا ثانويًّا موازيًا للطريق الرئيس. سرنا تحت سفوح التلال، ثمّ عبرنا حقول الذرة

البيضاء، فغابة صغيرة، ثمّ حقولًا أخرى. وقد أتت شمس الصباح بنتائج عجيبة، ولولا صلادة أرض الشارع، بعد أن يبس الطين، والهواء المحمّل بالروائح، لما كان بوسع أحد أن يتوقّع ما حدث في اليوم السابق. كنّا نمرّ عبر الحقول، في طريقٍ صاعدةٍ بنحو خفيف، ساعة تحت ظلال أشجار السنط، وساعة بين غابات القصب.

وكان بيت ابنَي عمّ أوريسته يقع وسط الهضبة، بين تلال صغيرة، يتوسّط غابات القصب وأشجار السنديان. كنتُ أتلفّتُ إلى الوراء عند وصولنا، وقد مررنا للتّوّ في طريق ضيّقة، تحفّ بها الصخور، وقد قال أوريسته – حينها – وهو يشير إلى الأعلى:

– ها هو تلّ الكَرَبّو.

رفعتُ رأسي، فوق مستوى أشجار الكروم المتسلّقة نحو الأفق، فرأيتُ سفحًا كثيف الأشجار والظلال. يبدو مهجورًا، إذ ليس هناك حقل أو بيت.

– أذلك هو التّلّ؟ – غمغمتُ.

– تقع الثيلا فوق قمّته، متوارية خلف الأشجار. من هناك بوسعكَ أن ترى البلدات المنتشرة في السهل.

مررنا بمنخفضٍ، فتوارى تلّ الكَرَبّو، وكنتُ لا أزال أبحث عنه بين الأشجار، حين بلغنا البيت الريفي الذي يسكنه ابنا عمّ أوريسته.

ولم أدرك، أوّل الأمر، سبب حماس أوريسته لزيارة ابنَي عمّه. كانا رجلَيْن بالغَيْن، يكبراننا سنًّا، حتّى إن أحدهما وخط الشيب رأسه، يضع

كل منهما قميصًا من القطن مخطّطًا، وكانت أيديهما خشنة، يكسوها شَعْر كثيف. خرجا إلى الساحة أمام المنزل لاستقبالنا، ودون أن تعتريهما أي دهشة، أوقفا الحصان.

– إنه أوريسته – قال أحدهما.

– داڤيد! چينتو! – صاح أوريسته وهو يثب من العربة.

أقبلتْ نحونا ثلاثة كلاب، أخذت تنبح وتتقافز حول أوريسته. وكانت أرض الساحة أمام البيت بلونٍ بنّيّ، يميل إلى الحمرة، تشبه أرض مزارع الكروم التي مررنا بها خلال الطريق. أمّا البيت، فقد بُني من الحجر، يكسوه لون أخضر مائل إلى الزرقة، بفعل أشجار الكروم المتسلّقة. وكان ثمّة شبّاك، في الطابق الأرضي، يقبع خلفه ظلام دامس.

أوّل ما فعلاه هو أن اقتادا الحصان إلى ظلّ، تحت أشجار السنديان، وتركاه هناك يضرب حوافره بالأرض، ويبحث عن السكينة.

– أنتما تدرسان الطّبّ أيضًا؟ – سأل داڤيد وهو يتطلّع إلينا.

حدّثه أوريسته، بحماس، عن دراستنا وطبيعة اهتماماتنا.

– لنلجأ إلى برودة ظلّ – قال چينتو، ثمّ انطلق أمامنا.

أمضينا ذلك اليوم من أيّام شهر آب الطويلة ونحن نحتسي النبيذ. ينهض أحد الأخوَيْن، بين الحين والآخر، ويتوارى في قبو الخمور الأشبه بمغارة، ثمّ يخرج وفي يده قنّينة نبيذ سوداء. ثمّ انتهى الحال أن نزلنا إلى القبو، وأخذ داڤيد يملأ لنا الأقداح من البرميل مباشرةً، بعد أن ثقب الغراء، وأصبح يُغلق الثقب بإصبعه. على أن ذلك كان عند العصر. وقد

تجوّلنا، قبلها، في البيت وفي مزرعة الكروم، ورأينا النساء وصغارهنّ في ظلام الغرف، وتناولنا وجبة الغداء المكوّنة من العصيدة والسلامي والفلفل. وكان القبو واطئ السقف وخشن الجدران مثل إسطبل، وما إن تخرج منه حتّى ترى أسراب الطيور كأنها غيمات تحوم فوق الحقول التي تنتشر فيها أشجار السنديان.

وكان ثمّة بئر جنب الإسطبل، فسحب داڤيد دلو ماءٍ من أعماقه، ووضع فيه بضعة عناقيد من العنب الأبيض، ثمّ دعانا لنأكل. جلس پيرَتّو على جذع من الخشب، يكركر كالأطفال، ويتحدّث بفمٍ ممتلئٍ. چينتو، الأصغر عمرًا بين الأخوَيْن، كان يدور حول البئر، ويستمع لأحاديثنا، ويتطلّع إلى الحصان بانشراح.

تناولنا في حديثنا مواضيع مختلفة ذلك اليوم، كالحصاد والصيد وعاصفة الأمس ومحصول هذا العام.

– أتمضيان الشتاء هنا أيضًا؟ – سألتُ.

– قد نصعد إلى البيت في أعلى التّلّ، إذا ما تطلّب الأمر.

فتدخّل أوريسته قائلًا:

– ربّما لن تصدّق، ولكنّ الشتاء هو فصلهما المفضّل. أتعرف كم هو جميل الذهاب إلى الصيد فوق الثلج؟

– إن الصيد جميل طوال العام – أضاف داڤيد – على الأخصّ إذا كان في اليوم الملائم.

وبدا أن الكلاب تفهم حديثنا، فنهضت من مكانها بقلق.

– أظنّ أن لا أحد يفرض عليكما القيود هنا – قال پيَرَتّو – مَنْ يدري كم من الأرانب البرّيّة تصطادان خلال شهر آب؟!

– سَلْ چينتو عن ذلك – قال داڤيد ضاحكًا – فهو لا يصطاد سوى دجاج الأدغال.

عندئذٍ رفع أوريسته رأسه، وكأنه يبحث عن شيء ما في المكان:

– أما زال هناك دجاج أدغال في التلال؟ – ثمّ أخذ ينقل نظره بين چينتو وداڤيد – بالمناسبة، أتعرفان أن أحدهم أطلق النار على پولي، ابن صاحب تلّ الگَرَبّو، كما يُطلق النار على دجاج الأدغال؟

أنصت الأخوان إلى الحكاية، وعلى قسماتهما الهدوء. وكان داڤيد يسكب النبيذ في قدح أوريسته الذي كان يسرد القصّة بحماس. انتبهتُ، وأنا أستمع إلى تلك الحكاية القديمة، أنها أصبحتْ أشبه بإشاعة، وأنّها بعيدة كل البُعد عن هذه الأجواء. فما الذي يجمع بينها وبين جلسة النبيذ وهذه الأرض وهذَيْن الرجلَيْن؟

وحينما انتهى أوريسته من سرد القصة، التفت إلى الأخوَيْن، ثمّ إلينا.

– ألم تقل إنه يتعاطى الكوكايين؟ – قال پيَرَتّو معلّقًا.

– آه، أجل – قال أوريسته – لا أظنّ أنه سليم العقل فعلًا.

– لا بدّ أنه يدرك عواقب صنيعه – قال داڤيد – لحسن حظّه أنه لا يزال على قيد الحياة.

– لا أعرف إن كان في تلّ الگَرَبّو الآن – قال أوريسته.

– أجل، إنه موجود – أجاب چينتو بهدوء – عادة ما أرى مدبّرة منزلهم تقصد السوق.

– وماذا عن حارس تلّ الگريبّو؟ – سأل أوريسته بقلق.

كشّر چينتو غير مكترث، فأجاب داڤيد نيابة عنه:

– لقد حدثتْ مشاكل فيما بيننا بسبب غابات القصب. ومع أنّنا اصطدنا طيورًا كثيرةً من هناك، فإن هذا الحارس لا يكترث سوى لأمر القصب. على أي حال، أنتَ تعرف كيف تسير الأمور هنا، إننا نحاول أن نتجاهل ذلك.

-14-

غادرنا مع طلوع القمر، نِشقّ نسائم الغروب الباردة. وقد شعرتُ بالأسف لمغادرة تلك الأرياف ذات التربة الحمراء، ومزارع الكروم السوداء تحت أشجار السنديان.

– هيّا بنا لنذهب، بعد قليل سوف يحلّ الظلام – كان قد قال أوريسته.

انطلق الحصان مسرعًا مثل كلاب الصيد. وبينما كنّا نمرّ تحت شجرة تفّاح، رفع أوريسته يده، فأمطرتْ علينا الفاكهة.

– يا سلام – صرخنا، ثمّ أصدرنا فرقعة بألسنتنا.

– هل حدثَ أن شربتَ هذا القدر من النبيذ دون أن تبلغ مرحلة الثمالة؟ – سأل پيرَتّو.

– إذا ما احتسيتَ النبيذ في الهواء الطلق ومن منابعه المباشرة، فإنكَ قطعًا لن تبلغ مرحلة الثمالة.

ثمّ غمزاني بأعينهما، وقالا لي:

– قلتَ إنّكَ لا ترغب باحتساء النبيذ ولا ممارسة الجنس في الطبيعة، فما رأيكَ الآن؟

تجنّبتُ الدخول في النقاش بخفّة مَنْ يُبعد ذبابة عن وجهه:

– لقد شعرتُ بالارتياح مع الأخوَيْن – قلتُ والهواء يجرف كلماتي.

فأخذنا نتحدّث عن داڤيد وچينتو، وعن النبيذ والعنب في الدلو، وعن جمال الحياة الفطرية.

– على أن أروع ما في الأمر – قال پيرَتّو – هو طريقة تعاملهما مع النساء. فحينما كنّا في الهواء الطلق، نحتسي النبيذ ونتجاذب أطراف الحديث، كانت النساء، وصغارهنّ، قابعاتٍ في المطبخ، ولم يسببْنَ لنا وجع الرأس.

وكانت آخر خيوط شمس المغيب تتخلّل أشجار الكروم، وترمي ضياءها الأحمر على الأرض وجذوع الأشجار.

– ولكنّهنّ يزاولنَ الأعمال – قلتُ – إن النساء هنّ مَنْ يعتنينَ بالمزارع.

– إنكَ أحمقٌ بلا شكّ، يا أوريسته – قال پيرَتّو – عمَّ تبحث في تورينو وفي صالات التشريح؟ ينبغي لكَ العودة إلى هنا، الزواج بتلك الفتاة التي تحبّ والتّفرّغ للعمل في مزارعكم بسلام.

كان أوريسته يحدّق بعنق الحصان، ويتبع انعطافة الطريق، فقال بهدوء:

– ومَنْ قال لكَ إنّي لن أفعل ذلك ... أحتاج فقط لبعض الوقت.

– أي نوعٍ من الرجال أنتُما؟ – قلتُ – أحدكما يريده أبوه قسًّا، والآخر

يريده أبوه مهندسًا زراعيًا، وأنتُما لا ترغبان بذلك مطلقًا، وستُسبّبان لهما الجنون. وفي النهاية فقد أصبحتَ، يا پيَرَتّو، قسًّا ملحدًا، وأنتَ، يا أوريسته، طبيبًا قرّر العودة إلى حياته الريفية.

تبسّم پيَرَتّو بانشراح:

– لا بدّ لكَ أن تساعد أباكَ، وتُفهمه أن الحياة معقّدة. وإذا ما بلغتَ ما كان يرغب به، كما يُفترَض أن يكون، ينبغي عليكَ أن تُقنعه بأنه كان مخطئًا، وأنكَ فعلتَ ذلك من أجله.

– ستتزوّج حقًّا بتلك الفتاة؟ – سألتُ أوريسته.

– إنه يرفض البوح، أتراه، يرفض الحديث عنها – قال پيَرَتّو – ربّما عذره أنّنا سكارى.

كان القمر بهيًا، يميل لونه إلى البياض تارة، وإلى الصفار تارةً أخرى، في عتمة المساء التي حلّت فجأة. أخذتُ أتأمّل أشعّته الليلية التي تغمر البلدة، والأراضي الشاسعة وسياجات المزارع. وخطر في ذهني تلّ الگرَبّو، ولكنّني رأيتُه يتوارى خلفنا في الهواء النقي. "أذاك هو التّلّ؟" كدْتُ أسأل، لولا أنْ تكلّم أوريسته:

– اسمها جاچينتا – قال، دون أن ينظر إلينا، ثمّ صاح بالحصان وهو يهزّ السوط – يا إلهي، لا بدّ أنّي سأصاب بالجنون هذا العام!

في الليلة السابقة، لم يتمكّن أوريسته وپيَرَتّو من النوم، فأخذا يراجعان الأيّام التي قضياها على الشاطئ. وكان أوريسته – وقتها – قد تحدّث عن التلال، والتي كنّا نتوسّطها في تلك اللحظات، قائلًا إنها بدتْ له،

منذ الصغر، أشبه بالأفق البحري. بحر مبهم من الجزر والآفاق البعيدة، وكان هو يقف على شرفة بيتهم، ويغوص فيه عبر خياله.

– كانتْ لديّ، حينها، رغبة عارمة في مغادرة هذا المكان. رغبة أن أستقلّ القطار وأرحل، لأرى العالم، وأحقّق الكثير من الأشياء. أمّا الآن، فإني أشعر بالراحة هنا، ولا أعرف إن كان لديّ توق في الذهاب إلى البحر فعلًا.

– ولكنّكَ كنتَ تعيش هنا شأن الجُدْجُد – قال پيرَتّو.

وصلنا وأصواتنا تصدح بالغناء، وبعد أن قطعنا آخر ما تبقّى من الطريق سيرًا على الأقدام، اعترتْنا الرغبة في احتساء النبيذ مجدّدًا. وقد أدركتِ النساء الأمر، فوضعنَ لنا طاولة في الشرفة، وجلبنَ قنّينة من النبيذ.

– اجلسوا واستمتعوا بعذب الحديث تحت القمر – قالتْ أمّ أوريسته – لطالما شهد هذا القمر بوح أناس قبلكم.

كان الجوّ ساكنًا والبلدة تغطّ في نومها، ولا يصل مسامعنا سوى نباح كلاب بعيدة. وكانتْ تلك ليلة أوريسته، حدّثنا فيها عن جاچينتا. ولمّا غاب القمر، وصاح الديك، قال پيرَتّو:

– سحقًا لكَ، يا أوريسته، لقد جعلتَني أضطرم توقًا للعشق.

وكان اليوم التالي يوم أحد. لقد مرّتِ الأسابيع على عجل. تجولّنا مرّة أخرى، عند الظهيرة، في ساحة البلدة، بين الرجال المرحين والفتيات الموشّحات، وقد حملني ذلك كله إلى التفكير بالشمس

الحارقة والحوض في الأخدود. استمعنا إلى القدّاس حيث كنّا، تحت خيمة السماء. وكنتُ أتساءل إذا ما كان الأخوان الصموتان يشاركان في تلك الطقوس في بلدة مومبيلّو، إذا ما كانا يُوقفان، لبعض الوقت، مجرى حياتهما – في المزارع وقبو الخمور – ليختلطا بعامّة الناس. وقد كانت طقوسهما تتمثّل في الصيد، في التّأنّي والانتظار، وفي العزلة ما إن يحلّ الغروب. وحين بدأ الناس بالخروج من الكنيسة، رحتُ أتطلّع إلى الوجوه بحثًا عن نظرة مختلفة، عن ملامح تُخبّئ وراءها رغباتٍ طَيّ الكتمان، عن وجه ساكن وبرّيّ في الوقت ذاته. خرجتْ – أخيرًا – نساء العائلة، تطلّعتْ إلينا جوستينا بنظرات نهمة، وهي تدفع الفتيات الصغار أمامها، ثمّ فتحتِ النقاش معنا. كانت تريد أن تعرف لماذا نأتي لحضور القدّاس، ثمّ نمضي الوقت في الخارج، عند الساگراتو(*).

– وماذا يكون الساگراتو هذا؟ – سأل أوريسته.

وانطلق پيرَتّو بحديث عظيم، قال إن العالم أجمع هو كنيسة الرّبّ، حتّى إن القدّيس فرنسيس الأسيزي كان يجثو على ركبَتَيْه للصلاة في البراري.

– إن أمر القدّيس فرانسيس يختلف عن غيره، فهو قدّيس عظيم، يؤمن بالرّبّ – ردّت جوستينا بغضب.

– إنما يرتاد الكنيسة مَنْ لا يؤمن بالرّبّ – ألح پيرَتّو – أتظنّين أن القسّ، بوجهه القبيح ذلك، يؤمن بالرّبّ فعلًا؟

---

*) Sagrato هي مساحة صغيرة تتقدّم الكنيسة، وتُعدّ جزءًا منها ومن قدسيّتها، وعادة ما ترتفع عن الطريق بسلّم صغير من بضع درجات. (المترجم).

وكان الناس من حولنا يتحدّثون عن الاحتفالات التي أصبحت على الأبواب، وعن الأسواق الشعبية، فلدى الفلاحين في شهر آب بعض الفراغ، إذ ما بين موسم حصاد القمح وموسم قطف العنب هناك متنفّس لهم. لذلك يعمد الريفيون إلى الترفيه عن أنفسهم، فيرتادون الأسواق، يبيعون ويشترون، ويستمتعون بوقتهم. فكان الكل يتحدّث عن تلك الاحتفالات، ويرتّب للذهاب إليها.

– العبادات – قالت جوستينا – العبادات هي أهمّ شيء. إذا لم تلتزم بطقوس العبادات، فأنتَ لستَ مسيحيًا، ولستَ إيطاليًا.

– لا ينحصر الدِّين في الذهاب إلى الكنيسة – قال والد أوريسته – إن الدِّين شيءٌ معقّد. إنه يعني تربية الأبناء، والقيام بشؤون العائلة، والعيش في وئام مع الجميع.

عادت جوستينا، ووجّهت كلامها لـ پيرَتّو:

– إذنْ، فلنسمع رأيكَ في الدِّين، ماذا يعني لكَ؟

– الدِّين برأيي – قال پيرَتّو وقد توقّف عن السير – هو أن نعرف كيف تجري الأمور في هذه الحياة. لا حاجة للماء المقدّس، بل يجب التحاور مع الآخرين، فهمهم والاطّلاع على ما يرغبون في تحقيقه. كلٌّ لدَيه رغبةٌ ما في هذه الحياة، والكل يرغب في تحقيق شيءٍ ما، لا يدرك كنهه. لذلك فإن الرّبّ، بالنسبة إليهم، يكمن في هذه الرغبات. يكفي أن نفهم ما نرغب به، ونساعد الآخرين على فعل ذلك.

– وإذا ما أدرككَ الموت – قال أوريسته – فما الذي ستسعى لفهمه إذّاك؟

– اللعنة على حفّار القبور – قال پيَرَتّو – إذا ما أدرككَ الموت، فستتلاشى الرغبات كلها.

واستمرّ هذا الحوار على المائدة، وحتّى بعد الانتهاء من تناول الطعام. وقال پيَرَتّو إنه يعترف بالقدّيسين، بل ليس في الدنيا سوى قدّيسين، إذ كل شخصٍ قدّيس فيما يرغب به، ولو تركوه وشأنه لطرح ثماره بلا شكّ. أمّا الرهبان، فإنّ كلًّا منهم يلتصق بأحد القدّيسين الذين أطبقت شهرتهم الآفاق، وهو يقول: "يجب الاحتذاء به، ففيه خلاصنا"، وتناسوا أن ليس في هذا العالم قطرتا ماءٍ متماثلتان، وأن كلّ يومٍ هو يوم جديد يختلف عن سابقه.

ولم يعد بوسع جوستينا أن تجاريه في الكلام، فكانت تحملق إليه بنظراتها الحادّة. وجلسنا نحتسي القهوة في الشرفة، عند الساعة الرابعة عصرًا، في حين كان يتصاعد من تلك الأرياف الشاسعة لغط الناس وحفيف الريح بين الأشجار. ومن ظلّ، حيث كنّا جالسين، كنتُ أرى السفوح النازلة في الوديان، فتبدو كأنها بطون أبقار راقدة. وكان كلّ تلّ يمثّل وجودًا مستقلًّا بذاته، له سفوحه وانحناءاته وسهوله، تنتشر فيها مزارع الكروم والحقول والأراضي المهجورة. وفيه بيوت وغابات وآفاق بعيدة. ومهما أطلتَ النظر، فإنّكَ ستكتشف – دائمًا – شيئًا ما لم تلتفت إليه من قبل؛ كشجرة منفردة أو دروب مخبّأة أو بقعة خالية من الأشجار أو لون جديد. وكانت الشمس، من جهة الشرق، تكشف التفاصيل الدقيقة كلّها، حتّى ظلال الكَرَبّو المضبّبة، والتي تبدو – الآن – أكثر غوايةً من المعتاد. وكنّا قد اتّفقنا على الذهاب إلى هناك في اليوم التالي، على متن العربة التي يجرّها الحصان، لذا فلا بأس بأي موضوع للنقاش من أجل إمضاء هذه الليلة.

-15-

تلّ الكَرَبّو – أيضًا – كان وجودًا مستقلًّا بذاته، والطريق التي تؤدّي إليه تمرّ بتلالٍ ووديانٍ ومنخفضات. وكان يقع ما وراء بلدة أشجار السنديان. كنّا نسير أسفل السفح، وقد ظهرتْ أمامنا أشجار قمّة التّلّ الشديدة الخضرة في الجهة المعاكسة للشمس، فأشار أوريسته – إذّاك – ونحن نقطع منعطفًا صاعدًا، إلى الأرياف المترامية الأطراف التي تمتدّ فيها أراضي پولي. ترجّلنا من العربة، وأخذنا نقطع طريقًا أوسع من سابقتها، والحصان يجاري خطواتنا. كانت تلك الطريق، المبلّطة في بعض أجزائها، تمرّ عبر منخفضات، تنتشر فيها الأدغال الشوكية والأشجار بكثافة، وتبرز منها الصخور الناتئة. على أن ما يثير الدهشة فيها هو تشابك أغصانها وأرضها المهجورة؛ فبعد أن اجتزنا مزارع كروم مقفرة أكلها العشب، لاحت أمامنا بعض أشجار الفواكه، كالتّين والكرز، يعلو بعضها بعضًا، تكسو جذوعها النباتات المتسلقّة، وتخيّم عليها أشجار الصفصاف والسنط والدلب والخمان. وسرنا، في بداية الطريق الصاعدة، تحت أشجار الحور والشرد القضباني، وكانت شديدة الظلال، حتّى إنّنا شعرنا بشيء من البرد. ولمّا خرجنا إلى الشمس، لاحظنا أن الأدغال أصبحت أقلّ كثافة، ولكنْ؛ بدل الأشجار المعتادة فقد رأينا أخرى، نادرًا ما تلاحظها هناك، كالدفلى والمغنولية وبعض أشجار السرو، فضلًا عن أشجار أخرى لم أرها من قبل. وحين يقع نظري على بقعة جرداء، خالية من تلك الأشجار

التي تنتشر بفوضى كبيرة، وتغطّي معظم الأراضي، تبدو لي أشبه ما يكون بالشعور بعزلة غريبة.

– أهذه هي الأراضي المهجورة التي عناها أبوكَ؟ – سألتُ أوريسته.

أجابني قائلًا إنّنا اجتزنا تلك الأراضي المهجورة فعلًا، وقال إنه المنخفض الكثيف الأشجار، حيث يرعى الجميع ماشيتهم، ويجمعون الحطب كما يشتهون.

– أمّا هذه، فإن الهدف منها هو إنشاء مَحميّة طبيعيّة. ألم تلاحظ الشوارع التي فتحوها فيها؟ في زمن جَدّ پولي، تردّد عليها بعض الرجال من أجل ذلك، إلا إنها – يومئذ – كانتْ عامرة بالحقول والمزارع، وكان جَدّ پولي العجوز يتجوّل فيها صباح مساء، وبين يَدَيْه البندقية والسوط. وكان أبي قد أدركه، إذ كان يعيش في تلك الناحية.

اقتحم أنفي الهواءُ، محمّلًا بروائح الأشجار اليابسة والأرض والشمس، ممزوجًا برائحة الإسفلت المستعر. روائح أشبه بتلك التي تخلّفها السّيّارات، أو أشبه بتلك المنتشرة في الشوارع الساحلية والحدائق المطلّة على البحر. من حافّة الشارع المرتفعة يتدلّى ما يشبه الكوسة المصفرّة، فأدركتُ أنها ثمار التين الشوكي.

وصلنا إلى قمّة التّلّ المبسوطة عبر طريق تحفّ بها شجيرات كثيفة، وإذا بنا في غابة من أشجار الصنوبر تحيط الڤيلا بالكامل . سرنا في طريقٍ مفروش بالحصى، وسط أشجار عالية تطلّ من فوقها زرقة السماء.

– تبدو وكأنّها جزيرة – قال پيرَتّو.

– وفيها ناطحات سحاب طبيعيّة – أضفتُ.

– في حالتها هذه – قال أوريسته – فهي لا تجدي نفعًا لأحد. من الأصلح أن يُنشئوا فيها مشفى، على أن يكون حديثًا ومزوّدًا بالآليات كلها. سيكون على بُعد خطوَتَيْن من بلدتي، أليس هذا عظيم؟

– ولن تنقصكَ رائحة الموت، إذ هي منتشرة في المكان – قال پيرَتّو.

وكانتْ الروائح العفنة تنبعث من بركة واسعة ذات ماءٍ أخضر راكد، يبلغ اتّساعها ما يقارب العشرة أمتار، تتوسّطها بعض الصخور، وتطفو فوق مائها أزهار صغيرة بيضاء.

– سيكون لديكَ مسبح أيضًا – قلتُ لأوريسته – ترمي فيه الأموات، فيخرجون إليكَ وقد عادت إليهم الحياة.

لاح لنا بياض جدار المنزل من بين أشجار الصنوبر، فقال أوريسته:

– توقّفوا ها هنا، سأذهب لأستطلع الأمر.

بقينا، پيرَتّو وأنا، جنب الحصان هناك، أخذتُ أتطلّع، بصمتٍ، إلى زرقة السماء بين قمم الأشجار. وكنتُ آمل ألا نجد پولي هناك، بل ألا نجد أحدًا قط، وأن نعود إلا البيت بعد أن نتجوّل قليلًا في المكان. وقد عادتْ بي روائح البركة إلى الحوض في الأخدود، وتاق قلبي إلى ذلك المكان المألوف. كان بودّي، إذا ما نزلنا من هنا، أن أُشبع ناظري من تلك الغابة التي أجمل ما فيها هو فوضاها البرّيّة.

– عمَّ تبحثون؟ – صاح بنا صوت واضح.

وكانت قد دنتْ منّا خلسة، بين جذوع الأشجار، شابّة شقراء بعينَيْن

حادَّتَيْن، ترتدي قميصًا وسروالًا قصيرًا أبيضَيْن. نظرنا إلى بعض، وبدا جليًا من صوتها أنها سيّدة المنزل. في تلك اللحظة بدا لي وجود العربة والحصان أمرًا مثيرًا للسخرية.

– جئنا في طلب پولي – تمتم پيرَتّو باسمًا – إنّنا ...

– پولي؟ – قالت المرأة، ورفعت حاجبَيْها، كَمَنْ يشعر بالاستياء. أدرتُ وجهي جانبًا، لكي أتجنّب النظر إلى ساقَيْها، لكن ذلك لم يمنعني من الشعور بأنّي رجل وغد.

– إنّنا أصدقاء پولي – قال پيرَتّو – تعارفنا في تورينو. أخبرينا، من فضلكِ، كيف هي صحّته؟

لم تستحسن المرأة ما قال پيرَتّو، فانقلب عبوسها إلى ابتسامة ضجر، وهي تنظر إلينا بنفاد صبر.

أقبل أوريسته في تلك اللحظة، وهتف قائلًا:

– إن پولي هنا، وكذلك زوجته. مَنْ يحسب أن له زوجة ..

توقّف عن الكلام حالما رأى الشّابّة.

– هل عثرتَ عليه؟ – سأل پيرَتّو بنبرةٍ هادئة.

قال أوريسته، وقد تضرّج وجهه خجلًا، إن البستاني ذهب لمناداته. كان ينقل نظره، بارتباك، بيننا وبين الشّابّة.

– كنّا نتجاذب أطراف الحديث – قال پيرَتّو.

في تلك اللحظة انبسطت ملامح الشّابّة، حدّقتْ إلينا بنظرات ماكرة، ثمّ تقدّمتْ ومدّت يدها، بنحو جادّ:

– إن أصدقاء زوجي هم أصدقائي أيضًا – قالت باسمة – ها قد وصل پولي.

لقد فكّرتُ مرارًا بذلك اللقاء، باحمرار وجه أوريسته، وبالأيّام التي تلت ذلك اليوم. وقد خطرتْ في ذهني جاچينتا، لا أدري لماذا؟! فقد كانتْ فتاةً سمراء. وقد انتابني القلق حين عرفتُ أن پولي كان متزوّجًا. فقد أصبح كل ما فعلناه معه، في الماضي، ممنوعًا، وكأنه حجر عثرة. فيمَ سنتحدّث إليه إذنْ؟ فالسؤال عن أبيه، مثلاً، ما هو إلا ضرب من النفاق.

على أن پولي رحّب بنا بحرارة بالغة، لا تخلو من الغرابة، وكان ذلك في طباعه. ولا يبدو أن تغييرات كثيرة طرأتْ عليه؛ كان مبتذلًا، بنظاراتٍ عطوفةٍ وطباع طفولية. يرتدي قميصًا قصيرًا، دون أن يدسّه في السروال، ويضع سلسلة في جيده. قال إنه لن يتركنا نغادر، بل سنمضي الوقت معه صباح مساء، لكي ينعم بالحديث الممتع معنا.

– ولكنْ؛ ألستَ هنا لقضاء شهر العسل؟ – سأله پيَرَتّو.

نظر الزوجان لبعضهما، ثمّ تطلّعا إلينا. تبسّم پولي بانشراح.

– إن العسل يسبّب له حسّاسية في الجلد – قالتِ المرأة بأسى – لقد مرّ زمن طويل على شهر العسل، أمّا الآن، فنحن هنا لتمزيق الوقت. أرافقه في إقامته، وفي الوقت ذاته أمارس دور الممرّضة.

– لا شكّ أنّ الجرح قد شُفي – قال أوريسته، فارتسمت ابتسامة

على وجه پيَرَتّو. أدرك أوريسته – عندئذٍ – خطأه، فعضّ على شفته، ثمّ قال متلعثِمًا:

– إن أباكَ رجل مقتدر، ولكنّك سبّبت له الكثير من المتاعب.

– لا بدّ أنّكم تشعرون بالعطش – قالت الشّابّة – اصحبهم إلى البيت، يا پولي، سآتي في الحال.

دخلنا إلى صالة عالية ذات جدران زجاجية، تنسدل الستائر على شبابيكها، وتنتشر فيها المقاعد الوثيرة. واصل پولي ترحيبه الحارّ بنا، وعبّر عن سعادته بوجودنا. وحين سأله پيَرَتّو إن كانت زوجته على دراية بما جرى في تورينو، أجابه پولي، بعفوية، قائلًا إنها تعرف كل شيء.

– گابريلّا وأنا، في ما مضى، كنّا نبوح لبعضنا بكل شيء. لقد ساعدتْني كثيرًا، هذه المسكينة. وقد سافرنا في أرجاء العالم، وقمنا بالأفعال الجنونية كلها معًا. ولكنْ؛ شاءت الأقدار، فيما بعد، أن نفترق. على أنّنا قرّرنا، هذه المرّة، أن نمضي الصيف معًا، كما كنّا نفعل ذات يوم. لدينا الكثير من الذكريات المشتركة ...

كان پيَرَتّو يستمع إليه، وقد ارتسمت على ملامحه الدهشة. على أن أوريسته لم يتمالك نفسه، فسأله بإثارة:

– إذا كنتَ متزوّجًا، فماذا تصنع في تورينو إذنْ؟

حدّق إليه پولي بنفور، وكأن شيئًا ما يخيفه فيه، ثمّ اكتفى بالقول:

– لا يجب علينا أن نفعل، على الدوام، ما ينتظره الآخرون منّا.

انضمّتْ إلينا گابريلّا، وعند دخولها توجّهت إلى الخزانة حيث يُحفظ

الليكير؛ وكانت مليئةً بالقناني الزجاجية، وحين تُفتَح يتكسّر الضوء على تلك القناني. تناولنا في حديثنا تلّ الكَرَبّو، فقلتُ إنه يبدو رائع الجمال، ولا شكّ أن التجوال في أدغاله أمر ساحر.

– أجل، أظنه لا يخلو من السحر – قالت گابريلّا.

– وما الذي تفعلانه هنا من الصّباح حتّى المساء؟ – سأل پيرَتّو.

تمطّتْ گابريلّا بساقَيْها العاريَتَيْن على مقعدها الوثير، ثمّ قالتْ:

– نقضي الوقت في التّشمّس والنوم وممارسة الرياضة ... لم نلتقِ بأحد هنا.

لا أزال غير معتادٍ على ذلك الوجه الماكر المتقلّب المزاج، والذي أصبح برونزيًّا بفعل الشمس. كانتْ في ريعان شبابها، ولا شكّ أنها أصغر عمرًا من پولي، وقد أثارتْني البحّة التي تتردّد – أحيانًا – في صوتها. قد يكون سببها كثرة الشرب، قلتُ في نفسي، أو لعلّها أشياء أخرى.

– سنأكل على الغداء الطعام المعلّب – قالتْ گابريلّا ضاحكة – مثل المربّى والبسكويت. أمّا غداؤكم الجادّ، فسيكون في المساء.

فاحتججنا – عندئذٍ – رافضين البقاء، بحجّة أن أهل أوريسته ينتظرون عودتنا، وأنّنا جرّدناهم من الحصان والعربة، لذا يجب أن نغادر قبل حلول الظلام. بدا على وجه پولي القلق حيال ذلك، ورفض أمر مغادرتنا. قال لـ پيرَتّو إنه سعيد كل السعادة بحضورنا، وإن لديه الكثير ليحكيه لنا، ثمّ طلب من زوجته أن تعطي الأوامر إلى الخدم، ليجهّزوا لنا الغرف في الطابق العلوي.

رفضنا ذلك، وأصررنا، بين الجدّ والمزاح، على المغادرة. وقد شعرتُ بالضيق بسبب إلحاح پولي، وأخذتُ أفكّر، وأنا أتطلّع إلى أوريسته، بطريق العودة، بالغروب، وبالنافذة التي تطلّ منها الفتاة التي تنتظر أوريسته عند المحطّة. فجأة قال پولي:

– ما شأن عائلة أوريسته بالأمر؟ لماذا تتصرّفون معي بهذه الطريقة؟

رفعت گابريلّا قدحها بأدب، وحدّقتْ فيه بأسى، ثمّ قالت:

– ألهذا الحدّ أنتُم مأخوذون بحفلات الرقص القروية، وبمَنْ يرتادها؟

ضحكتْ وضحك پولي أيضًا، وهكذا اتّفقنا على المغادرة ذلك اليوم، على أن نعود في اليوم التالي، من أجل أن نقيم معهما مدّة أطول.

-16-

استغرقنا يومَيْن من أجل إقناع عائلة أوريسته بالتنازل عن ضيافتهم، والسماح لنا بالعودة إلى هناك.

– أتشعرون بالضّيق ها هنا؟ – قال والد أوريسته. في حين جلستِ النسوة إلى الطاولة، بوجوه واجمة، يتحدّثنَ في الأمر. على أن خبر زواج پولي أدخل السرور على قلب أمّ أوريسته، فأخذ الحديث منحى آخر، وجعلنا نتبادل الآراء حول المنعطف الجديد في قضيّة پولي. وسألتنا الأمّ فيما إذا كانتْ زوجة پولي، كما يفترض، محطّمة من شدّة الألم، ولكنْ؛ دون أن تفقد عزمها في استرداد زوجها إلى أحضانها؟

– لا أظنّها مكترثة للأمر – قال أوريسته – فَهَمُّها كله هو التّشمّس.

– إن هذه الأشياء واردة الحدوث، إذا ما انفصل الزوجان.

– إذا وصل الزوجان إلى مرحلة الانفصال، فهذا يعني حدوث أمورٍ سبقت ذلك – قال الأب.

ختم أوريسته الكلام، وقد لاح على قسماته السأم، قائلاً إن سبب هذا كله هو وفرة المال.

– إن لم يكن لديكَ وفرة من المال، فستمضي الوقت في العمل أو الدراسة، ولن تُنفقه في الأمور التافهة. إذنْ، أنذهب أم لا؟

انطلقنا على متن العربة التي يجرّها الحصان، ولم يقرّر أوريسته بعدُ إن كان سيبقى معنا أم يعود أدراجه. وكانت گابريلّا قد أبلغتنا بأسفٍ، يوم التقينا، أنه سيتعذّر عليها المجيء لاصطحابنا بالسّيّارة، أمّا پولي، فقد ركن إلى الصمت، إذ سحب منه أبوه سيّارته لحمايته من نزواته، وليمنحه الفرصة للخلود إلى الراحة فعلًا. لذا فقد قطعنا الطريق نفسها مجدّدًا، ومررنا بالحقول وبغابات السنديان وبالسياجات الآيلة إلى السقوط. وشاهدتُ أشجار الشرد القضباني وأدغال سفوح التلال، وكانتْ قطرات الندى تتناثر عليها، فتجعلها برّاقةً في ضياء الصباح. وكان تلّ الگرَبّو، بسفوحه الكثيفة الأشجار، يقبع في عزلته، وكأنه جبل من الماضي السحيق. طفتُ بنظري في المكان، بحثًا عن البقع الجرداء. قال پيرَنّو – فجأة – إنه ليس من العدل في شيء أن تعود ملكية تلّ بأكمله إلى رجل واحد فقط، كما لو كنّا في تلك الأزمنة التي تسيطر فيها عائلة واحدة على مدينة بأكملها. لمحتُ، في الأثناء، طيورًا تحلّق في السماء:

– أهذه، أيضًا، هي جزء من ممتلكاتهم، كما الأرض؟ – غمغمتُ.

بلغنا القمّة المنبسطة تحت أشجار الصنوبر، وفوجئنا بشيء غريب. كانتْ تتناثر على العشب، بنحو فوضوي، ثمّة مقاعدٍ وقناني نبيذ ووسائد. أقبل البستاني نحونا، وقاد الحصان إلى الحظيرة. في حين كانت پينوتّا (وهي فتاة ذات وجه عابسٍ شديد الحمرة، قد قامت من قبل على خدمتنا) تقف عند باب دفيئة زجاجية، وتحدّق فينا دون أن تخرج إلى الشمس.

– ما زالا نائمَيْن – قالت وهي ترفع ذقنها. وكان يصل إلى مسامعنا هدير الماء داخل الدفيئة الزجاجية.

– كم قنّينة من النبيذ شربا؟ – سأل بيرَتّو بنبرة استرضاء – لا بدّ أنهما شربا بنهم، أكانت هناك حفلة ليلة الأمس؟

– لقد قدِم لزيارتهما شبّانٌ كثيرون من ميلانو – أجابتِ الفتاة وهي تدفع شَعْرها بيدها – رقصوا حتّى الصباح، وتراشقوا بالوسائد. يا للفوضى التي أحدثوها! وماذا عنكم أنتُم، هل ستقيمون هنا؟

– وأين هم، الآن، شبّان ميلانو؟ – سألها أوريسته.

– غادروا بسيّاراتهم، كما جاؤوا. كانوا غريبي الأطوار. تصوّر، لقد هوت إحدى النساء من الشّبّاك.

وكان هواء الصباح باردًا تحت أشجار الصنوبر، فدخّنّا السجائر بانتظار أن ينهض پولي. وكان البيت يقبع في سكونه، دون أي حركة تُذكَر. اتّكأتُ على جذع شجرةٍ، وأخذتُ أتأمّل السهل المنبسط. شربنا ما تبقّى في قنّينة ليكير، وطلبنا من پينوتّا أن تفتح لنا الصالة ذات الجدران الزجاجيّة.

كنّا في تلك الصالة حينما انضمّ إلينا، بعد ذلك، پولي وگابريلّا. وقد علمنا باستيقاظهما لما صاحب ذلك من ضجيج في أرجاء البيت. إذ أخذتْ پينوتّا تركض صاعدة السّلّم، في حين وصلت مسامعنا أصوات متداخلة ورنين أجراس وصخب أبواب تُفتح وتُغلق. نزل – إذّاك – پولي بملابس نومه وشَعْره المنفوش، وكان يتلعثم بالكلام. أخذ يتذمّر، لأنّنا تركناه ينتظر ثلاثة أيّام. ثمّ تحدّثنا واقفين، وهو يمسك بأيدينا، عمّا إذا كان الآخرون هم سبب المبالغة في الشرب أم الشخص الذي يسهل إغواؤه.

– إنهم أصدقاء طيّبون – قال پولي – لقد أعادوا إليّ بهجة الحياة

التي كنتُ أنعم بها في ميلانو. أرجو فقط ألا يعودوا، فأنا أفضّل الاستمتاع برفقتكم.

دخلتْ گابريلّا بكامل أناقتها، يفوح منها عطر زكي.

– هيّا هيّا، ألا تريدون أن تغتسلوا؟ – صاحت بنا – اتركهم وشأنهم، سيكون لديكَ كفايتكَ من الوقت للحديث معهم.

وكان قد غاب عن ذهني رونق شَعْرها الذهبي وساقَيْها العاريَتَيْن ووجها البرونزي الذي يوحي بأنها عادتْ للتّوّ من شمس البحر. رافقتنا إلى الغرف في الطابق العلوي وهي تقول:

– أرجو أن لا يكون أحد من أولئك المجانين قد نام هنا.

في تلك اللحظة، أعلن أوريسته، بنبرة قاطعة، أنه سيعود إلى بيته؛ اقترح أن نبقى نحن في الگَرَبّو، وإذا ما قرّر هو العودة، فسيأتي بواسطة الدّرّاجة الهوائية.

– لماذا؟ – سألتْ گابريلّا بوجه عابس – لعلّ أمّكَ تخشى عليكَ أن تضلّ الطريق؟ – ثمّ أضافت ضاحكة – افعلْ ما يحلو لكَ، على أي حال، فأنتَ تعرف الطريقَ إلينا.

وحينما نزلتُ إلى الصالة، وجدتُ الجميع، عدا پيَرَبّو، إذ كان لا يزال في الحمّام، وقد صاح من وراء الباب بشيء ما لم أتبيّنه. دخلتُ إلى الصالة وأنا ما أزال متردّدًا في أمر البقاء هنا. كانت پينوتّا قد انتهت للتّوّ من ترتيب بعض الأزهار في المزهريات، وإزالة الأطباق والأقداح المتّسخة ومطفأة السجائر، فأصبح مظهر الصالة غاية في الأناقة، بأثاثها الوثير

وستائرها الخفيفة الزاهية الألوان. وكانتْ هناك بعض الغرف تشتمل على أكوام الأثاث الريفي الذي يعود إلى زمن جَدّ پولي، عاشق الصّيد: صناديق قديمة ومقاعد وطاولاتٍ من خشب السنديان وسرير ترتفع أعمدة الناموسية عند زواياه الأربعة. أمّا هنا في الصالة، فبدتْ واضحة لمسات گابريلّا وپولي، أم قد تكون هناك – أيضًا – لمسات روزالبا؟ تساءلتُ. لم يكن بمقدوري أن أقلع روزالبا من تفكيري، ولا بقع الدم وتصرّفاتها الغبية في تلك الأيّام. وكان الارتباك الذي أشعر به وأنا أخطو على السّجّاد الثمين، أو أتصرّف بنحو متحضّر أو أرى پينوتّا المسكينة، وهي تركض استجابةً للأوامر الصارمة أو تلبيةً للرغبات البهيجة، شبيه بارتباكي وأنا أتذكّر روزالبا. وخطر في ذهني – حينها – أن أمورًا بهذا المستوى من القذارة قد تحدث – أيضًا – وسط هذه النظافة كلها وهذا التّحضّر.

ودار الحديث – ذلك الصباح – عن الغابات، ومن بين ما تحدّث فيه أوريسته هو عشقي للأرياف، إلى درجة أنّني رفضتُ الذهاب إلى البحر رغبة في المجيء إلى هنا. قاطعته گابريلّا، وتحدّثت عن البحر أيضًا، وعن شاطئ ما يقع عليه مرفأ صغير، لديهم فيه بعض الأصدقاء، وقالت إن أشجار الزيتون تمتدّ حتّى ضفاف البحر. قالت إن ذلك الشاطئ يعود لأصدقاء لهم، وقد سوّروه كيلا يصل إليه أحد، إذ لا يسمح النزول إليه إلا لمعارفهم. وكان لديهم مسبح وسط الغابة، يلجؤون إليه في الأيّام التي تعصف فيها الريح على الشاطئ. وانتقد پولي طباع أصحاب البيت السّيّئة، إذ إنّهم، حسب قوله، يُجبرون الخدم على ارتداء ثياب الصّيّادين وهم يقومون على خدمة الضيوف، ويجعلونهم يتحزّمون بقطع من القماش، ويضعون القلانس على رؤوسهم.

– يا لكَ من أحمق! لقد كان ذلك – فقط – يوم أقاموا حفلًا في بيتهم – ردّتْ عليه گابريلّا بأسلوب، سبّب لي الضيق، وقد لمحتُ بريقًا ما في عينَيْها وتجهّمًا خبيثًا في وجهها، أعادا إلى ذهني لقاءنا في اليوم الأوّل.

– ألا تزال هناك غابةٌ تمتدّ حتّى ضفاف البحر؟ – سأل أوريسته.

– نعم، لا تزال حتّى الآن. إن هذه الأشياء لا تتغيّر. – عادتْ گابريلّا إلى هدوئها، ولكنّها تراقب كل حركةٍ يقول بها پولي. وكان هو يدخّن بهدوءٍ وابتسامة ترتسم على وجهه.

– لقد رقصتْ گابريلّا في تلك الغابة على ألحان موسيقى فريدريك شوبان – قال بولي وهو ينظر بشرود إلى دخان سيجارته – مارست الرقص الكلاسيكي تحت ضوء القمر، وكانت حافية القدمَيْن، لا يلفّ جسدها سوى شال خفيف. أتذكرين، يا گابري؟

– يا للأسف! – قالتْ هي – لو أنّ أصدقاءك كانوا هنا ليلة البارحة!

ثمّ نادتْ پينوتّا، وطلبتْ منها أن تفتح الشبابيك.

– لا تزال روائح الأمس تملأ المكان – قالتْ بتذمّر – إن الماجنين والسُّكارى يخلّفون المكان وراءهم كما تُخلّفه البهائم. كم كانت كريهة صديقتكَ الرّسّامة التي تدخّن السيجار الكوبي!

– كنتُ أظنّ أنكم أقمتُم حفلتكم الماجنة تلك تحت أشجار الصنوبر – قلتُ.

– لقد كانوا كالقردة – أجابتْ گابريلّا – انتشروا في كلّ مكان. لا أستبعد أن يكون أحدهم لا يزال، حتّى الآن، في الغابة.

تبسّم پولي، ربمّا لفكرة ما بدرتْ في ذهنه:

– ألا ينزل پيرَتّو؟ – سألنا.

أبلغتنا گابريلاّ، ما إن دخل پيرَتّو إلى الصالة، أنّ من يبقى في الگرَبّو ينعم بمطلق الحرّيّة؛ يجول حيث يشاء دون قيود، أو يمضي الوقت وحيدًا، أن كانت ذلك يُشعِره بالراحة.

– ها أنتَ تنزل من الطابق العلوي، في حين أنا سأصعد – قالت لـ پيرَتّو – استمتعوا بوقتكم، يا شباب.

غادرتْ بالتوقيت نفسه الذي غادرت فيه البارحة، فقال پولي إنها تتشمّس فوق السطح. وكنّا قد تحدّثنا عن ذلك، في اليوم السابق، وقد قال پيرَتّو وقتها:

– لا شكّ أنها لا تزال موصومة بتلك العلامة ... ما رأيكم أن نأخذها معنا إلى الحوض؟

اعترتْني رغبة في أن أطوف أرجاء التّلّ كما يحلو لي، حتّى يحين موعد الغداء. سوى أنيّ لم أفعل ذلك، بل طوّقت أوريسته بذراعي، وتمشّينا تحت أشجار الصنوبر، وتركنا پولي وپيرَتّو يفتحان موضوعًا للنقاش.

-17-

غادر أوريسته على متن العربة عند الغروب، والضجر بادٍ عليه، وحلّ الظلام على تلّ الكَرَبّو. استطعتُ أن أعتزل الآخرين، وأمضي الوقت تحت أشجار الصنوبر حتّى يحين موعد العشاء. وكان پولي وپيَرَتّو يتجاذبان أطراف الحديث عند البركة. وكان وجه پولي منتفخًا ومجهَدًا طوال النهار، فكان يتحدّث بصوت خفيض، في حين تصل مسامعي أحاديث أوريسته وتعليقاته الحازمة. بدت لي تلك الليلة أشبة بالليلة التي أطلق فيها أوريسته صرخاته الوحشية. وكان پولي يبثّ همومه، ويتحدّث عن مشاكله الجسدية:

– أدركتُ أنّ عليّ التماثل إلى الشفاء، وعليّ أن أستعيد قواي، كطفل يُقبل على الحياة ... هنالك أشياء من الصعب إدراكها. لم أشعر – في تلك اللحظات – بالخوف من مجابهة الموت، بل تيقّنتُ أن البلاء يكمن في مجابهة الحياة ... أنا فعلًا ممتنّ لتلك المسكينة، لأنها علّمتني هذا ...

كان يتكلّم برزانةٍ وحماس، بذلك الصوت الفاتر الواضح.

– ... هناك سكينة وحبور في أعماقنا، وكل شيء فينا يُولَد من تلك الأعماق. فهمتُ أن الشّرّ والموت ليسا في داخلنا، ولسنا نحن مَنْ يصنعهما ... أنا أصفح عن روزالبا، أظنّها كانت تريد مساعدتي ...

أشعر – الآن – أن الأمور أصبح جليّة، بالنسبة إليّ، أكثر من ذي قبل، حتّى علاقتي بگابريلّا ...

قاطعه پيرَتّو وهو يكركر بخبث، ثمّ قال له:

– ترّهات.

أظنّه قالها له في وجهه. وللحظات تداخل صوتاهما، ثمّ طغى صوت پيرَتّو على الآخر:

– يا لكَ من صفيق! ابحثْ عن أحدٍ غيري، ليصدِّق كلامكَ الفارغ هذا. فلا روزالبا أرادتْ مساعدتكَ، ولا من حقّكَ أنتَ الصفح عنها، إذ لم تكونا سوى خليعَيْن متهتّكَيْن ... فاتركِ البراءة وشأنها.

وما زال پولي يتحدّثُ بصوتٍ فاتر:

– ... كان كلّ شيء مقدّرًا، فلسنا نحن مَنْ نُنزل الموت بالآخرين ...

نأتِ الأصوات عنّي تحت القمر، واقتحمتْ أنفي رائحةُ أشجار الصنوبر في ذلك الهواء الدافئ. كان في تلك الرائحة طعم أشبه بنسائم البحر، طعم حادّ ولاذع. وكنّا قد أمضينا النهار نطوف في أرجاء التّلّ، ما بين أشجار السفح. وقد اصطحبتنا گابريلّا، في الدروب الوعرة، إلى مغارة صغيرة، تجمّعت فيها مياه الأمطار. وكانتْ تقع تحت أحجار الطفة، وتحفّ بها أعشاب كزبرة البئر. صادفنا في طريقنا شجرة خوخ في أخدود صغير، ووقعنا فيها على ثمار خوخ شديد النّضج، فكانت تسيل في أفواهنا كالعسل. وكان أوريسته منتشيًا من البهجة، يُطلق صرخاته الوحشية عاليًا، ليُفزع گابريلّا. انتبهتُ عند المساء أنّني لم

أسمع تلك الأصوات التي كنتُ أسمعها في البيوت الريفية: كصفير الطيور وصياح الديكة ونباح الكلاب. وكنتُ أطلّ على السهل من هناك، كما لو كنتُ فوق غيمة.

وكان قد غشانا الليل حين جلسنا إلى مائدة أعدّتها پينوتّا في الصالة، تتوزّع عليها ألوان من الطعام. وكانتْ پينوتّا لا تتوقّف عن الركض لحظة، خشية من نظرات گابريلّا.

– إن مائدة الطّعام مقدّسة – كانت تقول گابريلّا – لذا يجبُ أن تحتفي، ما استطعتَ، بكلّ لقمة.

وكانت ثمّة أزهار تنتشر، بأناقة، على المائدة. وكانت گابريلّا قد نزلتْ، بعد أن غيّرت ثيابها، وهي ترتدي الصندل:

– تفضّلوا – قالتْ بلطف. وحاولتُ أنا أن أتجنّب النظر إلى أكمام پيرَتّو. دار الحديث عن أوريسته ومزاجه السّيئ، وعن تجواله برفقة پولي، أيّام الصبا، في الأرياف والغابات. ثمّ تحدّثنا عن تباين الحياة بين المدينة والريف، وعن پولي في صباه ورغبته في العزلة؛ تلك الرغبة التي ستعتري – يومًا ما – كلٌّ منّا. ثمّ أخذت گابريلّا تحكي لنا عن أسفارها، وعن الكثير من الأمور التي صادفتها، واللقاءات الغريبة التي حدثتْ في فنادق فوق الجبال. ثمّ أخبرتنا أنّها وُلدتْ في ڤينيسيا. أمّا نحن، فلم نتحدّث عن أيّ مغامرة، وقلنا إنّنا لسنا سوى طالبَيْن بائسَيْن.

وكانتْ پينوتّا تقوم على خدمتنا طوال الوقت، تجري بخطى رشيقة دون أن تُصدر ضجيجًا، وكأنها حافية القدمَيْن. أدركتُ – عندئذٍ – أن أحدًا ما يقبع في المطبخ، ربمّا طاهية، وهي سيّدة هذا الطعام فوق

المائدة. تطلّعتُ إلى الأزهار، إلى غطاء المائدة الناصع البياض، وأنا أبلع اللقمة بصمت، وأختلس النظر إلى گابريلّا. لم أصدّق بعدُ أنني هنا، في هذا البيت الذي يشبه جزيرة في أرض الرّيفيّيْن تلك. ما زالت معلّقة في ذهني الأوراق الملوّنة التي تزيّن جدار بيت أوريسته، فوق الموقد، وحقول الذرة البيضاء ومزارع الكروم، ووجوه النساء الجالسات عند عتبات المنازل. گابريلّا تأكل بنحو مهذّب، أمّا پولي، فينحني فوق طبقه، وكنّا نستمع إلى ثرثرة پيرَتّو الذي يتحدّث عن حبّه للتجوال الليلي.

كنتُ أراقب گابريلّا خلسة، وأتساءل فيما إذا كان أوريسته قد أحسن الخيار. لقد عاد إلى بيته، بطريقة مهذّبة، لينعم بالراحة والسكينة، ويعيد التفكير – بهدوء – في أمر العودة إلى هنا. لا شكّ أنه يعرف پولي أفضل منّا، ويعرف عنه أشياء نجهلها، ولكنْ؛ بدا جليًّا أنه لا يحبّذ المكوث على تلّ الگرَبّو. ولا أظنّه غادر المكان فقط من أجل جاچينتا. أذكر أنّنا تناقشنا، في الأيّام الماضية، إذا ما كانتْ گابريلّا جديرة بالثقة، حتّى نصحبها معنا إلى الحوض في الأخدود. ثمّ تساءلنا: ماذا يفعل هذان الاثنان في الأرياف؟ أجاءا إلى هنا لقضاء الوقت معًا، من أجل إعادة المياه إلى مجاريها، بعد ما طرأ على علاقتهما؟ وإذا كان الأمر هكذا، فلماذا يطلبان رفقتنا؟ ثمّ ماذا تعرف گابريلّا عن روزالبا؟ يبدو أنها امرأة يقظة وحاذقة، ولكنْ؛ أيتعاطيان الكوكايين معًا، في أثناء الليل؟

– إن هذَيْن الاثنَيْن لا يطيقان بعضهما، صدِّقني – قال پيرَتّو.

– لماذا لا يزالان معًا، إذنْ؟

– سأكتشف ذلك.

لحسن الحظّ، كان پولي يسكب لنا النبيذ طوال الوقت، وقد شربتْ گابريلّا أيضًا؛ كانتْ ترتشف النبيذ بلطف، وتنفض رأسها كما يفعل الطير. وقد خطر في ذهني تساؤل ما: مَنْ يدري؟! لعلّهما سيكونان صريحَيْن إذا أكثرا الشراب، وستخبرنا گابريلّا أنّها، مع كل ما حصل، ما زالت تحبّ پولي. ثمّ سيتحدّث پولي ويقول إن روزالبا امرأة قبيحة، وإنها كانت نزوة لا غير، لحظة جنون أيقظه منها لقاؤه بنا، وتلك الصرخات الوحشية التي أطلقها أوريسته فَي الظلام. ربّما يكفي هذا الاعتراف، قلتُ في نفسي، وستتوطّد بعدها العلاقة فيما بيننا، وسنترك پينوتّا لتأخذ قسطًا من الراحة، ثمّ نخرج للتّمشّي، ونخلد إلى النوم بانشراح. كنتُ واثقًا أن الأمور على تلّ الگَرَبّو كانت ستتغيّر بالكامل.

– أظنّ أنكما ستشعران بالملل، خلال الليل – قالت گابريلّا – إذ ليس هناك سوى صرير الجَدَاجِد. خيرًا فعل صديقكم، إذ نجا بنفسه.

– الجَدَاجِد والقمر – قال پولي – ونحن أيضًا.

– شريطة أن يكونوا سعداء بهذا – قالت گابريلّا وهي تداعب زهرة أمامها، ثمّ أضافت – سمعتُ أنكم كنتُم ترتادون الحانات الليلية في تورينو، برفقة پولي.

ثمّ نظرت إلينا، وتفجّرت ضاحكة.

– هيّا هيّا، لم يمت أحد – هتفتْ – كلّ منّا لديه خطاياه. إن نوائب الدهر تعيد إلينا نضارة الشباب، ولا تثريب على أحد. لقد كدنا نفقد العزيز پولي، لكنّ الأقدار أعادته إلينا سالمًا. دعونا إذنْ نحتفل.

نظر إليها پولي من الأسفل إلى الأعلى، وتأفّف.

– لنشرب نخب پولي، يا سيّدتي – صاح پيرَتّو.

– سيّدتي؟ ما هذا الذي تقول؟ – ردّت گابريلّا – بوسعنا أن ننادي بعضنا بالأسماء، فقد عرفنا بعضًا بما فيه الكفاية.

– اسمعي، يا گابري – قال پولي بوجه مكفهرّ – إذا استمرّت الحال هكذا، فستنتهي الأمور إلى ما انتهت إليه ليلة البارحة.

ارتسمت ابتسامة خفيفة ماكرة على وجهها:

– ما زالتْ تنقصنا الموسيقى، ثمّ إن أحدًا لم يثمل بعد. على أي حال، قد يكون من الأفضل أن نثمل، إذ سنكون أكثر صدقًا في أحاديثنا.

– بوسعنا أن نحتسي النبيذ فيما بعد – قال پيرَتّو.

– إذا كنتِ ترغبين بالموسيقى، فسأضع – على الفور – قرص الفونوغراف – قال پولي وهو ينهض من مكانه.

لمحتُ يد گابريلّا الناحلة تشدّ قبضتها على الزهرة التي سقط منها للتّوّ، لكنّي لم أجرؤ على النظر في وجهها. عاد پولي إلى مكانه، دون أن يشغّل الموسيقى:

– إن الموسيقى تتطلّب البهجة والمسرّة – قال – لنحتسِ بعض النبيذ أوّلًا.

مدّ يده بالقنّينة صوب كأس گابريلّا، وسألها بإيماءة، إن كانت ترغب بالنبيذ. وافقت گابريلّا، فملأ كأسها. أخذنا نحتسي النبيذ، وكنتُ حينها

أفكّر بأوريسته، وبالبيت الريفي وقبو الخمور. وحين أشعلنا سجائرنا في صمت، سحبت گابريلاّ الدخان، وتطلّعتْ إلينا، ثمّ تفجّرتْ بالضحك:

– ربمّا أسأتُم فهمي – قالت بنبرة ساخرة – إن الصدق ليس جريمة، ثمّ إنيّ أكره جرائم العشق. أريد من أحدكما أن يخبرني – فقط – إذا ما كان پولي مثيرًا للسخرية، تلك الليلة في السّيّارة، حين فهم حقيقة الحياة ...

-18-

– اسمحوا لي أن أقول لكم شيئًا – تمتمت گابريلّا – حينما نتحدّث في أمر ما، نحن الاثنَيْن، عادةً ما يكون الكلام قليلًا بيننا، وكلّ منّا يعرف أجوبة الآخر. إنه أشبه ما يكون بالوحدة. كلّ ما أريد معرفته هو أن يخبرني أحدكما – وقد كنتُما برفقته – إذا ما كان پولي قد شرح للجميع معنى الحياة البريئة. لقد توصّل إلى ذلك عند إقامته في تورينو، وهذا أمر أعرفه. ولكن؛ أريد أن أعرف كيف كانتِ انفعالات الأشخاص الذين استمعوا إليه. إن پولي صريح في كلامه – قالت گابريلّا بنبرةٍ قاطعة – إنه صريحٌ وساذج، كما يفترض أن يكون الرجل، ولا يدرك أنه لا ينبغي لنا – على الدوام – أن نستجيب لتأنيب الضمير. إن سذاجته هي أجمل ما فيه – قالت باسمةً – لكنّي أريدكما أن تخبراني كيف كانت ردود فعل الآخرين وهم يستمعون إليه.

أنهت كلامها، ثمّ حملقت إلينا بعينَيْها الخبيثَتَيْن، وبملامح حادّة باسمة. ولم يظهر على پولي الاكتراث، مع ما أخذه الحديث من منحى، بل بدا عليه أنه كان يتوقّع ما هو أسوأ من ذلك. أجاب پيَرَتّو، عندئذٍ، قائلًا:

– أصابهم الهلع والدهشة، وسمعنا طقطقة أسنان أحدهم، في حين ارتعد شابّ آخر وكأن جنّيًّا ركب رأسه.

شعرتُ بالضيق من الطريقة التي تطلّع فيها پولي إلينا، وقد مدّ ساقَيْه، وحدّق إلينا بعينَيْن منتفخَتَيْن، شبه مغمضَتَيْن.

– إذا سخط الله على أحد، ابتلاه بالجنون – قال پيرَتّو – هذا أمر غير مستبعد الحصول.

نظرتْ إليه گابريلّا، للحظات، بشيء من الإكبار، ثمّ ضحكت بحماقة. غيّرت نبرتها في الحديث، فجأةً، ثمّ قالت:

– أترغبون في الخروج لاستنشاق الهواء؟

نهضنا بصمت، ونزلنا السّلّم، فاستقبلنا صرير الجَدَاجِد ورائحة الهواء الطّيّبة.

– لنذهب لرؤية القمر فوق الغابات – قالت گابريلّا – ثمّ نطلب من پينوتّا أن تحمل لنا القهوة.

إن فكرة أن أنام في ذلك البيت، ثمّ أستيقظ فيه، في اليوم التالي، لأنزل إلى الصالة، وأجد هذَيْن الاثنَيْن، وأجلس معهما، ثمّ أقضي الوقت في الثرثرة حتّى يحلّ الليل من جديد، كانت تُشعرني بالاختناق. جلسنا، ذلك المساء، في ضياء القمر تحت أشجار الصنوبر حتّى وقت متأخّر من الليل. لم تعاود گابريلّا أسئلتها عن الماضي، بل تركتنا نتحدّث عن أنفسنا، وهي تستمع إلينا بلا اكتراث. وكان ما يزعجني تمامًا هو ذلك التّوتّر والشّكّ والأشياء التي لم نُفصح عنها. وقد أدركتُ الآن كل شيء: كان الجميع، حتّى پولي وگابريلّا، مستعدّين لفعل أي شيء، في سبيل قضاء ليلة بهجة ومسرّة. وقد شهدتْ هذه الأشجار وهذا القمر، في

الليلة السابقة، أشياء لا يعلمها إلا الله. وكانت تدور بين الزوجَيْن الكثير من الأحاديث والأشياء المبهمة، فيبدوان لي وكأنهما يغطّيان بئرًا بعشب اللبلاب، وكنّا جميعًا ندرك ما يبغيان التّستّر عليه.

وجاء پيَرَتّو، تلك الليلة، لزيارتي في الغرفة التي أنام فيها. كشفتُ له كل ما يدور في ذهني، ونحن ندخّن سيجارة ما قبل النوم.

– هلا أخبرتَني عن سبب مكوثنا في هذا البيت؟ – سألتُه – إن لا شيء يجمعنا بهؤلاء. فهم أناس أثرياء، ولديهم أصدقاء أثرياء أيضًا، والدنيا باسمة لهم. أرأيتَ أحدًا من قبل يجلس إلى مائدةٍ تزيّنها الأزهار، لتناول الطعام؟ من الأفضل لنا العودة إلى بيت أوريسته، والحوض. لقد فهم أوريسته هذا كله، فغادر.

– ولكنّكَ معجبٌ بگابريلّا – قال بملامح هادئة.

– گابريلّا؟ ألا تراها كيف تتشاجر طوال الوقت؟ لقد عرفتْنا حقّ المعرفة، ولا أظنّها ترغب بأشخاصٍ مثلنا. أوريسته اللبيب – فقط – أحسن التّصرّف.

– سيعود أوريسته إلى هنا، سترى – قال پيَرَتّو.

– أرجو ذلك، ليته يعود غدًا.

– لا ترفع صوتكَ – همس پيَرَتّو – أمّا أنا، فلن أغادر هذا المكان حتّى لو طردوني. إنها كوميديا هزلية جميلة، وسأستمتع بها حتّى النهاية.

تحدّثْنا – عندئذٍ – عن پولي، وعن طباعه الغريبة وقدرته في استثارة سخط النساء.

– إنه شخص غريب الأطوار – قال بيَرَتّو – أظنّه يصلح أن يكون ناسكًا، لقد وُلد ليعيش في صومعة.

– لا أظنّ ذلك، إنه يُحسن اختيار النساء.

– ما هذا الهراء؟ إن النساء هي مَنْ تهوي عليه كالذباب.

– ولكنّه سعيدٌ بذلك، ألم يتزوّج گابريلّا! لا أظنّ أنكَ أنتَ مَنْ يضاجعها!

تطلّع إليّ بيَرَتّو في تلك اللحظة، بطريقته الخبيثة الهازئة.

– يا لكَ من أبله! – قال – إنه لا يضاجع گابريلّا، ولا يصعب على أحد إدراك ذلك، إنه واضح وضوح الشمس.

كان ينظر إليّ ضاحكًا من دهشتي لما قاله، ثمّ أضاف:

– بل أظنّ أن لا أحد منهما يفكّر بهذا الشأن، ولا أعرف لماذا لا يزالان معًا. على أي حال، ربمّا هما – أيضًا – لا يعرفان لماذا ما زالا معًا حتّى الآن.

خلدتُ إلى نومٍ هانئ تلك الليلة، فوق سريري الوثير، تحت الغطاء الحريري. وقد أعاد إليّ النوم وحيدًا في تلك الغرفة حيويّتي ونشاطي، بعد أن قضيتُ أيّامًا، بل أسابيع، أنام فيها رفقة أشخاصٍ آخرين في غرفة واحدة. واستيقظتُ، في اليوم التالي، منتشيًا صافي البال، كالسماء الصافية التي طلّت عليّ من الشّبّاك لحظة صحوتُ من النوم. وكانتِ الطبيعة التي تطلّ عليّ من الشّبّاك – أيضًا – بهيّةً ومليئة بالحياة؛ تتألّق

قطرات الندى فوق العشبِ وعلى أوراق الأشجار، في حين يغمر ضياءُ الشّمس السهلَ المترامي الأطراف، ما وراء أشجار الصنوبر. أحسستُ أنيّ أعانق الأفق الرحيب، وأن هناك الكثير من الأشياء التي تنتظرنا في تلّ الكَرَبّو، كالتجوال في الغابات والمزارع، والخوض في الأحاديث، واللّعب واللّهو، والتّمتّع بالملذّات كلها. وكانت هناك أخاديد ومغارات ومساحات جرداء، سنتجوّل فيها عند العصر، من ثمّ هناك أيضًا تلك المغارة التي قصدناها برفقة گابريلّا، وقد تحدّثنا بشأن العودة إليها.

جاء أوريسته عند انتصاف النهار، وهو يرنّ بجرس الدّرّاجة الهوائية كما يفعل ساعي البريد، برفقة پينوتّا التي كانتْ عائدة من السوق. اللطيف في الأمر أنه كان بالفعل يحمل البريد؛ فقد جلب لنا بطاقات معايدة وصلت على عنوان بيتهم. صاحتْ گابريلّا – عندئذٍ – من الشّبّاك:

– إذا كان مجيئك إلى هنا يستلزم حمل رسائل البريد، فسأطلب من أصدقائي جميعهم أن يبعثوا إليّ الرسائل.

دخلنا برفقتها، وجلسنا، بانتظار مجيء پولي. بمزاج رائق أخذ أوريسته يحدّثنا عن رؤيته لأسراب الطيور في الريف، وسماعه لصفيرها وصخبها بين الأشجار، ثمّ قال إن ذلك يبشّر بقرب موسم الصيد.

– ألهذا الحدّ تحبّ سفك الدماء، يا أوريسته؟ – هتفتْ گابريلّا – اسمعوا، أليس من الأفضل أن ننادي بعض بالأسماء؟ إنّنا نأتي إلى الأرياف للتّحرّر من كل القيود، أليس كذلك؟

عاد أوريسته إلى حديثه عن الطيور وموسم الصيد. ثمّ التفت إلى گابريلّا، وقال إنه لا ينبغي لـ پولي أن يخلد إلى النوم حتّى وقت متأخّر.

إن الوقت المناسب للصيد، في فصل الصيف، عادة ما يكون قبل الفجر، ويجب الاعتياد على النهوض ...

– على أن لا تصحبوا الكلاب معكم – قاطعتْه گابريلّا – إنها تعاني في هذه الساعة المبكّرة، فالندى يؤذي أنوفها – ثمّ ضحكت وهي ترى الدهشة ترتسم على وجه أوريسته، وأضافتْ – ألا تعرف ذلك بالفعل؟ ربمّا لا تعرفون، ولكنّي، في صباي، عادةً ما كنتُ أصطاف على ضفاف نهر برينتا، وسط جموع صيّادي طيور قبّرة الغيط. وكنتُ أسمع نباح كلابهم ورصاص بنادقهم طوال الوقت.

– أين انتهى الحال بالكلب العجوز العائد للسّيّد روكّو؟ – سأل أوريسته.

– أظنّه نفق – أجابت – أسألتَ پولي عنه؟ بالمناسبة، لقد قرّر پولي الامتناع عن قتل الحيوانات، هل أخبركَ بذلك؟

نظر إليها أوريسته مستفهمًا.

– يقول إنه لا يستلذّ بالأمر – أوضحت گابريلّا – إنه لا يتناسب وأسلوبه الجديد في الحياة، ولكنّه ما زال يأكل شرائح اللحم – قالت باسمة.

– توقّعتُ ذلك – تمتم پيَرَتّو.

لم يفهم أوريسته ما نشير إليه، فكان ينقل بصره بين الوجوه.

– لقد تحدّثنا البارحة بشأن پولي – أوضحت گابريلّا – ينبغي عليكَ البقاء هنا، فالأمور كلها تحدث في أثناء الليل.

غادرتْ گابريلّا بعد ذلك، وبقينا نحن ننتقل من غرفة إلى أخرى، فعثرنا على بعض الكُتُب – وكانت قديمة بأغلفة جلدية – وطاولة قمار وبلياردو. وكنتُ أنظر بانبهار إلى انعكاسات الظلال الخضراء لأشجار الصنوبر على زجاج النافذة. وفي أثناء ما كنّا نبحث هنا وهناك، عثرتُ على روايات ومجلات مصوّرة، فضلًا عن الصندوق العائدة لگابريلّا، والذي يضمّ أغراض التطريز والحياكة. وكانت – في الأثناء – تغزو أنفي روائح الطعام النافذة من المطبخ. ولم أكن قد رأيتُ البستاني يومها.

– لماذا لا تمتهن الزراعة، وأنتَ تمتلك هذا القدر الهائل من الأراضي؟ – قال پيرَتّو لـ پولي.

ارتسمت ابتسامة مبهمة على وجه پولي، فقال أوريسته:

– إن الأرض تحتاج إلى أعمالٍ كثيرة، لا طاقة له بها. وأظنّ أن الحال ستنتهي ببيع والده لهذه الأراضي كلها، فـ پولي لا يستثمرها حتّى في الصيد.

– ولماذا يجهد نفسه في الاشتغال بالأرض؟ – سألتُ پيرَتّو وأنا أرفع عينَيّ عن المجلّة.

– إن الرجل الذي يمرّ بأزمة حياتيّة لا بدّ له أن يشتغل الأرض – أجاب پيرَتّو – إنها الأمّ الرؤوم التي لا تخدع أبناءها. ينبغي أن تعرف ذلك.

– بوسعكم أن تنظّموا رحلة صيد في شهر أيلول – قال پولي.

لم يعلّق أحد على كلامه. وكان شهر أيلول على الأبواب، إذ لا تفصلنا عنه سوى عشرة أيّام، وتساءلتُ إن كان بوسعنا البقاء هنا طوال هذا

الوقت. وبدا لي أن هناك اتّفاقًا ضمنيًّا على البقاء، فلم أتفوّه بشيء، وعدتُ أطالع المجلّة.

نزلتْ گابريلّا مع أوان الغداء، ترتدي الروب وعلى وجهها آثار الشّمس. جلستْ جنبَ الشّبّاك، تحت ظلّ الستائر، وأثارت موضوع الحديث عن الصيد مع أوريسته، وابتسامة عريضة ترتسم على وجهها.

-19-

مكث أوريسته معنا فوق تلّ الكَرَبّو. يغادر – أحيانًا – لبعض الوقت، بواسطة الدّرّاجة الهوائية، ولكنّه سرعان ما يعود. وكنّا نستمتع في قضاء الوقت في التجوال بين نباتات العسلة معزية الأوراق والنعناع المدبّب المنتشرة في التّلّ، وهو يصطلي تحت شمس آب. وما إن نخرج من وسط هذه النباتات حتّى نجد أنفسنا عند حافّة التّلّ المشرفة على غابة أشجار الشرد القضباني، فنعود أدراجنا، وننغمس في تلك البقعة مثل حشرة أو طير صغير. كنتُ أشعرُ أننا منقوعون في عطور تلك النباتات، وفي أشعّة الشّمس. نزلنا جميعًا – ذات عصر – عبر السفوح الشديدة الانحدار، حتّى بلغنا مزارع الكروم المهجورة التي تلتفّ حولها أشجارها الأعشاب المتسلّقة. في حين درنا – في يوم آخر – حول التّلّ، وقطعنا طريقًا تحفّ بها نباتات العلّيق الشجيري، حتّى وصلنا إلى كوخ صغير دائري الشكل، مهجور وداكن اللون، تلوح من بين شقوقه زرقة السماء. ولكنّنا لم نلاقِ، في طريقنا، أي أثرٍ للسياجاتٍ أو الطُّرُق الرّيفية. وبدتْ أرض المنحدرات عذراء، لم يمسّها محراث، وإن كانت – ذات يوم – عامرة بالزرع، يتوسّطها الكوخ الشبيه بمقصورة، يطيب فيها المقام. وكان أوريسته وبولي، في صغرهما، يطلقان على الكوخ اسم الباغودا الصينية، ويتذكّران كيف كانتْ تكسوه أزهار الياسمين. أمّا الآن، فما إن دنونا منه حتّى سمعنا خشخشة الجرذان والعظاءات بين نباتات القراص الكبير:

لقد أكلته حيوانات التّلّ ونباتاته. على أن ذلك كله لا يوحي بالحزن، على العكس، فقد كانتْ تلك البقعة تبدو أرضًا عذراء، تحكمها الطبيعة، ولم تكفِ أصواتنا المتعالية بين الشجيرات لتدنيسها. وبدتْ لي جليّةً فكرة بيَرَتّو في أن الغابة التي تقبع تحت شمس الصيف تعبق برائحة الموت. ليس في ذلك المكان من أحدٍ يجرح الأرض ليستثمرها في شيءٍ ما، ولا أحد يعيش فوقها: ذات يوم كان الإنسان يفعل ذلك، ثمّ رفع يده عنها.

قال بيَرَتّو لـ گابريلّا:

– لا أعرف لماذا لا تمضيان الشتاء هنا، في هذا الكوخ؟ قد لا تجدان ما تأكلانه سوى جذور النباتات، ولكنّكما ستنعمان بالسكينة. إن الأرياف، في فصل الصيف، مثيرة للاشمئزاز، إذ ليس على الأرض سوى بقايا الفواكه التالفة. إن الشتاء – فقط – هو فصل الخلوة مع النفس.

– ماذا دهاكَ؟ – قال أوريسته. في حين قالت له گابريلّا، بنبرة حانقة:

– هل أصابكَ الجنون؟

تبسّم پولي، في حين استمر بيَرَتّو في حديثه:

– لنكن واقعيّيْن، إن الأرياف مزرية في الصيف، بروائحها النتنة المنتشرة، وهي تشبه الرائحة التي تنبعث بعد المضاجعة أو بعد الموت. ما جدوى هذه الفوضى كلها، والأزهار والدّوابّ القابعة تحت سعير الشّمس، والفواكه الفاسدة التي تتساقط من الأشجار؟

وكان پولي مستمرًّا في كركرته.

– الشتاء، الشتاء – صرخ پيرَتّو – ففيه تقبع الأرض في سباتها، عندئذٍ يمكنكَ أن تخلو مع النفس.

تطلّعت گابريلّا إليه وإلى پولي، ثمّ ارتسمت على وجهها ابتسامة عابرة:

– أنا أعرف كيف أقضي فصل الشتاء. ثمّ إنّني أحبّ هذه الروائح النتنة.

في الأيّام الأولى التي قويَتْ فيها أواصر الصداقة بين پولي وپيرَتّو، كنّا نحن نذهب في بعض الأماسي، رفقة گابريلّا، إلى سفوح التّلّ، نجلس على حافة المنحدر، وندخّن السجائر، وننعم بمنظر الأشجار أمامنا في السهل. وعلى العكس من پولي الذي لم يكن يتطرّق إلى أماكن طفولته، فقد كانت گابريلّا تحثّ أوريسته ليُحدّثها عن البلدات الصغيرة والطُّرُقات والكنائس. كانتْ ترغب في معرفة تفاصيل حياة الريفيّيْن، والأماكن التي قضى فيها أوريسته صباه، والغابات التي كانوا يذهبون إليها في رحلات الصيد. أمّا أنا، فقد كنتُ أستمتع برؤية بلدة أشجار السنديان من أعلى التّلّ، بلدة مومبيلّو ذات الأرض الحمراء، حيث يعيش ابنا عمّ أوريسته. ولمّا تحدّثنا – ذات يوم – عن تلك البلدة، اعترى گابريلّا الفضول، وسألتْني فيما إذا كانتْ فتاة أوريسته تعيش هناك. أجبتُها أن ثمّة ما هو أفضل: رجلان مجدّان، يعتنيان بمزارع الكروم العائدة لهما، ولا يكترثان بالحياة من حولهما. لاذ أوريسته بالصمت، في حين بدا لي، وأنا أمتدح داڤيد وچينتو، بأنّي امتدحه هو. سألتْ گابريلّا:

– ولماذا يُجهدان نفسَيْهما في الاشتغال في مزارع الكروم، ولا يستعملان الفلاحين، إن كانا هما أصحاب الأرض؟

قلتُ لها إن هذا هو أجمل ما في الأمر، فالمرء لا يستحقّ العيش على أرضه إلا حينما يعمّرها بنفسه، وإن ما دون ذلك كله عبودية لا غير. لمحتُ شفتَيْها تنفرجان عن ابتسامة هازئة، وكانتا ورديَّتَيْنْ كوجنَتَيْها المتورّدَتَيْنْ تحت الشمس. قالت بصوت فاتر:

– يبدو أنهما كما وصفتَ.

وحين كنّا نتمشّى وتغمرَ أنوفنا روائح النعناع المدبّب والأرض المجدبة، خطر في ذهني أنّنا هنا، قياسًا بمزارع الكروم في سان گراتو، كأنّنا نمكث في الأفق، أو فيما يشبه جزيرة معلّقة في السماء. لا أدري إن كان أوريسته يفكّر في الأمر، ولكنْ،؛ لا أظنه يكترث لهذه الأمور. قلتُ له مازحًا:

– لو أنّكَ وُلدت هنا، في الگرَبّو، لكنتَ شاهدت هذه المناظر – وأشرتُ بيدي صوب السهل، حيث يلوح أمامنا بياض بعض البيوت – أما زالت لديكَ رغبة الترحال في أرجاء الأرض؟

– ليس هناك سوى مزارع الرّزّ – قال أوريسته – ثمّ تأتي بعدها ميلانو ...

– لا تذكروا ميلانو بسوء – صرخت گابريلّا – ليستْ إلا أيّامًا قليلة، ثمّ أعود إليها.

في تلك الأيّام الأولى كنتُ أفكّر بانجذابي لگابريلّا، ولا أرى سوءًا في قضاء الوقت برفقتها. وكان بمقدورنا، أنا وهي وأوريسته، أن نستمتع بعذب الأحاديث، دون أن يضايقنا وجود پولي. ولم يكن هو أو روزالبا

يخطران في بالنا، وإذا ما تطرّقنا في أحاديثنا، وإن بنحو عابر، إلى أيّام تورينو، كانتْ گابريلّا هي أوّل مَنْ يبتسم لتلك الأحداث. وكنّا قليلي الكلام، في معظم الأحيان، إذ إن أوريسته، كعادته، يلوذ بالصمت، أمّا أنا، فلم أكن شديد الثقة بگابريلّا؛ كنتُ أشعر ببرودتها تجاهنا، وكأنها تلهو بطريقة سطحية، حتّى حينما تضحك معنا وتصفّق بيدَيْها. ربمّا بمقدور پيَرَتّو أن يجاريها في اللعبة، ولكنْ؛ حتّى هو كان حذرًا في التعامل معها. على أي حال، إن ما يغمرني بالمسرّة هو فكرة العيش على تلّ الگَرَبّو، ووجود گابريلّا بالقرب منّا، وهي تتنفّس – مثلنا تمامًا – هواء البرّيّة. على أن أشدّ ما يثير بهجتي هو النزول إلى المغارة أو إلى مزارع الكروم، وقطف الفواكه من الأشجار، والاستلقاء على العشب تحت الشّمس. ودائمًا ما تكون هناك أمكنة جديدة لم أكن قد بلغتها بعد، ولم أنغمس في جمالها الطبيعي؛ كجانبٍ من جوانب السفح، أو بقعة تتشابك فيها الأشجار بكثافة، أماكن تنتشر فيها رائحة شهر آب، بنكهة الأرض المالحة، أشدّ من أي مكانٍ آخر. ثمّ كانتْ هناك متعة التّأمّل في المساء، تحت ضوء القمر الساطع الذي يخفي النجوم، واستشعار الحياة الخفية التي تدبّ في كلّ زاوية من زوايا ذلك التّلّ.

وأخذ أوريسته يذكر لنا أسماء الحيوانات فوق التّلّ؛ قال إن هناك العقعق وأبو زريق والسنجاب، والقليل من حيوانات الزغبة السمينة. ثمّ هناك الأرانب البرّيّة ودجاج الأدغال. أمّا أنا، فيكفيني سحر الجَدَاجِد والزيزان، وهي تُصدر صريرها صباح مساء، وتمنح الصيف صوتًا خاصًّا. أحيانًا يعلو ضجيجها إلى الحدّ الذي يصيبني بالقشعريرة، ويخطر بذهني أنه يخترق أعماق الأرض حتّى يبلغ جذور النباتات. وكنتُ أفكّر بأصحاب تلّ الگَرَبّو، ولا أقصد پولي وگابريلّا الذيْن لا يفقهان شيئًا، بل أعني جَدّ

پولي الصيّاد، ومَنْ ملك وعمّر هذا التّلّ، ذات يوم. وكنتُ أتساءل إذا ما كانوا قد عشقوا هذه الأرض، هذا الجبل البرّيّ، كما عشقتُه أنا؟ ولا شكّ عندي أنهم استثمروه بنحو أفضل ممّا نفعل نحن الآن.

وقد ساعدني وجود گابريلّا على فهم شيء واحد. تحدّثتُ إليها عن ذلك، لكنّي فعلتُه بيني وبين نفسي، كما يجري أحيانًا وأتحدّث بيني وبين نفسي مع پيرَتّو. أدركتُ أن ترك هذا التّلّ مهجورًا منغمسًا في عزلته هو دليل على طبيعة الحياة الخاطئة التي يحياها پولي وگابريلّا. كانا لا يعيران اهتمامًا لهذا التّلّ، لذا فهو لا يقدّم لهما شيئًا أيضًا. إذ لا يخلّف الإسراف بالأرض بهذه الطريقة الوحشية، إلا الهموم والفشل في الحياة. تخطر في ذهني مزارع الكروم في مومبيلّو، والملامح الغليظة لوجه والد أوريسته. فمن أجل أن تعشق الأرض، يجب عليكَ أن تعمل فيها بنفسكَ، وتسقيها من عرق جبينكَ.

وعدنا في اليوم التالي إلى ذلك الكوخ، تبسّمتُ وأنا أتذكّر مقالة پيرَتّو عن أن في الأرياف روائح تشبه الرائحة التي تنبعث بعد المضاجعة أو بعد الموت. وكان طنين الحشرات في الكوخ، والجوّ الخانق بين نباتات اللبلاب المتسلّقة، والصفير الحزين لطائر الحجل، كل ذلك يجعلكَ تفقد صوابكَ. تركتُ گابريلّا وأوريسته في ظلّ الكوخ يصرخان بانزعاج، من أجل طرد طائر الحجل، وخرجتُ إلى النور، تحتْ أشعّة الشمس.

-20-

كنّا في الصالة ذات الجدران الزجاجية حين حلّ الظلام، نحتسي النبيذ، ونمضي الوقت في اللهو.

– أشعر أنيّ عديمة الفائدة – تقول گابريلّا – إذ ليس بمقدوري أن أُسلّيكم جميعًا.

وكانتْ تراقص أحدنا لبعض الوقت، ثمّ تجلس لتأخذ قسطًا من الراحة. في الأماسي الأولى، كنّا نجلس بصمت ونتبع بنظراتنا خطواتها وخفق تنّورتها الزرقاء.

– أشعر أنيّ عديمة الفائدة – قالت ذات ليلة – لقد سئمتُ العيش.

– أراكِ جادّةً في حديثكِ – قال لها پيرَتّو.

– أجل، لقد سئمتُ كلّ شيء – أجابتْ – سئمتُ الاستيقاظ صباحًا، سئمتُ تغيير ثيابي وأحاديثكم المشحونة بالأفكار المعقّدة. بودّي أن أذهب إلى حانة ما، لأحتسي النبيذ مع بسطاء الناس.

– إنها رغبة ماسوشية – قال پولي.

– ولمَ لا؟ – ردّتْ گابريلّا – كم أودّ أن يمسك بي أحدهم، ويخنقني، فلا أستحقّ سوى هذا.

– يا إلهي، أظنّكِ تعانين من أزمة ما؟

– يبدو ذلك – أجابتْ بنبرة قاطعة – إنّنا نمرّ في أزمة حادّة. أظنّها موضة سارية هنا، فوق هذا التّلّ. كنْ حذرًا، يا أوريسته، وإلا وقعت في الفخّ مثلنا تمامًا.

– أتحذّرينه هو فقط؟ – قال پيرَتّو.

لوتْ گابريلّا فمها:

– قياسًا به، نحن لسنا سوى أشخاص فاسدين. – قالتْ وشملتْني أنا أيضًا بنظرتها – إنه الشخص الوحيد السليم الفطرة والصادق بيننا.

حدّق فيها أوريسته باستغراب حتّى تفجّرنا ضاحكين. ضحكتْ گابريلّا أيضًا:

– ألستُ محقّةً إن قلتُ إنّكَ لا تعاني من أزمة مع ضميركَ؟ – سألتْه – هل لجأتَ إلى الكذب، يومًا ما، في حياتكَ، يا أوريسته؟

– هناك مستويات مختلفة من الأزمات التي يعانيها الشخص – علّق پولي.

– أكثر ممّا تتصوّرين – قال أوريسته باسمًا – مَنْ منّا لم يلجأ إلى الكذب في حياته؟

أخذ پولي – إذّاك – يتذمّر، ويكيل الاتّهامات للجميع؛ گابريلّا ونحن والناس كلها، ويقول إن الجميع ينظر إلى الأمور بنحو سطحي، ويلخّصون الحياة بطريقة دراماتيكية تافهة، ويحصرونها بسلوك وتصرّفات أخلاقية

خالية المعنى. وإن البشر مصابون بحالة من الهوس، تقودهم إلى التضحية بضمائرهم، من أجل القضايا الماديّة الحقيرة. فبعضهم يُشغل تفكيره بالوظيفة، وبعضهم يُشغله بالرغبات الدنيئة، أو بالمستقبل. وكلٌّ يفني طاقاته ويصرف نهاره في الكلام الفارغ والغرور.

– إذا ما أردنا أن نكون صريحين مع أنفسنا – قال پولي – فما شأننا وهذه التوافه كلها؟ لا شكّ أنّنا أناسٌ فاسدون. فما معنى أن نعاني من أزمة ما، إذنْ؟ بالتأكيد لا يعني أن ترغب في احتساء النبيذ بصحبة بسطاء الناس، فهم – على أي حال – ليسوا أفضل منّا في شيء. إذنْ، ليس أمامنا سوى أن نغوص في أعماق أنفسنا، ونكتشف حقيقة مَنْ نكون.

– هذا كلام لا طائل منه – قال پيرَتّو.

– إذا استثنينا هذا، فما جدوى كل ما تبقّى من الأشياء؟ – قال پولي بإصرار – بوسعكَ أن تشتري كل ما تبقّى، أو قد يفعل الآخرون لك ذلك.

– لا يمتلك الجميع الإمكانية لشراء الأشياء – قال أوريسته مقاطعًا.

– وهل هذه هي المشكلة؟ لقد قلتُ إن بالإمكان فعل ذلك، ولم أقل إنه يجب عليهم فعله. على أي حال، فهي أشياء يتوقّف امتلاكها على رغبتنا من عدمها. ولكنْ؛ ما ليس بوسع أحد أن يمنحه إيّاكَ – أبدًا – هو حقيقة مَنْ تكون أنتَ.

– ولكنّنا لسنا سوى أشخاص فاسدين – صاحت گابريلّا – هيّا، يا پولي، ألم توافقني الرأي على أنّنا كذلك؟

– إن پولي يقصد شيئًا آخر – قال پيرَتّو – إنه يشير إلى رضانا جميعًا

بما وُصفنا به، وبالحكم الذي أُطلق علينا. ولا يفي بالغرض أن نعرف أنّنا أشخاصٌ فاسدون، فهذا لا يعني شيئًا. يجب علينا أن نتساءل عن العلّة من وراء ذلك، وأن نُدرك أنّنا قادرون على تغيير أحوالنا، وأنّنا – كباقي البشر – خُلقنا على صورة الرّبّ، وفي هذا تكمن المتعة الحقيقية.

نهضت گابريلّا، وغيّرت قرص الفونوغراف. مع انطلاق أوّل الألحان، مدّت يَدَيْها، وصاحت بتأوّه وتوسّل:

– مَنْ يرغب بي؟

نهض أوريسته استجابة لطلبها، في حين بقينا، نحن الثلاثة، نخوض النقاش. وقال پولي، وهو يتطلّع إلينا بعينَيْن شبه مغمضَتَيْن، إن كان الله موجودًا في داخلنا، فما العلّة من البحث عنه في العالم الخارجي، وفي ما نقوم به من أفعال وتصرّفات؟

– إذا كنّا قد خُلقنا على صورته – تمتم – فأين هي هذه الصورة، إن لم تكن في أعماق الإنسان؟

وكنتُ أنا أتبع بنظري تنّورة گابريلّا الزرقاء، وأفكّر بروزالبا. كدّتُ أقول "لقد رأيتُ هذا المشهد من قبل"، ولكنّي لمحتُ ابتسامة تشرق على وجه پيرَتّو.

– هل أنتَ متيقّن أن ما تقوله ليس سوى هرطقة قديمة العهد؟
– سأل پيرَتّو.

– لا يهمّ – قال پولي بنبرة قاطعة – يكفي أن تكون الحقيقة.

– أتتوق لهذا الحدّ أن تكون على صورة أبينا الخالد في السماء؟

– وما الضير في الأمر؟ – قال پولي بإصرار – أتراكَ تخشى الكلمات؟ امنَحِ الرّبَّ الاسم الذي تشاء، أمّا أنا، فأسمّيه الحرّيّة المطلقة واليقين القاطع. لا أتساءل إن كان موجودًا أم لا، يكفي أن أكون حرًّا، متيقّنًا وسعيدًا، مثله تمامًا. ومن أجل بلوغ هذه المرحلة، من أجل أن تصبح إلهًا، يجب أن تلامس أعمق نقطة في ذاتكَ، أن تعرف حقيقة نفسكَ في الأعماق.

– كفّوا عن هذا – صرخ أوريسته من وراء كتف گابريلّا.

لم نعر انتباهنا لأوريسته، وقال پيرّتّو بنبرة مرح:

– وهل لامستَ أنتَ هذا النقطة العميقة؟ أتفعل ذلك دائمًا؟

أومأ پولي برأسه، بملامح جادّة.

– كنتُ أظن أن خير طريقة لمعرفة النفس هو مواجهة أخطائنا بأنفسنا ومعالجتها. – قال پيرّتّو – ولكنْ؛ قل لي ماذا قد تفعل لو أن طوفانًا اجتاح الأرض؟

– لا شيء – أجاب پولي.

– أظنّكَ لم تفهم ما عنيتُ. لم أقصد سؤالكَ عمّا توّد أن تفعل، بل عن ردّة فعلكَ في حالة كهذه. هل ستلوذ بالفرار؟ هل ستجثو على ركبتَيْكَ خائر القوى؟ أم أنّكَ سترقص بانتشاء؟ مَنْ منّا بوسعه القول إنه يعرف نفسه، إن لم يجد نفسه في مواجهة اللحظة الحاسمة؟ لا أحسب الضمير سوى قبو مليء بالقاذورات، أمّا عافية النفس، فهي في الخروج إلى الهواء الطلق، بين الناس.

– لقد أمضيتُ وقتًا طويلًا بين الناس، مذ كنتُ صبيًا – قال پولي مطرقًا – في المدرسة الداخلية أوّل الأمر، ثمّ في ميلانو، انتهاءً بالحياة التي أمضيتُها مع گابريلّا. استمتعتُ كثيرًا، لا أُنكر ذلك، وأظنّ أن هذا أمر طبيعي. لقد عرفتُ حقيقة الناس في هذا العالم، وأظنّ أن قضاء الوقت بينهم هو الطريق الصحيح ...

– أمّا أنا، فسأشعر بالأسى إذا ما فارقتُ الحياة، لأنّني لن ألتقي بأحد بعد ذلك – قالت گابريلّا وهي تمرّ أمامنا.

– واصلي رقصكِ، يا عزيزتي – صاح پيرّتّو – ولكن؛ أظنّها محقّة فيما تقول. أمّا أنتَ، فإنكَ ترى الله في المرآة.

– ماذا تعني؟ – سأل پولي.

– حسب المنطق الذي تتحدّث فيه، فإن هذا العالم لا يعني لكَ شيئًا، وإنّكَ تحمل الله في عينَيْكَ، لذا فستراه طوال حياتكَ كلّما نظرتَ في المرآة.

– لمَ لا؟! – أجاب پوليْ – لا أحد يعرف كيف هو وجه الله.

كان پولي يتحدّث بنبرة هادئة أدهشتْني. توقّفتِ الموسيقى، وفي صمت تلك اللحظة بلغت مسامعنا، من خلل الجدران الزجاجية، صرير الجَدَاجِد.

– لقد سئمنا أحاديثكم – قالت گابريلّا وهي تشبك ذراعها بذراع أوريسته – وسئمناكم أنتُم أيضًا.

خرجنا – عندئذٍ – إلى الهواء الطلق، وكان القمر بدرًا، وأخذنا نتمشّى في الطريق.

– لو كانتْ ثمّة حانة ما في الأسفل، لقصدناها – قال پيرَتّو. وكانتْ گابريلّا تسير أمامنا، برفقة أوريسته، فالتفتتْ إليه، وقالت له:

– اسمع، أيّها الوغد، إيّاكم أن تعاودا الحديث عن الطوفان!

وكنتُ أنا أسير ما بين المجموعتَيْن، وأُعبِّئ أنفي برائحة الأرض والقمر ونباتات العسلة معزية الأوراق. مررنا بجوار حافّة الشارع المرتفعة، حيث كانتْ أشجار التين الشوكي. وكانتْ أشجار السفح وشجيراته تتراقص تحت ضياء القمر، وثمّة نسائم خفيفة تبدو كأنها أنفاس الليل.

كان أوريسته، رفقة گابريلّا في الأمام، يثرثر عن ركوبه الخيل في الماضي. في حين لا يزال پولي، رفقة پيرَتّو في الخلف، يناقش الموضوع ذاته:

– ثمّة قيمة ما في الرغبة الجنسية، وفي ارتكاب الآثام. القليل من الرجال يدركون حدّ رغبتهم الجنسية ... يعرفون فقط أنها بحر شاسع. إننا بحاجة إلى الشجاعة والتّحرّر من القيود، وهذا لا يأتي إن لم تلامس القاع.

– ولكن؛ ليس للرغبة الجنسية حدّ.

– إن ملامسة القاع أشبه برحلةٍ تحملكَ إلى ما وراء الموت – قال پولي.

-21-

أخذتُ أهزأ بأوريسته الذي امتنع عن العودة إلى بلدته منذ ثلاثة أيّام؛ وكان ينام في حجرة في الطابق الأرضي، قرب حجرة الطّبّاخة.

– إني أثق بأوريسته – كانت تقول گابريلّا.

وكان أوريسته يصعد إلى غرفتي في الصباح، يُوقِظني، ويقف عند الشّبّاك، ليدخّن سيجارته.

– لقد تجوّلتُ في الغابات طوال الليل – قال لي.

– لماذا لم تَصفِّر لي؟ كنتُ رافقتكَ.

– كانت لديّ رغبة في الخلوة مع نفسي.

تطلّعتُ إليه بوجه عبوس، كما يفعل پيرَتّو، عادةً، ثمّ شعرتُ بعدها بالأسف. أطرق أوريسته برأسه ككلب مذنب.

– أيتعلّق الأمر بأحدٍ ما؟

لاذ أوريسته بالصمت، كان يتطلّع إلى سيجارته.

– لنذهب إلى السطح – قلتُ له.

ولكي نصعد إلى السطح، فقد وجب علينا تسلّق سلّم خشبي،

ينتهي بفتحة في السقف. ولم نكن قد ذهبنا إلى هناك من قبل، وكانتْ گابريلّا تصعد للتّشمّس عند انتصاف النهار. قطعنا الممرّ إلى السّلّم على أطراف أصابعنا، وعند صعودنا أخذ السّلّم يقرقع عاليًا. وكان أوريسته أوّل مَنْ نفذ إلى السطح الذي يشبه إيوانًا مكشوفًا، تغمره الشّمس بالكامل. ويحيط به جدار واطئ، تتوزّع عليه بعض الأعمدة التي تستند عليها ألواح خشبية، تُظلّل جانبًا من المكان. وكانتْ تنتشر بين الأعمدة، فوق الجدار، بعض المزهريات التي غرستْ فيها أزهار إبرة الراعي، تتناثر حولها أغصان أشجار الصنوبر.

– مكان لا بأس به. إن هذه المرأة تعرف كيف تستمتع بوقتها.

جال أوريسته بنظره في المكان، وعلى ملامحه الحَيْرة. وكانت هناك مقاعد وروب وكرسيّ للاستلقاء، طُويتْ كلها، وأُسندت إلى الجدار. خطر في ذهني أن مَنْ يستلقي على كرسي الاستلقاء، لا يرى أمامه سوى السماء وأزهار إبرة الراعي.

– اسمعْ، يا عزيزي – قلتُ لأوريسته – أظنّ أن لا فائدة من اصطحابها إلى الحوض معنا، فمن المؤكد أنها أشدّ سمرةً منّا.

– أتعتقد أنها تستلقي تحت الشّمس عارية كما نفعل؟ – تمتم أوريسته.

– هل دعتْك للمجيء معها أنتَ أيضًا؟ – سألتُه بذات الابتسامة، وشعرتُ بالأسف مجدّدًا. وكان أوريسته يحدّق بالروب، دون أن يرفع نظره عنه.

– طوبى للنمل والدّبّور الأحمر، إذ تراها عارية – قلتُ له – هيّا لننزل.

على من يقع الذنب لما فعلناه ذلك الصباح؟ هل الذنب ذنبي حين كنتُ أمزح؟ وحين أعيد التفكير بالأمر اليوم، فإني أجزم قاطعًا أن الذنب كلّه ذنب تلّ الگريبّو، وكذلك القمر وأحاديث پولي. ربمّا كان يجب عليّ أن أقول لأوريسته:

– هيّا نغادر المكان.

أو ربمّا وجب عليّ الحديَث مع پيَرَتّو في الأمر، وربمّا كان بوسعه إنقاذه. ولكنّ پيَرَتّو الفطن الذي يفهم كلّ شيء، لم ينتبه للأمر قطّ. على أي حال، فقد كانتِ اللعبة تُعجبني أنا أيضًا.

وفي كل يوم، مع انتصاف النهار، بعد أن تقضي گابريلّا الصباح تتجوّل في البيت، وهي ترتدي سروالًا قصيرًا، وبعد أن تثرثر معنا، وتصفق الأبواب، وتُجهد پينوتّا بأوامرها، تختفي فجأةً عن أنظارنا. تتركنا تحت أشجار الصنوبر أو في الصالة ذات الجدران الزجاجية، نطالع الكُتُب أو نتجاذب أطراف الحديث. في تلك اللحظة نتبادل، أوريسته وأنا، النظرات، وكان ذلك سرّنا نحن فقط. فتمرّ تلك الساعة ببطءٍ، وترتسم في خيالنا أفكارٌ شتّى. وذات يوم ذهب پولي، في تلك السّاعة، إلى الطابق العلوي، مضى بعض الوقت قبل أن ينزل. رأيتُ – يومها – وجه أوريسته شاحبًا. ولم أكن أشعر بالغَيْرة من أوريسته، إذ لم تكن گابريلّا تشغل بالي بنحو جادّ. ولكني لم أتساءل إن كان أوريسته يفكّر في الأمر. كنتُ – فقط – أتلذّذ بتلك اللعبة، هذا كل ما في الأمر. فقد بدا لي كأحد أسرارنا الأخرى، كأمر ذهابنا إلى الحوض خفية، مجرّد لعبة لا نفع فيها ولا ضرر. مع ذلك فقد كنتُ حريصًا على عدم إطلاع پيَرَتّو على ذلك السّرّ، إذ كنتُ أعرف أنه قادرٌ على التّحدّث في ذلك الشأن على المائدة، وبحضور الجميع.

وحينما جاء اليوم لذي فكّرتُ فيه أن أقول لأوريسته "أليستْ جاچينتا بانتظاركَ؟" علمْتُ أن الوقت قد تأخّر. وقد حدث ذلك ذات صباح، حين حدّقتُ فيه بنظرةٍ مشحونة بالمعاني، فلم يحرْ جوابًا، وشعرتُ أنه في عالم آخر. لقد حدثَ شيئًا ما بينه وبين گابريلّا. وكانا قد خرجا من البيت مع شروق الشمس، بعد العاصفة المطرية التي ضربتِ الأرياف في الليلة السابقة، ورأيتُهما من الشّبّاك يتمشّيان، ضاحكَيْن، في طريق العودة. ولم يكن پولي قد خرج بعد من غرفته، في ذلك الصباح. نزلتُ إلى الطابق الأرضي، فوجدتُ پيرَتّو وپينوتّا يتهامسان، وما إن رأتني پينوتّا حتّى رمقتْني بنظرةٍ سيّئة. قال پيرَتّو إن الأمور عادتْ إلى سابق عهدها:

– إن هذا الأحمق تعاطى المخدّرات مجدّدًا.

وقالتْ پينوتّا أنهما أرسلا بطلبها، لكي تنظّف القيء الذي كان على الأغطية.

– وهل حدث ذلك من قبل؟ – سألها پيرَتّو.

– يحدث في العادة عندما يبالغان في الشرب – أجابتْ.

على أنّنا لم نشربْ شيئًا، في الليلة الماضية، غير مشروب البرتقال الغازي. بل إن الهواء الثقيل ووميض البرق في السّماء سبّبا لنا شيئًا من الاضطراب وسوء المزاج، واعتراني شعور بالضيق وإحساس بالذنب. وحين دار الحديث، حينها، حول مكوثنا في الگريبّو، قلتُ إن الوقت قد حان لنغادر. اعترض الجميع على قولي، حتّى گابريلّا – وأصرّوا في القول إنّهم يشعرون بالراحة هنا، وإن أمامنا الكثير من الأشياء الجميلة لنفعلها.

– ربمّا الشخص الوحيد الذي يشعر بالانزعاج هي پينوتّا – قال پولي لحظتها – ولكنْ؛ ليس بمقدورها أن تتذمّر.

وكان البرق يضيء أشجار الصنوبر – بين حين وحين – فقلتُ حينها لـ پولي وگابريلّا إنّني لا أفهم الدافع من وراء إصرارهما على بقائنا معهما، وقد جاءا إلى تلّ الگريبّو طلبًا للعزلة.

– يا لكَ من متبجّح! – قالتْ گابريلّا. وبدأتِ السماء ترعد، فاضطررنا عندها للدخول إلى البيت، ولم نتحدّث في الأمر بعد ذلك.

ولحق بي پيرَتّو – ذلك الصباح – إلى الغرفة، وجلسنا نتحدّث في شأن پولي وتعاطيه للكوكايين.

– كنتُ أتوقّع ذلك – قال پيرَتّو – إن هذا الأبله لا ينفكّ يتعاطى الكوكايين. فما جدوى ما فعله أبوه من إرساله إلى الأرياف؟! على أنّ لا خطر في الأمر، إذ لا بدّ أن ينهض بعد ساعة من الآن. أرأيتَ؟ هذا هو مصير أبناء الأثرياء.

– وماذا عن أوريسته؟ – سألتُ.

لوى پيرَتّو فمه، كان پولي يحتلّ تفكيره، فأكمل حديثه عنه:

– إنه ولد مدلّل، والذنب في هذا كله هو ذنب الآباء الذين لا يفعلون شيئًا في هذه الدنيا سوى جمع الملايين. وبدل أن ينطلق أبناؤهم من ساحل الحياة، كباقي البشر، فإنهم يجدون أنفسهم في لجّتها، دون أن يُحسِنوا السباحة. لذا فإنهم، والحال هذه، يلوذون باللهو والعربدة. لو أنّكَ تعرف كيف كان يعيش في صباه!

وأخذ پيرَتّو يروي لي حكاياتٍ رهيبة عن الخادمات والمربّيات اللواتي أوكل إليهنّ أبوا پولي مهمّة العناية به، في الگريبّو، حينما كان له من العمر ثلاثة عشر أو أربعة عشر عام. وكيف غرسنَ في عقله أنواعًا من الحماقات، كان أوّلها أن الناس يُولَدون أغنياء، وأنّ تبجيل النساء لأمّه أمرٌ طبيعي، وإن كان الناس جميعهم سواسية أمام الله. ثمّ حكى لي كيف أن إحدى الخادمات أخذت تُضاجعه، ولأشهر طويلة، وهو لا يبلغ من العمر – حينها – سوى اثنَتَي عشرة سنة. ولم تكتفِ بذلك، بل صارت تصحبه معها إلى الغابات، وتمارس معه الألعاب الجنسية، حتّى أصبح پولي فتى ماجنًا قبل أن يبلغ مبلغ الرجال.

– إن الحياة، بالنسبة إليه، لا تعدو أن تكون سوى هذه الأشياء – قال پيرَتّو – فقد كان يسرق حبوب النوم من أمّه، ليتعاطاها كمخدّرات، ويلوك التبغ، ويصفع الخادمات حتّى يتذرّع، بعد ذلك، باسترضائهنّ والارتماء في أحضانهنّ.

– إنه ماجن بطبيعته – قلتُ – ولا شأن للمال بذلك. فليس الأثرياء كلهنّ على شاكلته.

– بل هم كذلك – أصرّ پيرَتّو – والحقّ ما قالتْه زوجته، فإنه يمتاز عنهم بالسذاجة. ولكنّه جادّ في أفكاره، أتعرف؟ سترى أنه سيصبح بوذيًّا، إن لم تقضِ عليه المخدّرات.

في تلك اللحظة – تمامًا – كنتُ قد لمحتُ أوريسته وگابريلّا من الشّبّاك. كانا يتمشّيان بين أعشاب المنحدر، ويكركران. فسألتُ پيرَتّو:

– وما قولكَ في گابريلّا؟ أهي أيضًا تتعاطى الكوكايين؟

– أظنّ أن گابريلّا تسخر منّا جميعًا – أجاب – إنها تستمتع بذلك.

– لماذا، إذنْ، لا تزال مع پولي؟

– إنهما معتادان على الشجارات.

– ربمّا ما زالا يحبّان بعض.

ضحك پيَرَتّو بطريقته المعتادة، وصَفر:

– إن هؤلاء لا وقت لهم للعشق، ومشاكلهم أبسط ممّا تتصوّر. فكلّ ما يشغل بالهم هو المال.

نزلنا، بعد ذلك، إلى الصالة ذات الجدران الزجاجية، ورأيتُ أوريسته وگابريلّا. وكانتْ هي قد نزلتْ للتّوّ من غرفة پولي، إذ لكلّ منهما غرفته الخاصّة، وقالتْ:

– لقد عاد المريض إلى رشده.

ولم يأتِ أحدٌ على ذكر المخدّرات. وكان أوريسته وگابريلّا بمزاجٍ رائق وعيون متألّقة، ممّا جعلنا ننسى أمر پولي. ثمّ أخذنا نخطّط للذهاب إلى الرقص في الاحتفالات التي تقام في بلدة قريبة، في اليوم التالي. وكانتْ تلك البلدة ذائعة الصيت بما تقيمه من احتفالات في نهاية شهر آب. ولمّا اختفتْ گابريلّا، مع انتصاف النهار، تطلّعتُ إلى أوريسته بنظرةٍ سريعة، فلاحظتُ أنه يتجنّبني. وكان يجلس مسترخيًا على مقعده، غارقًا في أفكاره، ولا يزال ثمّة ألق في عينَيْه.

في تلك اللحظة خطرت جاچينتا على بالي، وفكّرتُ بأمرها مليًّا.

-22-

ولكي نذهب إلى حفل البلدة، فقد تحتّم على أوريسته أن يعود إلى البيت، من أجل أن يجلب العربة، على أن ليس هناك مكان لأكثر من ثلاثة أشخاص. ولمّا كان پولي يشتكي من ألم في رأسه، فقد رفض الذهاب، وما كان ليستطيع الرقص والحال تلك. فقلتُ لهم إنّني أفضّل البقاء في الگريبّو أيضًا، فقد تعلّقتُ بالمكان بشدّة، وسيكون من الجميل أن أكون طليقًا ليومٍ واحد.

– يا لكما من وغدَيْن – قالت گابريلّا وهي تأخذ مكانها بين أوريسته وپيرَتّو – مع ذلك، يؤسفني عدم مجيئكما.

غادروا وهم يلوّحون لنا ويضحكون. أمضيتُ الصباح عند المغارة الصغيرة، حيث تنتشر كزبرة البئر. يبدو التّلّ من تلك النقطة وكأنه يلامس السماء، في حين تحجب غابة من القصب رؤية السهل، ولعلّها فيما مضى كانت مزرعة كروم. استلقيتُ عاريًا، أتشمّس، عند فوهة المغارة، ولم أكن قد تشمّستُ مذ تركنا الحوض الذي في الأخدود. وقد فوجئتُ بجسدي الشديد السمرة، بل يبدو أسودَ كساق نبتة كزبرة البئر. ومرّتْ في خاطري أشياء كثيرة وأنا أطوف ببصري من حولي. فكّرتُ بأنه قد يفاجئني أحد ما، من غابة القصب التي تحيط بالبقعة الجرداء حيث كنتُ. بالتأكيد لن تكون الطّبّاخة، ولا پولي أيضًا. لا بدّ أنها ستكون

أرواح الصخور والغابات، أو ربمّا أحد حيوانات التّلّ، ولكنّها مخلوقات برّيّة وعارية مثلي تمامًا. وكان الهلال الشاحب، في السماء التي تمتدّ فوق غابة القصب، قد أضفى شيئًا من السحر في ذلك النهار. ما تلك العلاقة الغريبة بين الأجساد العارية والقمر والأرض؟ فحتّى والد أوريسته أتى على ذكر الأمر مازحًا.

عند انتصاف النهار، عدتُ إلى الڤيلا البيضاء كالقمر، المتوارية بين أشجار الصنوبر. درتُ حول البيت، قرب الدفيئة الزراعية، فلاح لي، عبر إحدى نوافذ البيت، رأس پينوتّا الأحمر وهي تكوي الثياب. ثمّ أخذت أنظر، من باب الدفيئة، إلى المزهريات التي تضمُّ أزهارًا مختلفة الألوان، وإذا بالعجوز روكّو يخرج من الدفيئة، وما إن رآني حتّى أخذ يُتمتم بالكلام. تجاذبنا أطراف الحديث، وقال لي إنّني أبدو بحالة جيّدة. قلتُ له إن الهواء طيّب فوق تلّ الگريبّو، وإذا كان پولي لا يزال شابًّا صحيح الجسد مليئًا بالحياة، فإن ذلك بفضل السنين التي قضاها فوق هذا التّلّ. كانت پينوتّا تحدّق فينا بنظرات ساخطة، وهي تستمع لما نقول.

– أجل أجل – أجاب روكّو – هناك هواء طيّب.

"قد يكون أمرًا مسلّيًا لو أن پولي يضاجع پينوتّا أيضًا" قلتُ بيني وبين نفسي، ثمّ تحتّم عليّ أن أبتسم، لأن روكّو كان يتطلّع إليّ بغرابة. بصق عقب السيجارة بكفّه الأسود الخشن، وأخذ يتذمّر من الصيف. قال إن ماء الحوض لا يكفي الزرع، ويجب عليه نقله بالدلو. في ما مضى كانتْ هناك مضخّة، أما الآن، فهي عاطلة عن العمل. سألتُه من أين يأتون بماء الشرب.

– من البئر – أجابتْ پينوتّا من الشّبّاك.

– ومَنْ يسحبها من البئر؟ – سألتُ. هزّت پينُوتّا رأسها الأحمر وأجابتْ:

– ومن تظنُّه يفعل ذلك غيري!

وكنتُ أرغب بالحديث مع روكّو، أريده أن يصف لي الغابات على التّلّ، وكيف كان في الماضي، سوى أن عينَي پينوتّا المدوّرَتَيْن لا تتركاني وشأني. سألتُ – عندئذٍ – إذا ما كان ثمّة شخص يغتسل فوق السطح، ومن أين يأتي بالماء. تبسّمتْ پينوتّا بطريقتها المعهودة، ثمّ قالت:

– إنها السّيّدة گابريلّا، ولكنّها تغتسل بالشّمس، لا بالماء.

– كنتُ أظنّ أنّكِ أنتِ مَنْ يحمل إليها الماء!

– لم أرتكبْ، حتّى الآن، ذنبًا يستحقّ هذا العقاب!

سألتْني پينوتّا – إذّاك – عن الأسباب التي منعتْني من الذهاب إلى الحفل برفقة الآخرين. روكّو أيضًا أبدى اهتمامًا بالأمر، فتطلّع الاثنان إليّ بانتظار جوابي.

– لأن العربة لا تسع الجميع – أجبتُ باقتضاب.

هزّ روكّو العجوز رأسه:

– سيكون هناك الكثير من الناس، الكثير.

نزل پولي وقت الغداء، ما زال وجهه مجهَدًا منذ الأمس، لكنّه سرعان ما عاد إلى حجرته، ثمّ رأيتُه من جديد عند الغروب. لم يتسنَّ لنا، طوال

اليوم، أن نتبادل أكثر من عشر جمل، إذ لا نعرف ما نقوله لبعض. وكان هو يطوف في البيت، ترتسم الابتسامة على وجهه المتعب. في حين قمتُ أنا بتصفّح الكُتُب القديمة كلها في غرفة الألعاب، والألبومات المصفرّة اللون والموسوعات القديمة والمجلّات المصوّرة. وحين نزل پولي، عند الغروب، رفعتُ رأسي، وسألتُه:

– أتظنّ أنّهم سيكونون هنا مع العشاء؟

رفع پولي حاجبَيْه، ثمّ تنحنح وقال:

– أعتقد أن من الأفضل لنا احتساء بعض الليكير.

وبالفعل جلسنا تحت أشجار الصنوبر، نحتسي الليكير.

– إن الوقت يمرّ حتّى هنا، مع أن كل شيء يبدو كما هو. أظنّكَ تشعر بالراحة في عزلتكَ.

ارتسمت على وجهه البرونزي ابتسامة. كان يرتدي قميصًا، ويضع في جيده سلسة.

– لماذا لا نرفع الكلفة بيننا؟ – قال – فكلانا صديق لأوريسته.

أخذ يسأل، بأدب، عن حياتي في تورينو، وعمّا سأفعل حين عودتي إلى هناك. ثمّ تحدّثنا عن پيرَتّو، فقلتُ له إن النساء في عائلة أوريسته اعتقدنَ أنه مختصّ في اللاهوت، فضحك پولي عاليًا. قال إن پيرَتّو أكبر قدرًا من ذلك، وإن عيبه الوحيد هو أنه لا يؤمن بالقوى الكامنة في الأعماق، وبالبراءة التي نجهلها، والتي تسكن فينا. سألتُه إذا ما

قرّر أن يمضي الشتاء في الگريبّو، فأومأ برأسه وهو يحدّق إليّ، دون أن يتفوّه بكلمة.

– يخطر في ذهني، وأنا أراكَ في هذه الأماكن التي قضيتَ فيها طفولتكَ، أن لها أثرًا كبيرًا في نفسكَ. أظنّ أن كل شيء بالنسبة إليكَ له صوت ما، وتشعر أنه يضجّ بالحياة. بالذات الآن، في فصل الصيف.

كان پولي ينظر إليّ بصمت.

– لقد ملأ روحي هذا المكان أنا أيضًا، ما إن وصلتُ إليه، مع أن لا ماضي لي فيه. بوسعي أن أتخيّل شعوركَ حياله. إن هذا المزيج من الأراضي المهجورة والنباتات البرّيّة ليس كباقي الأرياف، إنه شيء ما يفوق ذلك كله، وقد أثارني بنحو غريب. أتساءل إذا ما كان على هذه الحال، أيضًا، فيما مضى؟

تطلّع إليّ باستغراب، ثمّ قال:

– لقد بقي البيت كما هو. ربمّا كان يضجّ بالحياة والخدم أكثر من الآن، ولكنْ؛ لم يطرأ عليه أيّ تغيير.

– أنا لا أقصد البيت، إنمّا أشير إلى الغابات والمزارع المهجورة وهذه الروح البرّيّة التي تشعر بها في أرجاء المكان. كنتُ أتشمّس هذا الصباح عند مدخل المغارة، فبدا لي أن التّلّ كائن له دم يسري فيه، وأصوات ينطق بها، شعرتُ أنه ينبض بالحياة.

اعتدل پولي في جلسته، وواصلتُ أنا الحديث:

– لقد أقمتَ في المكان لزمن طويل، فهل مرّت بذهنكَ هذه الأشياء عن الگريبّو؟

كنتُ أتحدّث إليه وصوت في داخلي يردّد "إذا كنت مجنونًا، فها هو مجنون آخر. مَنْ يدري؟! لعلّ أفكارنا تتوافق".

لكنّ پولي أجابني قائلًا، وهو يلعب بالقدح:

– كنتُ، كالأطفال كلهم، شديد الولع بالحيوانات، وكان لدينا خيل وكلاب وقطط. وكان لديّ بوب، حصان سباق إيرلندي، وقد انكسر ظهره فيما بعد. ما كان يعجبني في الحيوانات هو خمولها، أنها تتمتّع بحرّيّة أكبر قياسًا بالإنسان.

– لعلّ ما أراه في التّلّ تراه أنتَ في الحيوانات. أكانتْ تعجبكَ الحيوانات البرّيّة، كالأرنب البرّيّ والثعالب؟

– لا، لا تعجبني – قال پولي بنبرة قاطعة – فأنا كنتُ أتحدّث إلى الحيوانات، كما أفعل معكم تمامًا. لا يمكنكَ التّحدّث إلى الحيوانات البرّيّة. وكان يعجبني بوب، إذ هو لا يتذمّر حين أضربه بالسوط. وكانتْ تعجبني القطط، لأنّني كنتُ أجلس وأضعها على فخذي. أتفهم ما أعني؟ إنها تشبه النساء، وكأنّكَ تقضي الوقتَ مع أمّكَ. على أن أمّي تعني لي شيئًا آخر. يا للمسكينة! لقد عانيتُ الكثير بسببها. أذكر – ذات شتاءٍ – أنها غادرتْ إلى ميلانو، فأمضيتُ عيد الميلاد المجيد برفقة الخادمات والثلج. كنتُ أجلس في الظلام، أشاهد الثلج من الشّبّاك، وحين تصرخ الخادمات بحثًا عنّي، فإنّي لا أجيبهنّ، بل كنتُ ألعب بأعصابهنّ.

– ها هي إحدى الذكريات التي بوسعكَ أن تستعيدها في الشتاء – قلتُ له.

– لقد رحلتْ أمّي – قال پولي – ربمّا معكَ حقّ، لا معنى للأرياف، بالنسبة إليّ، إلا في فصل شتاء.

قضينا المساء على هذه الحال، ثمّ تناولنا العشاء عند منتصف الليل. كانتْ پينوتّا تنظر إلينا، نحن الاثنَيْن، أمام تلك الطاولة، يخالط نظرتها شيء من الانشراح. كانتْ تقوم على خدمتنا بهدوء، وهي تجرّ نعلها جرًّا. وقد شعرتُ ببعض القلق، في حين كان پولي هادئًا. وأخذنا نحتسي النبيذ لبعض الوقت، وفي لحظة ما، لا أدري كيف، تكلّمتُ معه عن روزالبا. سألتُه أين هي الآن؟ وما الذي آلت إليه الأمور؟

– أوه – قال پولي بنبرة حزينة – لقد فارقتِ الحياة.

-23-

حين عاد الثلاثة على العربة، عند الضحى، كنتُ أنا مبحوح الصوت ومشوّش الذهن. لقد أمضينا الليل كلّه في الحديث عن موت روزالبا، ولم يكن پولي على دراية بالأمر حين وقوعه. وكانتْ روزالبا قد انتحرت في سكن الراهبات – انتحرت بالسّمّ، بالأدوية الناركوتية – وكان هو – حينها – على الشاطئ. قضينا الوقت نتمشّى تحت أشجار الصنوبر، وطفنا حول بركة الماء، تكلّمنا كثيرًا، بصوت خفيض، حتّى أطلّ الصباح. وكان پولي يقول إن الموت لا يعني شيئًا، ولسنا نحن مَنْ نُسبّب الموت، وأن ليس في داخلنا سوى البهجة والسلام، لا غير.

سألتُه إذا ما كان الكوكايين يمثّل جزءًا من السلام الذي أتى على ذكره. أجاب قائلًا إن كلًّا منّا مدمن على شيء ما؛ كالخمر أو الحبوب المنوّمة، أو ممارسة العري أو الصيد.

– وما دخل العري في هذا الشأن؟

– بالتأكيد له دخل: هناك مَنْ يخرج ويطوف بين الناس عاريًا، رغبة منه في التّصرّف كحيوان طليق وخرق القواعد الإنسانية.

وانقضى الليل، ولم أفلح في إقناعه أن هناك فرقًا شاسعًا بين الانتحار والموت بفعل المرض أو في حادثٍ ما. وكان هو يتكلّم عن

روزالبا بصوتٍ شجيّ، وتكلّم بتأثّر عن نفسه حينما كاد يموت. قال أن لا ذنب لأحدٍ بكلّ ما جرى. لقد ماتت روزالبا، وكلاهما الآن في سلام.

قضينا الليلة نحتسي النبيذ، نتشاجر وندخّن السجائر، وكنتُ نادرًا ما أعارضه فيما يقول. أشرقتِ الشمسُ ونحن جالسان على المقاعد، وشحب لون القمر بين أشواك أشجار الصنوبر، في حين كانتْ پينوتّا، بشَعْرها المنفوش، تصنع لنا القهوة. عند ذلك أخذنا نتحدّث عن الصيد والحيوانات المسكينة، وكان پولي يقول إنه قد يفهم أنواع الإدمان كلّها، إلا الإدمان على سفك الدماء. وكان هذا ما تعلّمه ممّا حدث بينه وبين روزالبا: إن سفك الدماء شأن شيطاني.

– والآن يريد أوريسته أن يذهب إلى الصيد – قال – لا يفهم أن الإنسان قد ينفر من شيء ما. فليذهب هو إن شاء، على أن يترك الآخرين وشأنهم.

غمرني ضوء الصباح بشيء من السكون، وأنا على السرير، ولكنّني لم أقوَ على النوم من شدّة التّوتّر والتعب والغضب. وحينما سمعتُ الأصوات البهيجة في الساحة أمام البيت، تضاعف غضبي من پيَرّتو، وكان لا شكّ يعرف كلّ شيء، لكنّه لم يخبرني. لم أتحرّك من مكاني، كنتُ أتطلّع إلى السقف، وأتخيّل أن روزالبا، الكوكايين، الدم المسفوك، التّلّ، مجرّد حلم ليس إلا، أو أنها مزحة سمجة اتّفق عليها الجميع، ليجعلوني أضحوكة لهم. تخيّلتُ أنه يجب عليّ أن أنزل، وأتظاهر بأن شيئًا لم يحصل، لكي أتخلّص من الفخّ. بل يجب عليّ أن أضحك منهم، أجل ...

صوت قويّ أشبه بالانفجار جعلني أثبُ من السرير. ركضتُ صوب

الشّبّاك، فرأيتُهم ينزلون، ضاحكين، من العربة. وكانتْ بين يدي أوريسته بندقيّة، يخرج من فوهتها الدخان. علق ثوب گابريلّا بطرف المقعد، فأخذت تصرخ، والريح تلاعب شَعْرها.

– ساعدوني على النزول.

خرجتْ پينوتّا والطّبّاخة راكضَتَيْن، وخرج پولي أيضًا. أخذوا يتبادلون التحايا، ويتحدّثون بحماس عَن النبيذ والاحتفالات والطُّرُقات الملتوية في المنخفضات:

– كم كانتْ ليلة بهيجة – يقولون – لقد مررْنا ببلدة أوريسته أيضًا.

في حين أحنى الحصان رأسه، وأخذ يضرب الأرض بحافره.

نزلتُ أنا أيضًا، ومع حلول منتصف النهار دخلنا إلى الصالة. ارتموا على المقاعد وهم يلهثون، واستمرّوا في الحديث عن مختلف الأشياء. وكانوا على توافق وانسجام، بعد تلك الليلة التي قضوها وسط جلبة الاحتفالات. يا لها من بلدة، يقولون، أناس يجيدون الاستمتاع بوقتهم فعلًا. ثمّ رووا ما قاموا به خلال الليل: تشاجر پيَرَتّو مع أحد أصحاب الحانات، قاموا بقرع أجراس الكنيسة، خفيةً، حتّى أقبل الحارس راكضًا، وسرقوا العنب من إحدى مزارع الكروم.

– هكذا إذنْ، يا پولي – قال پيَرَتّو وهو يجلس على ذراع مقعد گابريلّا – لقد جهّزتَ بنادق الصيد؟ أمّا نحن، فسنلعب دور كلاب الصيد.

عاد الهدوء إلى المكان بعد انتصاف النهار، وصعدت گابريلّا

لتغتسل وتغيّر ثيابها. تطلّعتُ إلى أوريسته، فوجدتُه هادئًا وسعيدًا. كان ازدياد حميمية العلاقة مع گابريلّا جليًا في عينَيْه، ولا حاجة لسؤاله عن ذلك. لكنّي لم أفهم سلوك پيرَتّو، والذي أخذ يمزح مع پولي، وكانا يحدّثان عن فلاحة تعرف جَدّ پولي، وتروي مغامراته مع النساء الكثيرات اللواتي حملْنَ منه في البلدات المجاورة.

– إنها عادة قديمة في العائلة – أجابه پولي – كانت تلك العلاقات الغرامية أمر طبيعي.

– للأسف أن گابريلّا تحبّكَ – قال له پيرَتّو – لكان بوسعها أن تسدّد ديون العائلة. يجب عليكَ أن ترسلها باستمرار إلى هذه الحفلات.

ولا أعرف ما كان يخطر في ذهن پيرَتّو، إلا أن أوريسته وثب فجأة. رفع پولي عينَيْه وعلى ملامحه الحَيْرة. وقف أوريسته أمام پيرَتّو دون أن يتفوّه بكلمة، حدّقا ببعض للحظات، وقد احمرّ وجهاهما، ولكنْ؛ سرعان ما ثاب پيرَتّو إلى رشده.

– ماذا دهاكَ؟ – سأل پيرَتّو – هل أصابكَ السهم الذي أطلقتُه؟

نظر أوريسته إلى پيرَتّو شزرًا، ثمّ إلى پولي، وخرج دون أن ينبس ببنت شفة. وحين أن اختليتُ بـ پيرَتّو، وكنّا على السّلّم، سألتُه إن كان على علم بما جرى لروزالبا. أجابني، بهدوء، قائلاً إنه يعرف بالأمر منذ زمن، بل توقّع حصول هذا الشيء مذ كنّا في تورينو.

– وماذا تنتظر من امرأة في مثل موقفها أن تفعل؟ ليس بمقدورها

أن تجد ذريعة للتّخلّص من هذا الموقف. إن عقول النساء قاصرة عن إيجاد حلول مناسبة.

– إن پولي إنسان سافل، لا يدرك عواقب أفعاله ...

– ولم تكن تعرف ذلك من قبل؟ – قال پيرَتّو – أخبِرْني، أين كنتَ تعيش؟

كان بودّي أن أُشبعه ضربًا، ولكنّني آثرتُ الصمت. مرّت گابريلّا في الممرّ – في تلك اللحظة – وشَعْرها يتطاير، ألقتْ علينا التّحيّة، ونزلت إلى الطابق الأرضي.

– وماذا عن هذه الفوضى الجديدة؟ – تمتمتُ – مَنْ منكما، أنتُما الاثنَان، يُغويها؟

– لعلّك تقصد مَنْ يظنّ أنه يغويها. ليس بوسع أحدٍ أن يغوي هذه الفتاة، يا عزيزي.

– ولكنْ؛ يبدو أنه جادّ في الأمر.

– كل شيء محتمل – قال پيرَتّو بابتسامة خبيثة – هل أنتَ مَنْ أسدى إليه النصح؟

أدركتُ أن پيرَتّو كان أنقى منّي سريرةً. جذبتُه من ذراعه، ولم أفعل ذلك من قبل، ودنونا من الشّبّاك.

– منذ ثلاثة أيّام والأمور تسير على هذا الحال، وقد تحدث مشكلة

لا طاقة لنا بها. لقد قلتُ لكما إن من الأفضل لنا أن نغادر. لا شأن لي بما قد يفعل پولي، بوسعه أن ينتحر إن أراد. ما يعنيني هو أوريسته.

– ما الذي يثير فزعكَ؟ البندقية؟ – قال لي پيَرَتّو وهو على وشك أن يضحك.

– أرأيتَ؟! لقد خطرتْ الفكرة في ذهنكَ أنتَ أيضًا. على أن ما يخيفني هو أن أوريسته قد لا يستمع إلينا.

– أهذا كل ما في الأمر؟

– ولا تعجبني ملامح پولي أيضًا، ولا الأحاديث التي يتناولها. ولم ترق لي قصّة روزالبا.

– ولكنّ گابريلاّ تعجبكَ؟

– ليس عندما تسكر على متن العربة في الطُّرُقات المتعرّجة. إنهما يختلفان عنّا تمامًا، يا پيَرَتّو.

– وهذا هو الجميل في الأمر – هتف – بل هو أجمل ما في الأمر.

– لقد قلتَ أنتَ نفسكَ إنهما لا يطيقان بعض.

– يا لكَ من أبله! – أجاب پيَرَتّو – على الأقلّ، فإن الناس التي لا تطيق بعضها صادقة في مشاعرها. ألا يعجبكَ الأشخاص الصادقون؟

– ولكنْ؛ يُفترض بأوريسته أن يتزوّج جاچينتا.

واصلنا حديثنا حتّى طلبوا منّا النزول لتناول الطعام. نزلنا، فوجدنا

پولي متحيّرًا ومنزعجًا، وأوربسته سيّئ المزاج، في حين كانتْ گابريلّا، بشَعْرها الذي يعبق منه العطر، تُثرثر عن أدوات الزينة التي يزيّن بها الفلاحون ثيرانهم في الاحتفالات، وعن رائحة الاسيتيلين الكريهة المنتشرة في المكان.

– أنا أحبّ رائحة الاسيتيلين – قال پيرَتّو – إنها تذكّرني بعربة الباعة المتجوّلين في الشتاء، وكذلك بآلة البوق.

-24-

أردتُ أن أتحدّث إلى أوريسته، والحقيقة لم يكن يتهرّب منّي، ولكنْ؛ تبدو على ملامحه السخرية والشعور بالإهانة، فكان ذلك يثبط عزمي. أوقفتُه على السّلّم، طلبتُ منه أن يريني البندقية.

– أبوسعنا أن نرافقكَ في رحلة الصيد؟ – قلتُ له.

وكان قد وضع البندقية وحقيبة الصيد على الأريكة، في غرفة الألعاب. تناولتُ خرطوشة حمراء، وقلتُ له:

– أستقتل پولي بهذه؟

خطفها من يدي، وتمتم:

– ما هذا الذي تقول؟

سألتُه – عندئذٍ – أن يسمح لي بالكلام. قلتُ له بصوت خفيض، وكان الآخرون في الصالة ذات الجدران الزجاجية، إنّنا أصبحنا الآن أصدقاء پولي، ويُفترض بنا أن نعامله كصديق. أترى أنّكَ تتصرّف تجاهه كصديق؟ لو أن پولي، قبل خمسة عشر يومًا من الآن، حاول أن يُوقِع بجاچينتا، مع أنّكَ لم تتزوّجها بعد، فماذا كان سيحدث؟ لو أنّكما، على الأقلّ، لا تثيران انتباه الآخرين من حولكما! ومع أنّ پولي سَئم منها، ومع

أنّه مجنون لا يدرك عواقب أفعاله، فسيكفّ – ذات يوم – عن التظاهر بعدم الاكتراث، وستكون له ردّة فعل. أليس من الأفضل لنا أن نغادر – على الفور؟ أن نعود إلى البيت، ونحتفظ ببعض الذكريات الجميلة عن هذا المكان؟

كان أوريسته يستمع إليّ بوجهٍ مغضب، وقد حاول عدّة مرّات أن يقاطعني. وحين انتهيتُ من الحديث، كانتْ ترتسم على مُحيّاه ابتسامة عنيدة، وأخذ ينظر إليّ بصمت، من الأسفل إلى الأعلى.

– ليس الأمر كما تقول – قال بعد صمت – فأنا لا أسرق شيئًا من أحد. ونحن لا ننوي الاختباء قطعًا، وهي على توافق معي.

– من الطبيعي أن تكون على توافق معكَ، إنّها امرأة! ولكنْ؛ أتعرف أين سينتهي بكما الحال؟

نظر إليّ مرّة أخرى، بوجه عابس:

– لقد هجرا بعض منذ أكثر من عام – قال – ولم تكن هي ترغب في رؤيته. لقد أجبرها والد پولي على المجيء معه. أراد منها أن تعيده إلى رشده، أن تمنعه من ارتكاب الحماقات. ألم ترَ كيف يعاملها پولي؟! ...

لم أقلْ له أنه لا يمكن علاج المريض بجعله يسرف في الشرب، وبإثارة حنقه وخيانته أمام عينَيْه، إذ لا فائدة من ذلك. كان أوريسته يتكلّم بحنق، وعلى وجهه احمرار العناد الذي يعني "يجب أن أغتنم الفرصة، فلن تتكرّر".

– إنها فتاة باهرة – قال أوريسته – لو أنّكَ رأيتَها كيف ترقص وتضحك

في الاحتفالات، وكيف تمازح العازفين ... إنها تُحسن التّصرّف مع الجميع.

– وهل قالتْ لكَ إنكَ أنتَ الرجل الذي ترغب به؟

أجهد أوريسته نفسه، لكي ينظر في وجهي؛ ولكنّه نظر خلسة، وعلى ملامحه شعور بالضيق. وكان ثمّة ألق في عينَيْه. بعد أيّام من ذلك، وحين أدركنا أن تلك المغامرة تفوق قدراتنا، فهمتُ أن أوريسته، بتلك النظرة، حاول أن يخفي زهوه، وألا يجرح مشاعري بسعادته. إذ إن تلك الأشياء كانتْ تُثير حرجنا، ولا نعرف كيف نتحدّث فيها.

– على أي حال، فإن پولي يدرك جيّدًا ما وصلا إليه، بالذات بعد حادثة تورينو. وكانتْ هي تعيش منفصلة عنه حتّى قبل ذلك.

– أهي مَنْ أخبرك بذلك؟ إذنْ، لماذا يعيشان معًا هنا؟

واصلنا الكلام حتّى جاءت گابريلّا، وقاطعتْنا. ولم أفلح في ثنيه عن رأيه وتخفيف حدّة عزمه. وقد أدركتْ گابريلّا أنّنا نتحدّث عنها، لأنها أقبلتْ علينا وتعلّقت بذراعَيْنا قائلةً:

– هيّا هيّا، أيّها الثرثاران. – وظلّت تراقبني طوال الوقت.

وذهبنا في رحلة صيد ذلك العصر، ورافقنا پولي أيضًا.

– لنتجاذب نحن أطراف الحديث، ونترك لهم الرمي. – قال له پيَرَتّو.

وبدا لي أن پولي يراقب زوجته وأوريسته بشيء من المتعة. وكان

يستوقفنا، پيرَتّو وأنا – بين حين وحين – ويقول لنا إنه سعيد بالتّعرّف إلينا، إذ من بين كلّ مَنْ تعرّف إليهم في الأعوام الأخيرة لم يفهمه أحدٌ مثلنا نحن. وكنتُ أفسح المجال لـ پيرَتّو لكي يبادله الكلام، حتّى شعرتُ بالملل، وفي لحظة ما أخذتُ منعطفًا، وتواريتُ وراء الأشجار. وكنتُ أعرف أن على گابريلّا وأوريسته النزول حتّى مزارع الكروم، من أجل العثور على دجاج الأدغال. وكنتُ أعرف جيّدًا أن گابريلّا لا تبحث عن دجاج الأدغال، ولا أوريسته، وپولي – أيضًا – يدرك ذلك. فقرّرتُ أن أعتزلهم، وأن أبحث عن ضفّة نهر أو غابة قصب، أو أجلس وأتأمّل الأفق. وبالفعل رحتُ أطوف وحيدًا، وأدخّن السجائر.

نعم، لم يكن من السهل عليّ أن أحرم نفسي من رؤية گابريلّا والاستماع لأحاديثها، وألّا أحلم بأن أكون مكان أوريسته. وتساءلتُ فيما إذا كان في نفسي، حينما تحدّثتُ إليه، بعض اللوم والحقد. وكان ما يخطر في الذهن من أنّ أحدنا، الآن، ينعم برفقتها في الغابات، وربّما يذهبان إلى الكوخ، وفي وضح النهار يمارسان ... هذا كلّه يذكّرني بنهر البو، وبالحوض في الأخدود. أين انتهى الحال برائحة الموت في الصيف؟ بأحاديثنا الكثيرة والحوارات التي تدور فيما بيننا؟

شقّ الفضاء صوت إطلاق النار. أرهفتُ السّمع، فبلغتْني أصوات بهيجة، ميّزت من بينها صوت پيرَتّو. تبع ذلك إطلاقة أخرى، وثبتُ وأخذتُ أجول ببصري في مزارع الكروم، بحثًا عن دخان البندقية. رأيتُهما في الأسفل، تظلّلهما أشجار الشرد القضباني. يا لهما من أحمقَيْن! قلتُ في نفسي، أينفقان وقتهما – حقًا – في اصطياد دجاج الأدغال؟! استلقيتُ على العشب، وأخذتُ أُنصِتُ إلى حفيف الأشياء، إلى

صدى تلك الإطلاقات النارية، إلى الحياة في تلّ الگريبّو، وقد أصبح بمقدوري – إذّاك – أن أتجوّل فيه كما يحلو لي، وأتنعّم بالسكينة التي تغمره.

عدنا إلى الڤيلاّ حين استطال ظلّ تلّ الگريبّو، حتّى غطّى السهل تحته. وكانوا قد اصطادوا ما يقارب عشرة العصافير، أروني إيّاها ملطّخة بدمها، في حقيبة الصيد، بين الخراطيش. وكانتْ گابريلاّ تتعلّق بذراعَي أوريسته وپيرَتّو؛ أمّا أنا، فتنظر إليّ بوجه عابس. سألوني أين كنتُ طوال الوقت.

– قد يطلقون عليكَ النار دون علمهم، في المرّة الأخرى، فكنْ حذرًا. – قال لي پولي ببرود وهدوء.

وحين كنّا جالسين إلى المائدة، تكلّمنا عن رحلة الصيد تلك، وعن دجاج الأدغال وعن رحلات الصيد المستقبلية المحتملة. وكان أوريسته يناقش الأمر بحماس وحزم، ولم أرَه في حال كهذه من قبل. في حين يلتمع الحماس ذاته في عينَي گابريلاّ، مع أنّها تتظاهر بالتّردّد وعدم الاكتراث.

– لقد أتى داڤيد وچينتو على معظم حيوانات التّلّ – قال أوريسته – فلماذا لا تستبدلون الحارس؟

– هذا أفضل – أجابه پولي – إن الصيد لعبة صبيان.

– ولكنّه، في ما مضى، كان لعبة السادة الإقطاعيّيْن – قال پيرَتّو – وهذا ما ينقص تلّ الگريبّو.

جلستْ گابريلاّ على المقعد، وانطوت على نفسها، تستمع لأحاديثنا،

ولم تطلب لعبة الورق ولا الموسيقى. كانتْ تدخّن مُنصِتة، تنقل نظرها بيننا، وقد بدتْ على وجهها ابتسامة خفيفة. قدّموا لنا النبيذ، فرفضتْه. وكنتُ أتطلّع إلى وجه پولي، وأتساءل كيف كانت ليالي الگريبّو، قبل مجيئنا، حينما كان هو وگابريلّا هنا فقط؟! ثمّ إنّنا سنغادر يومًا ما، وهما – أيضًا – سيغادران هذا المكان. كيف ستكون، إذنْ، هذه الڤيلّا في ليالي الشتاء؟ شعرتُ بغمٍّ وحزنٍ عميقَيْن، في حين كان يمرّ في خاطري أن صيف الگريبّو، وعشق أوريسته، وكلامنا وصمتنا، ونحن أنفسنا، هذا كله سيصبح من الماضي، عمّا قريب، وسينتهي إلى غير رجعة.

وثبتْ گابريلّا فجأة، تمطّتْ وهي تئنّ كطفلة، وقالت دون أن تنظر إلينا:

– أطفِئوا النور. يجب إطفاء النور من أجل رؤية الخفّاش، أليس كذلك، يا أوريسته؟

ثمّ جلسا عند سلّم الباب، وجلسنا نحن خلفهما. وكانتْ هناك نجوم يفوق عددها أصوات الجَدَاجِد. تكلّمنا عن النجوم وعن الفصول:

– ستظهر آخر نجمات الصباح هناك – قال أوريسته. وذهب برفقة گابريلّا بين الأشجار، تمشّيا جنبًا لجنب، يصل مسامعنا حفيف سيرهم على العشب والأوراق. وبدا غريبًا أن پولي يجلس – الآن – بجوارنا، بل بدا لي، للحظة، أنه الشخص الطبيعي الوحيد بيننا؛ فقد كنّا، نحن الاثنَيْن، غارقَيْن في الصمت والقلق. فجأة قال لنا پولي:

– تبدو كأنها الليلة التي كنّا ننظر فيها إلى تورينو من فوق التلال.

– ينقصها شيء واحد فقط – تمتمتُ.

– ينقصها الصراخ.

عندئذٍ سمعتُ پيرَتّو يأخذ نَفَسًا عميقًا، ثمّ أطلق صرخةً عالية، بطريقته الخاصّة، وتبسّم بخبث. سمعنا بعدها وقع أقدام في المنزل، وصرير أبواب تُفتَح، تلا ذلك صرخة أوريسته البعيدة التي وصلت خافتة، ردًّا على پيرَتّو.

أرجو ألّا تشعر گابريلّا بالبرد، فيصيبها المرض – قال پولي.

– ألا ترغبون باحتساء شيء ما؟ – سأل پيرَتّو.

-25-

– تعتريني رغبة كبيرة في الدخول إلى بارٍ ما، والمرور أمام السينما، والتجوال طوال الليل في تورينو. وأنتُم، ألا تشعرون بذلك؟ – قال پيرَتّو، بعد أن جلبنا قنّينة نبيذ، وعدنا للجلوس على السّلّم.

– عادة ما أتساءل فيما إذا كانتِ النساء واسعة الفهم – قال پولي – أتساءل إذا ما كنّ يعرفنَ مَنْ هو الرجل ... فالنساء إمّا أن يرتمينَ على الرجل أو يتهرّبنَ منه، لجعله يركض وراءهنّ. لم أرَ امرأة واحدة قادرة على البقاء وحيدة.

– في الساعة الواحدة ليلًا، في المدينة، بوسعكَ أن ترى الكثير النساء الوحيدات! – قال پيرَتّو.

– ذات يوم كنتُ أعتقد أنهنّ مثيرات للشهوة – قال پولي وهو يحدّق في الأرض – كنتُ أظنّهنّ قادرات على هذا، على الأقلّ. ولكنْ؛ كانتْ كلّها ترّهات، فالنساء سطحيات أبعد ممّا نتصوّر. ليس ثمّة امرأة في الدنيا تساوي غرامًا من المخدّرات.

– ألا يعتمد الأمر على الرجل أيضًا؟ – قلتُ.

– المشكلة أنّهنّ يفتقرنَ إلى المعنى العميق في الحياة – قال پولي – وإلى الحرّيّة أيضًا. لهذا السبب، فإنّهنّ عادة ما يبحثنَ عن

أحدهم، دون العثور عليه. والأكثر إثارة بينهنّ، هنّ اليائسات، اللواتي لا يُحسِنّ التّمتّع باللّذّات ... هؤلاء لا يرضيهنّ أي رجل. ثمّة نساء تلاحقهنّ اللعنة.

– يعشنَ في الأديرة؟ – قال پيَرَتّو.

– ما هذا الذي تقول! – أجاب پولي – بل في القطارات، وفي الفنادق، وفي أرجاء العالم كله. وحتّى في أفضل العائلات. أمّا النساء اللواتي أُودعنَ السجن أو الأديرة، فهنّ اللواتي عثرنَ على عشيقهنّ. فالإله الذي يصلّين من أجله، في الأديرة، أو العشيق الذي قتلنَه، فأُودعنَ السجن، لا يغادر قلوبهنّ لحظة واحدة. لذا فهنّ يعشنَ في سلام.

سمعتُ خشخشة على الحصى، فأصختُ السمع. تمنّيتُ أن يعود أوريسته وگابريلّا، وينتهي الأمر. ولكنْ؛ يبدو أن ذلك الضجيج لم يكن سوى سحلية ما، أو مخروط صنوبري سقط من الشجرة.

– آمل أنّ ما تقول لا ينسحب عليكَ. – قال پيَرَتّو – أم أنّكَ تنوي قتل أحدهم؟

أشعل پولي سيجارته، أضاءتِ النار وجهه وعينَيْه شبه المغمضَتَيْن، فبدا لي مندهشًا من السؤال. أجاب، بعد أن عاد الظلام:

– لستُ شديد التّعلّق بأحد ما، كي أفعل ذلك. وليس القتل من بين الملذّات التي تجذبني.

– إنه يترك إلى الآخرين خيار قتل أنفسهم – قلتُ لـ پيَرَتّو.

لفّنا الصمت لوقت طويل، ونحن نتأمّل النجوم. وكان ثمّة عطر في

التّلّ، يتصاعد من بين أشجار الصنوبر، كأنّه عطر الزهور. مرّت بذهني أزهار الياسمين التي كانت تغطّي الكوخ، ولعلّها كانت تبدو – ذات يوم – تحت ظلّ الغابة، كأنها عدد هائل من النجوم المتناثرة. تساءلتُ فيما إذا عاش أحدهم في ذلك الكوخ؟

– الحيوانات – قال پولي – إنها تُحسن فهم الإنسان. بوسعها البقاء في عزلتها، أفضل منّا ...

وشملنا الله بلطفه، وعادتْ گابريلّا، راكضةً، تصيح:

– لن تلحق بي.

وعاد أوريسته، أكثر هدوءًا من ذي قبل:

– ها هي زهرتكَ – قال لها.

– إن أوريسته يرى حتّى في الظلام، مثل القطط – قالتْ ضاحكة – وفي الظلام يرفع الكلفة بيننا أيضًا. اسمعوا، فلنرفع الكلفة فيما بيننا، ونُنهي الأمر.

دخلنا إلى الصالة، وأشعلنا الضوء، وقد عادت الأمور فيما بيننا إلى طبيعتها. توزّعنا على الصالة، وراحت گابريلّا تردّد الأغاني، بصوت خافت، وهي تبحث عن قرص الفونوغراف. جلستْ في المقعد تستمع إلى الأغاني، وكانتْ تزيّن شَعْرها زهرة دفلى. انبعثت أُغنيّة بلوز هادئة، بصوت امرأة حادّ، تمدّ الكلمات مدًّا. وقف أوريسته بصمت، بجوار الفونوغراف.

– يا لها من أُغنيّة جميلة! – قال پيَرّو – لم نسمعها من قبل.

تبسّمتْ گابريلّا، وهي تُنصت إلى الأُغنيّة.

– أهو أحد أقراص ماورا؟ – سأل پولي.

انقضت الأُمسيّة على هذه الحال، حتّى ذهبنا إلى النوم، كلٌّ في غرفته. ونمتُ نومًا سيّئًا وثقيلًا، تلك الليلة. أيقظني پيرَتّو، في الصباح التالي، وقد اقتحم عليّ الغرفة، وكانت الشمس عالية في الأفق.

– إن رأسي يؤلمني – قلتُ له.

– لستَ الوحيد مَنْ يعاني من ذلك – أجاب پيرَتّو – أنصِتْ إلى هؤلاء، لقد استعادوا نشاطهم بالكامل.

كان الفونوغراف يملأ البيت بالأُغنيّة التي استمعنا إليها مساء البارحة.

– لا بدّ أنّهم أُصيبوا بالجنون. أيستمعون إلى الأغاني في مثل هذه الساعة؟

– إنه أوريسته، هذه تحيّته الصباحية للجميلة النائمة – قال پيرَتّو – الآخرون ما زالوا نائمين.

غسلتُ وجهي بماء السطل، ونفختُ بقايا الماء عن شفَتَي.

– ألا تظنّ أنه يبالغ في هذا الشأن؟

– هذه كلّها حماقات – أجاب پيرَتّو – إن پولي هو مَنْ لا يُحسن التّصرّف. ما كنتُ أنتظر منه أن يتذمّر بهذا النحو. وظننتُه لا يقبل بالخيانة.

كنتُ أمشّط شَعْري، فتوقّفتُ:

– يبدو لي، إن لم أخطئ الفهم، أن پولي يشعر بالملل من النساء.

قال إنّهن يكتمنَ أنفاسه، وإنه يفضّلنا نحن عليهنّ، بل ويفضّل عليهنّ الحيوانات أيضًا.

– لا أظنّ هذا مطلقًا، ألا ترى أنه يقاسي الألم وهو يتحدّث عن النساء؟ إن هذا الأحمق عاشق ...

نزلنا إلى الطابق السفلي، وكانتِ الأُغنيّة قد انتهت. قالتْ لنا پينوتّا، وهي تمسح الغبار عن الأثاث، إن أوريسته قد غادر على متن العربة، بعدما وضع قرص الفونوغراف، قائلًا إنه سيعود مع انتصاف النهار.

– إنه يتقلّب على الجمر – قال پيَرّتّو – هذا ما كنّا نخشاه.

– لا بدّ أنّه سيعود بواسطة الدّرّاجة الهوائية.

ضحك پيَرّتّو من الأمر، وتطلّعتْ إليّ پينوتّا بنظرة خبيثة.

دارت في ذهني أفكار لم أقوَ على كتمها:

– مَنْ يدري؟! – قلتُ – أي تأثير سيكون للشّبّاك الذي تطلّ منه فتاته، عند محطّة القطار!

– سيكون له تأثير حسن على صحّته– أجاب پيَرّتّو وهو يفرك يَدَيْه، ثمّ قال لـ پينوتّا:

– هل جلبتِ لنا السجائر؟

ولمّا ضقتُ ذرعًا بألم الرأس، صعدتُ عن الساعة الحادية عشرة، وطرقتُ باب غرفة پولي، لكي أطلب منه قرص إسبرين.

– ادخل – صاح من وراء الباب.

كان مضطجعًا على السرير، تحت الناموسية، بثياب النوم الحمراء، في حين كانتْ گابريلّا، بسروالها القصير، تجلس قرب الشّبّاك.

– أرجو المعذرة – قلتُ.

نظرتْ إليّ گابريلّا وابتسامة ترتسم على وجهها.

– هذا يوم الزيارات – قالتْ.

كان ثمّة اضطراب ما في الغرفة، ولم أشعر بالارتياح لتعابير وجهَيْهما. نهضتْ گابريلّا نفسها لتجلب لي الدواء. سارتْ على بلاط الغرفة الحمراء اللامع، وأخذتْ تبحث في إحدى الخزانات:

– يجب أن يكون هنا، إن لم تخنّي الذاكرة – قالتْ، ولمحتُ انعكاس ابتسامتها في المرآة.

– أظنّ أن الأدوية في الحمّام – قال پولي.

ولجتْ گابريلّا – عندئذٍ – إلى الحمام.

– أرجو المعذرة – تمتمتُ – لقد تعذّر عليّ النوم ليلة البارحة.

كان پولي ينظر إليّ بوجه جادّ، ترتسم عليه علامات الضجر، فخامرني إحساس بأنه لا يراني. رفع يده فجأة، فانتبهتُ، حينها فقط، أنه كان يدخّن. عادتْ گابريلّا، وناولتْني علبة الدواء الأسطوانية.

– سننزل حالًا – قالتْ.

أمضيتُ الصباح عند المغارة، وألم الرأس لم يفارقني. تساءلتُ

فيما إذا كان بوسع گابريلاّ أن ترى، من شرفة غرفتها، غابة القصب، حيث كنتُ أتشمّس. ومرّت في ذهني السّيّدة جوستينا، وأمّ أوريسته، وحاولتُ أن أتخيّل وقع ما يحدث في تلّ الگريبّو عليهما. على أنّي كنتُ هادئ البال ذلك الصباح، إذ بدا لي أنّنا وضعنا أيدينا على عقدة المشكلة، وأن ما زال هناك وقتًا لإصلاح الأمور. يا لأوريسته اللعين! قلتُ في نفسي، ألاِ يذكر أن هناك فتاة بانتظاره؟! يبدو أنّه مجبول على هذه التّصرّفات.

عدّتُ إلى البيت، ولم أجد أحدًا، فجلستُ تحت أشجار الصنوبر. مَنْ يدري إذا كان أوريسته قد عاد؟ وكان ثمّة دخان شفيف يغمر السهل، وينتشر بين الأشجار التي يتخلّلها الضوء. وكنتُ كلّما عدتُ من تجوالي في التّلّ، أظنُّ أنها المرّة الأخيرة. ولكنْ؛ ما دام پولي لا يطردنا، فهذا يعني أنّه ما زال يحتمل وجودنا. لو أنّ پيَرَتّو كان محقًّا فيما قاله، لكان پولي قد طردنا منذ زمن. وكان پولي كما هو، لم يطرأ عليه أيّ تغيير؛ لا بدّ أنه يحتمل أوريسته، لكي يحظى بوجود پيَرَتّو إلى جانبه، وربّما بوجودي أنا أيضًا، من أجل أن يُثرثر معنا. ولعلّه لم يطردنا لأنه يتكاسل عن القيام بذلك، وربّما لا يفعله تأدّبًا.

على أن أوريسته، لسوء الحظّ، كان قد عاد. پيَرَتّو هو مَنْ أخبرني بذلك:

– إنّهما يتشمّسان فوق السطح – قال بعفويّة، وكان پولي بجواره، وكأن لا شيء يعنيه. يبدو من وجهه أنه لم ينعم بنوم هانئ، ليلة البارحة، وكان يدخّن، فلمحتُ ارتجافةً في يده.

– يتشمّسان فوق السطح؟ – تمتمتُ. نظرا إليّ كَمَنْ ينظر إلى فضوليّ مزعج، وعادا إلى نقاشهما عن الله.

عند الغداء، حين كنّا جالسين إلى المائدة، أخذ پولي يتذمّر من أنّ أحدنا شغّل الموسيقى في الساعة السابعة صباحًا. ثمّ تشاجر مع گابريلّا، لأنها أيقظتْه مبكّرًا. قال بغيظ:

– لكلّ شيء وقته.

تطلّعتْ إليه گابريلّا بنظرة شرسة، ولكنّ أوريسته عبّر عن أسفه مازحًا، واعترف بأنه هو المذنب. لاقى اعترافه صمت الجميع، ونظرة حادّة من گابريلّا. كانتْ بالفعل غاضبة.

– يإلهي، كيف لي العيش بين المجانين والصبيان؟! – قالت بنبرة خبيثة مشمئزّة.

تضرّج وجه أوريسته غضبًا، رمى منديل المائدة، وخرج تحت أشجار الصنوبر.

-26-

أمضينا عصر ذلك اليوم الثقيل في صمت، وقد أجهض غيابُ أوريسته مشروع رحلة الصيد. واعتزلتْنا گابريلّا، وراحتْ تكتب الرسائل. قام پيرَتّو وقال:

– يا له من أحمق! – ثمّ صعد إلى غرفته، ليخلد إلى النوم.

الشخص الوحيد الذي بدا لي غير مكترث كان پولي، وقد بقي جالسًا في الصالة يتصفّح بعض المجلات، وبجواره قنّينة الكونياك. ولمّا رآني أمرّ أمام الشّبّاك، كروح هائمة، ناداني، وطلب منّي أن أشاركه الشرب، وأن أنادي پيرَتّو، لينضمّ إلينا. خطوتُ إلى الوراء قليلًا، ثمّ صرختُ أنادي پيرَتّو، وغادرتُ. نزلتُ أتمشّى حتّى بلغتُ أشجار الشرد القضباني، ثمّ جاوزتُها، ولم أفعل ذلك من قبل. وجدتني في طريق ضيّقة ذات تربة حمراء، يتناثر فيها روث الثيران، ويُحلّق فوقها سرب من الفراشات. شدّتني الرائحة المنبعثة الشبيهة برائحة الحظائر والممزوجة بعطر أزهار النفل الدافئ، وكأنّها تنبّهني بأن العالم لا ينتهي عند تلّ الگريبّو. استجمعتُ ما اختزنتُه من الحنق الذي اعتراني في الأيّام السابقة، وقرّرتُ أن أبلغ الجميع، في ذلك المساء، بخبر عودتي إلى تورينو.

وحين كنتُ أصعد إلى القمّة، رفعتُ رأسي لأُشبع نظري، للمرّة الأخيرة، من ذلك التّلّ. ولم أرَ، وأنا في الأسفل، سوى أشجار الصنوبر وصخور

السفح البارزة التي تكسوها الأدغال الشوكية. كان تلّ الگريبّو بالفعل أشبه بجزيرة وحشيّةٍ وعديمة الفائدة. وددتُ – في تلك اللحظة – أن أكون بعيدًا عن هذا المكان، وأن أستعيد هذه الذكريات، وأنا في غمرة حياتي المعتادة. على أي حال، فقد تشبّع دمي بذلك التّلّ.

التقيتُ بالعجوز روكّو، وهو ينزل على مهل. أخبرني بأنهم يسألون عنّي، هناك في الأعلى.

– مَنْ يسأل عنّي؟

قال إن الأربعة جميعهم يسألون عنّي، وإنهم جالسون تحت أشجار الصنوبر، يحتسون الشاي بهدوء.

– الطبيب معهم أيضًا؟ – سألتُ. فقال إن الطبيب يجالسهم أيضًا.

يا لهم من مجانين! قلتُ في نفسي. بلغتُ القمّة خفيةً. صرختْ گابريلّا ما إن وقع نظرها عليّ، وكانتْ ترتدي تنّورةً وردية. قالتْ يجب أن لا أخونها وأعتزل الجميع، كما فعلتُ البارحة في أثناء رحلة الصيد. رفعتُ كتفي، ورحتُ أحتسي الشاي. أخذ أوريسته يشرح بعض حيل الصيد، وكأنّ شيئًا لم يكن، وكان يسند البندقية إلى فخذه. نهضنا بعد ذلك، وذهبنا في رحلة الصيد.

نزلنا، هذه المرّة، كمجموعة واحدة. ضغطّتُ على مرفق پيَرَنّو، وحدجتُه بنظرة استفهام. هزّ كتفَيْه، ورفع رأسه إلى السماء.

– ألم يكونا على خصام؟ – همستُ.

– لقد ذهبتْ لاسترضائه في غرفته – أجابني.

سرتُ جنب أوريسته، وسألتُه عن الأرنب البرّيّ الذي ينوي اصطياده. ثمّ تكلّم پولي عن شيءٍ ما، فالتفت أوريسته، نظرتْ إليّ گابريلّا – في تلك اللحظة – نظرةً خاطفةً، وكشّرتْ. تركنا الطريق، وانغمسنا في الأحراش، ووجدتُني جنبها، تفصل بيننا وبين الآخرين بعض الشجيرات. تسارعتْ دقّات قلبي حين همستُ لها:

– أتسمحين لي بالحديثِ إليكِ؟

– عذرًا؟ – قالتْ ضاحكة.

– لا يُفترض أن تسير الأمور على هذا الحال، يا گابريلّا – قلتُ لها – أريد أن أتحدّث معكِ عن أوريسته.

توقّفنا لحظة قبالة بعض، نظرتُ في عينَيْها من تلك المسافة القليلة التي تفصل بيننا. كانتْ ملامحها جادّة، مع ذلك فهي لا تكفّ عن الضحك.

– إن أوريسته يُتلف أعصابي – تمتمتْ – إنه فتى سيّئ.

تطلّعتُ إليها بنظرة مشحونة بالمعاني، فهزّت كتفَيْها، وتنحّت جانبًا. واصلتْ حديثها بنحو جادّ وقاسٍ:

– تحدَّثْ إليه أنتَ أيضًا، إذا كان يصغي إليكَ، أرى أنّ صداقة حميمة تجمعكما. قل له أن يكفّ عن نزواته. وليعلم أن أمثالكم لا يثيرون خشيتي.

كنّا نسير بين الشجيرات وجذوع الأشجار الباسقة، وخلفنا بمسافة قصيرة صخب خطى الآخرين. أزاحتْ گابريلّا بعض الأغصان عن طريقها، ثمّ أخذتْني من مرفقي، وهمست:

– أنتَ لا تعرف كم أكنّ له من الودّ ... لا أحد يعرف ذلك. إنه فتى جادّ ومرح، ولا يزال في عنفوان الشباب ... الويل لكَ إن أخبرتَهُ بما سمعتَ ... ولكنْ؛ يجب أن يُطِعْني ويكفّ عن نزواته الصبيانية.

خرجنا إلى الشمس، والتقينا بالآخرين. تحرّك شيء ما فوق رأسي، ثمّ دوتْ إطلاقة نار. سمعت پيرَتّو يصرخ، وكذلك گابريلّا، كنّا نصرخ جميعًا. كان أوريسته قد أطلق النار على إوزّة حلّقت فوق رؤوسنا. إنها من نوع البطّ البرّيّ، قال لنا أوريسته، على أنه لم يصبها.

– يا لها من طريقة صيد! لقد أطلقتَ الرصاصة بمستوى رؤوسنا – قالتْ گابريلّا – كدتَ تقتل أحدنا.

وكان أوريسته يضحك مبتهجًا.

– إنها ليستْ إلا خُردق – قال – إذا أردتِ قتل أحدهم، فيجب أن تسدّدي الضربة من مسافة بضع سنتمترات.

– ناولني البندقية – قالتْ – أريد أن أطلق النار.

وقف پولي على أطراف المنطقة الجرداء، وكأنه لا يريد المشاركة في ما يجري. انتظرنا مرور طائر ما، وكانتْ گابريلّا تحمل البندقية وهي على أهبة الاستعداد. وكان أوريسته يتطلّع إليها، ثمّ إلى الأفق، وعليه علامات القلق والانتشاء في آن. طال انتظارنا، ولم يمرّ طائر من هناك، فاقترح علينا پولي أن ننتقل إلى مكان آخر، أو أن نذهب صوب الكوخ.

في المساء جلسنا إلى المائدة، نضحك من قصّة البطّ البرّيّ.

– أظنّ أنّنا بحاجة لكلب صيد – قال أوريسته.

– بل نحتاج إلى صيّاد ماهر – قال پيرَتّو. وكانوا يتحدّثون بحماس، وأفواههم مليئة بالطعام.

– أراكَ لم تفقد رغبتكَ في تناول الطعام – قلتُ لأوريسته.

– ولمَ لا يشعر بالجوع – قال پولي – إنّه صيّاد.

– وهو بحاجة لأن يكبر – أضاف پيرَتّو.

– لماذا تتندّرون على أوريسته؟ – صاحتْ گابريلّا – اتركوه وشأنه، إنه صفيّي.

نظر إلينا أوريسته، ما بين مضطرب وجذلان.

– كنْ حذرًا – قال له پولي – إن گابريلّا امرأة. لا بدّ أنّكَ أدركتَ ذلك؟ – كرّر بخفّة وسخرية.

– ليس الأمر على هذه الدرجة من الصعوبة – قالتْ هي ضاحكة – فليس هناك امرأة غيري.

– إنّكِ المرأة الوحيدة – قال پولي، ثمّ غمز بعينه، وتبسّم.

بدا أنّ پيرَتّو يدرك اللعبة، ويستمتع بها. ورأيتُ أوريسته يحني رأسه على الطبق، ويأكل بصمت. أحسستُ أنه يحاول الاختباء عن الأعين. نظرتْ إليه گابريلّا لبعض وقت، وعلى شفَتَيْها تلك الابتسامة التي تُثير حنقي.

كم من الأيّام توجّهتْ گابريلّا بتلك الابتسامة لأوريسته؟ كانتْ تبتسم لي أنا أيضًا، بل وحتّى لـ پولي. بدا أنّنا نعيش الأيّام الأولى لوصولنا إلى

تلّ الگريبّو. كانتْ هي وأوريسته يختفيان عن الأنظار، يذهبان فوق السطح أو في الغابات. وكأنّهما يمارسان لعبةً ما، ولم تكن ثمّة ضرورة لاختبائهما. أظنّ أنه كان بمقدورهما أن يلتقيا ويتحدّثا بحضورنا، وأمام عينَي پولي؛ وكنتُ لا أستبعد ذلك من شخص على شاكلة گابريلّا. أحيانًا يخطر في ذهني أنّها تسخر منّا، أو أنّها تتّخذ من أوريسته أداة للتنفيس عن غضبها منّا. وحين كنّا نجلس إلى المائدة، في المساء، كانتْ تبدو على ملامح أوريسته الدهشة، وغالبًا ما يبحلق في الفراغ. ولم نفلح، پيرَتّو وأنا، في أن نعيده إلى رشده، حتّى عندما نذكّره بوجود پولي. على أي حال، لم تكن ثمّة حاجة لذلك، فالمسألة بالنسبة إلى گابريلّا لا تعدو كونها لعبة لقضاء الوقت. أخبرتُه بذلك – ذات مساء – وقد رأيتُه مكفهرّ الوجه، فهزّ رأسه وكأنه يقول "وما أدراكَ أنتَ؟!".

كانا يتخاصمان – بين حين وحين – بالصمت أو بالنظرات المتبادلة. ويحدث في بعض الأصباح، حينما يتأخّر پولي في النزول من غرفته، وتضايق گابريلّا ملاحقة أوريسته لها، أينما اتّجهتْ، فإنها تطلب منه أن يشاغلنا في الحديث، أو ترسله لقطف الزهور، أو لمرافقة پينوتّا عند ذهابها إلى السوق.

– ابتعدْ من هنا، أيّها الصبي – تصرخ به. كانتْ تقول له ذلك بامتعاض، وابتسامة خاطفة تلوح على وجهها، وهي تتنقّل بين الغرف. يخرج أوريسته – عندئذٍ – ويجلس تحت أشجار الصنوبر، وقد تعكّر مزاجه. ثمّ ينزل پولي، وينزل پيرَتّو، فتناديه گابريلّا بنبرة حادّة، تريد منه أن ينضمّ إلينا، تذهب إليه، وتشبك ذراعها بذراعه، فينصاع لها أوريسته، تحت نظرات پولي الساخرة.

-27-

– إن بقعة أشجار الصنوبر هذه لا تُعجبني كثيرًا – قال پيرَتّو، ذات مساء، وهو يتمشّى مع پولي بين جذوع الأشجار – فهي ليستْ برّيّة ومُوحِشة بما فيه الكفاية. إذ لم أرَ فيها الضفادع أو الأفاعي.

– ماذا دهاكَ؟ – قلتُ له.

– أراهن أنّكَ لا تشعر بالرضا في هذا المكان – قال لي وكشّر بخبث – وأنّكَ تفضّل الحوض في الأخدود. فليس بوسعكَ أن تتشمّس عاريًا هنا، إنها أقرب إلى الحياة المدينية.

– لا يبدو لي كذلك – قال پولي – فنحن نعيش حياة الريفيّيْن.

خرجتْ إلينا گابريلّا – فجأة – من بين الأشجار، وحدجتْنا بنظرة ارتياب.

– أتحوكون مؤامرةً ما؟ – سألتْ.

– حبّذا لو كان الأمر كذلك.– أجاب پيرَتّو – إن پولي يظنّ أنّنا نعيش حياة الريفيّيْن. أمّا أنا، فيبدو لي أنّنا نأكل ونشرب كما الحيوانات، أو لنقل كما الأسياد.

– كما الأسياد؟ – قالتْ گابريلّا مقطّبة الحاجبَيْن.

ضحك بيرَتّو في وجهها، وقال:

– يا للأفكار الغريبة التي تخطر في أذهان الناس! أتراكم تأكلون من عرق جبينكم؟

قال پولي:

– إذا أردتَ أن تتشمّس عاريًا، فبوسعكَ فعل ذلك.

– مستحيل – قال بيرَتّو – إن الحياة هنا مدنية جدًّا.

– ترغبون بالتشمّس عراة؟ – قالتْ گابريلّا – ولمَ لا؟ ولكنّ الريفيّيْن لا يقومون بمثل هذه الأشياء.

تطلّع إليّ بيرَتّو، وقال:

– أسمعتَها؟ إنّ السّيّدة تشارككَ الأفكار ذاتها.

– لا تنادني سيّدة!

– المسألة أن التّشمّس عراة، كما تفعل الحيوانات، أمرٌ غير ممكن – قال بيرَتّو بعناد – أتساءل لماذا؟! ...

ارتسمتْ على وجه گابريلّا ابتسامة خفيفة.

– أرجو أن تفهموا ما أعني – قال بيرَتّو – إن العيش عراة لا يعني ممارسة لعبة ما.

ظهر أوريسته من بين الشجيرات، وعلى وجهه علامات الاستياء.

– أعتقد أنّنا نعيش عراة دون أن ندرك ذلك. – قال پولي – إن جوهر الحياة هو الضعف والخطيئة. والضعف هو العريّ. إنه أشبه بشعور الإنسان حينما يكون لديه جرح نازف ... النساء خير مَنْ يدرك ذلك، حينما ينزفنَ الدماء.

– إذنْ، لا بدّ أنّ إلهكَ عارٍ – قال پيَرَتّو – إذا كنتَ قد خُلقتَ على صورته، فهو عارٍ مثلكَ.

جلسنا إلى المائدة في جوّ من الارتباك، ولم يجرؤ حتّى پيَرَتّو على المزاح، ذلك المساء. بدا لي أوريسته الشخص الأنقى سريرة بيننا، وكان ينظر إلى گابريلّا بحزنٍ عميق. شيء ما من نقاشنا تحت أشجار الصنوبر ظلّ يخيّم على الأجواء، شيء جعلنا نشعر بالحياء. انتبهتُ – فجأة – أن پولي وگابريلّا يتبادلان نظرات مشحونة بالمعاني، نظرات حادّة وحقيقية، ملؤها القلق. اعتراني شعور بالضجر، ورغبة في البقاء وحيدًا. على أن پيَرَتّو سبقني في الكلام في تلك اللحظة.

– أظنّ أنّ إقامتنا الممتعة على تلّ الگريبّو تشارف على النهاية – قال بنبرة قاطعة – ما رأيكَ، يا أوريسته؟

رفع أوريسته رأسه، لمحنا ثمّة رقّة تغشي عينَيْه، إلا أنّنا لم نبتسم له. ولم يعترض پولي أو گابريلّا على الأمر، وبدا جليًّا أن هناك خطبًا ما. في تلك اللحظة، خطرتْ على بالي روزالبا.

– أيّها الصّيّادون، لقد انتهى موسم رحلات الصيد – صاح پيَرَتّو.

تبسّم أوريسته بخجل.

– لا يزال هناك موسم الطيور العائدة – قالتْ گابريلّا فجأة، بحماس غير متوقّع – مثل طير ديك الغاب، والحجل الرمادي. – ثمّ كشّرتْ وأضافتْ – ولكنْ؛ عليكم أوّلًا أن تنتهوا من موسم حصاد العنب.

تحدّثنا عن هذا الموضوع، وكان أشبه بشوكة في حلقوم أوريسته. وسبق أن اتّفقنا مع والده على العودة لتقديم المساعدة في مزرعة سان گراتو. وكنّا ناقشنا الأمر في حينها، وما إن عدنا على ذكر الموضوع حتّى اكفهرّ وجه أوريسته.

– للأسف أن لا أحد يحصد مزارع الگريبّو سوى طيور السمنة المغرّدة – قال پولي، ورمقه بنظرة سريعة – اطمئنّ، يا أوريسته، عدْ أنتَ إلى مزارعكم، وسنكون نحن هنا في انتظارك.

قد يبدو الأمر غريبًا، ولكنّ أجواء الصمت والحرج التي خيّمت علينا وقت العشاء أصبحتْ كغشاوة تغطّي الخبث الذي في النظرات. فجأة، وإذا بمزمار سيّارة يكسر حاجز الصمت، ويصكّ أسماعنا. ثمّ فاجأنا ضياء يخترق الجدران الزجاجية، فوثبتْ گابريلّا، بحيوية، وهتفتْ:

– ها هم قد عادوا.

بلغ مسامعنا من الخارج لغط وصراخ. وكان صوت مزمار السّيّارة شبيه بصيحة أوريسته الليلية. نهض پولي بتثاقل وعليه علامات الضجر، في حين ركضتْ پينوتّا قاطعةً الصالة، ولاذتْ بالمطبخ. لحظات، ولم يبقَ في الصالة سواي وأوريسته، وأذكر أنّني أخذتُ أسكب النبيذ وأشرب، ولا أدري لماذا، في حين كانت تتعالى الضحكات واللغط في الخارج. وضعتُ يدي على كتف أوريسته، وقلتُ له:

– تحلَّ بالشجاعة.

بدأت تلك الليلة، والتي كانت آخر ليلة لنا هناك. كانتِ السماء غزيرة النجوم، ونسائم الهواء تعبق برائحة الصنوبر والثمار الناضجة. أضفتْ أضواء السّيّارَتَيْن سحرًا على الساحة المفروشة بالحصى، وعلى جذوع الأشجار السوداء وعلى فضاء السهل. أقبل نحوي شباب ميلانو من الجهات كلّها، وكانتْ گابريلّا تقدِّم لي، بصورة عشوائية، كلّ مَنْ دنا منّي. صافحتهم وأضواء السّيّارَتَيْن تمنعني من أن أتبيّن وجوههم، وكان بجواري پيَرَنّو، يمدّ يده لمصافحتهم هو أيضًا. وحينما انتهينا من فوضى التعارف تلك، ودخلنا الصالة المضاءة، لم أكنْ أعرف أيًّا منهم.

عمّتِ الفوضى المكان، ولمحتُ پينوتّا تضع قبّعة الطاهي، ولم تكن تضع سوى المريلة وهي تقوم على خدمتنا. فتح أحدهم خزانة الليكير، وتوزّع بعضهم على المقاعد الوثيرة، يمزحون ويصرخون، وبدأ بعضهم الآخر بتناول الطعام أو احتساء النبيذ. أُنزلتْ من السّيّارات سلالٌ مليئة بأشياء مختلفة، إضافة إلى بعض قناني النبيذ وصواني الحلوى؛ وبدأتْ تتطاير سدّادات قناني النبيذ. استطعتُ أن أحصي منهم ثلاث شابّاتٍ وخمسة شبّان.

كانتِ الشّابّات يرتدينَ ثياب سفر قصيرة، وشالات حول العنق؛ فكانتْ تمور أمامي ألوان زاهية وسيقان عارية، على أن ليس بينهنّ مَنْ تضاهي جمال گابريلّا. أخذوا يلغطون، ويطلب بعضهم ولاعةً، ليُشعل سيجارته، وكانوا يتطلّعون إلى وجوهنا بلا مواربة. وكان بينهم شابٌّ نحيفٌ بوجهٍ ممسوس، يرتدي سترةً غريبة وقصيرة، تنتهي عند الخصر. كان رفاقه ينادونه چيلّي، وقد ألقى نظرة ساخرةً على پينوتّا، لحظة دخوله،

ضحك منها الجميع. واحتضن شابّ آخر گابريلّا، وارتمى وإيّاها على أحد المقاعد. وكان بعضهم يتطلّع إلى تلك الفوضى، وهو يقف جانبًا بنحو مهذّب، ويلقي التحايا على الحاضرين.

في خضمّ لحظة اللقاء تلك، تعذّر علينا الحديث في شيء. وكان الحديث عن ميلانو، والأسئلة والأجوبة، واللهفة المشتركة قد جذبتْ پولي – أيضًا – واحتفى بالفتيات، وهو ينقل بصره بينهنّ، يغمز لبعضهنّ، ويجيب بلهفة عن استفساراتهنّ. وكانتْ گابريلّا، بوجهها البهيج، تتندّر وتُمازح مَنْ هم بجوارها. وكان الموضوع الرئيس الذي يشغل الجميع، في تلك الفوضى، هو انتقاد حياة العزلة التي اتّخذها پولي وگابريلّا، والأنانية اللا أخلاقية في ممارسة الحبّ في الأرياف، وبحثهما المقصود عن الحياة المُملّة. وكان ثمّة شابّ يرتدي بذلة فاتحة اللون، ذو وجه ساخرٍ حادّ الملامح – عرفتُ فيما بعد أنّ اسمه دودو، يناهز سنّه الأربعين – انتهز لحظة صمت، وأعلن أمام الجميع، وبنبرةٍ جافّة، أن على الرجل خوض مغامرات العشق مع زوجات الآخرين، لا مع زوجته.

وكان پيرَتّو يتفحّص الأجواء، مثل كلب صيد. انتبهتُ – فجأة – أن أوريسته اختفى، واختفتْ گابريلّا أيضًا. ولكنْ؛ سرعان ما رأيتُهما يظهران وهما يحملان طاولةً صغيرة. ثمّ دخلتْ پينوتّا، وعيناها ثابتة نحو الأرض، تحمل قطع الثلج. صفّقتْ گابريلّا ضاحكة – وانتبهتُ، حينها، أنها غيّرت ثيابها، ووضعتْ فستانًا أزرق – وطلبتْ ممّنْ يرغب بالاغتسال الذهاب إلى الطابق العلوي. انفضّ الجمع، ولم يبقَ في الصالة ذات الجدران الزجاجيّة سوى أربعة أو خمسة أشخاص، وشابّة نحيفة تجلس بجوار پولي.

-28-

قالتِ الشّابّة النحيفة لـ پولي:

– أريدكَ أن تخبرني – الآن – عن سبب مكوثكَ في هذا المكان.

– ألا تعرفين السبب؟ – أجاب پولي – إن أبي يحتفظ بي سجينًا هنا.

كشّرتِ الشّابّة النحيفة، فانتبهتُ أنها لم تكن في عمر الشباب كما كنتُ أتصوّر. مدّتْ كأسها وقالتْ:

– اسقوني.

كان صوتها جافًّا وحادًّا، والخواتم تغطّي أصابعها.

– أبوكَ أم گابريلّا؟ – قالتْ وتفجّرت ضاحكة.

– لا فرق في الأمر – قال شابٌّ منفوش الشَّعْر، يجلس على ذراع المقعد – ففي الحالَتَيْن هي التزامات عائلية.

نطق پيرَتّو – عندئذٍ – قائلًا:

– لا تكفي أُمسيّة واحدة من أجل اكتشاف السّرّ الخفي.

لم يلتفت أحد إلى ما قاله. تكلّم الشّابّ مجدّدًا:

– لقد جئنا من أجل زرع البهجة في نفسكَ. قلنا: ربمّا لا يشرب

كفايةً وحده، فجئنا لنجعلكَ تربح مسابقة الشرب. لقد راهن دودو على أنّكَ لا تعرف موضة الرقص في ميلانو هذا العام.

– هذه – قال پولي بنبرة جادّة، ثمّ نهض وأخذ يرقص بإيقاع.

– كلا – صرخوا بصوت واحد، وتفجّروا ضاحكين منه. سعلتِ النحيفة في كأسها الذي رنّ لاصطدامه بأسنانها.

عاد دودو إلى الصالة، بوجهه الساخر وأسنانه الذهبية.

– إنّكَ متأخّر عن الموضة بما يقارب العام – قال الشّابّ، ما إن سنحتْ له الفرصة بالكلام.

– بل لا يزيد عن ثلاثة أشهر – قال دودو ببرود، كما لو كان هو مَنْ بدأ الحوار – إن پولي يجهل التّطوّرات التي استجدّتْ في الأشهر الثلاثة الأخيرة فقط.

كان دودو رجلاً برونزي البشرة، بعينَيْن لا تعكسان أي انفعالات، يتكلّم ببرود وبثقة عالية بالنفس. مرّ بذهني ضجر پولي عند وصولهم، ثمّ فكّرتُ بالنظرات التي كنّا نتبادلها بصمت، قبل وصول هؤلاء. أمّا الآن، فالفوضى تعمّ المكان، والشباب يظهرون فجأة من كل مكان، ينزلون من السّلّم، وتطلّ عليّ مجدّدًا تلك الوجوه المهذّبة. وكان آخر مَنْ عاد إلى الصالة هي گابريلّا، حين بدأ الفونوغراف يطلق الأغاني.

كنتُ واقفًا، أتّكئ على أحد الرفوف، تجتاحني رغبة في الاختفاء من ذلك المكان، والفرار إلى الغابات. پيرَتّو، المقدام في مثل هذه الحالات،

أخذ يتجاذب أطراف الحديث مع المجموعة. لم يبدأ أيّ منهم بالرقص بعد. كان چيلّي النحيف منفردًا، يستلذّ بافتراس الساندويتشات، وتفّاحة آدم تعلو وتهبط على رقبته. أوريسته اختفى من جديد، فصرتُ أُحدِّق بگابريلّا نيابةً عنه. كانتْ تتحدّث إلى پولي، والشّابّ المنفوش الشَّعْر يجذبها من معصمها. وكانتْ هي تضحك وتتكلّم، وتستسلم لجذبته. وقد بان سحر جمالها أكثر في ذلك الفستان. تساءلتُ كم من هؤلاء الشباب مرّر يده عليها، وكم منهم نال منها ما ناله أوريسته!

ولم أشعر بالانجذاب لأيّ من الشّابّات، إذ لم يكنّ سوى نسخ أخرى عن روزالبا. كنّ يجلسنَ، شقراوات وسمراوات، على المقاعد، يضحكنَ ببرود، ويتبادلنَ الأنخاب. المرأة النحيفة، ذات الخواتم الكثيرة، والتي كانتْ أشدّهنّ تزيّنًا، لم تترك مكانها. كانتْ تستمع لأحاديث الرجال، بوجهها الصغير البريء، المشوّه بالماكياج. كانتْ تجلس، بتحشّم، على الأريكة، تحت ساقَيْها المطويَّتَيْن.

فجأة، أخذ الكل يرقص. كان صوت المطربة الحادّ ذاته يردّد أُغنيّة البلوز. ما زال أوريسته غائبًا عن المكان، في حين گابريلّا تراقص دودو، والذي ما زال يحتفظ ببرود ملامحه، وإن كان يرقص. بدا لي جليًّا أنه الرجل المناسب لها؛ كان ساخرًا، خفيف الشَّعْر عند الصدغَيْن، يهمس في أذنها شيئًا ما، فتنفرج شفتاها، القريبتان من خدّه، عن ضحكة طويلة.

قطعتُ بضع خطوات، لأملأ كأسي بالشراب، فوجدتُ پيرَتّو يمضغ الثلج.

– لمَ لا تجلس؟ – سألتُه. حدجني بنظرة ضجر.

اخترق الشّابّ چيلّي الراقصين، ودنا منّا. كنتُ أتوقّع أن يسخر منّا، كأن ينظر إلينا باشمئزاز، أو يردّد – مازحًا – صياح الديك، وإذا به يمدّ يده للمصافحة:

– سعيد بمعرفتكما – قال بصوت قبيح – أجواء لطيفة. – وغمز بعينه.

– أهذه المرّة الأولى التي تأتي فيها إلى هنا؟ – سأله پيرَتّو.

– لا أعرف بالضبط أين نحن الآن – قال بذات الصوت القبيح – كنّا في النادي، نلعب لعبة البوكر، فمرّ بنا الأصدقاء، وجاؤوا بنا إلى هنا. كنتُ أحسبُ أننا نقصد الكازينو، ولكنّي رأيتُ صديقتي مارا، فقالت لي "سنذهب إلى پولي". وكنتُ قد نسيتُ پولي. قالوا لي إنه أُصيب بالجنون. – فرك چيلّي عينَيْه كالمجنون – ماذا عن الخادمة؟ – همس لنا – تلك، ذات الشَّعْر الأحمر. أهي سهلة الأكل؟

– مثل الفراولة – قال پيرَتّو.

– ماذا يُقال عن پولي في ميلانو؟ – سألتُه.

– ومَنْ يدري أنه ما زال على قيد الحياة!! كلّ ما أردناه من زيارتنا هذه هو القيام بنزهة وقضاء بعض الوقت، لا غير.

التفت صوب الباب، بحركاتٍ تشبه حركات طائر. شدّ سترته على خصرَيْه، ثمّ ابتعد عنّا.

– أنيق وصادق – قلتُ لـ پيرَتّو.

هزّ بِيَرَتّو رأسه، ثمّ جال ببصره على الراقصين والجالسين إلى الطاولة.

– كلّهم صادقون – قال بنبرة قاطعة – يأكلون ويشربون ويتطوّحون، فيصدمون بعضًا. ماذا تنتظر منهم؟ أن يعلّموكَ كيف يفعلون ذلك؟

– أين هو أوريسته؟ – سألتُه.

– لو كنتَ من طبقتهم، لفعلتَ ما يفعلون تمامًا.

شربتُ قدح شراب آخر، ثمّ غادرتُ.

غمرني إحساس جميل عند خروجي من الصالة والوقوف على حافة المنحدر. اللغط البعيد والموسيقى الخافتة وراء ظهري عزلاني عن ذلك المحيط، فوجدتني أمام فضاء الأرياف الشاسع. شعرتُ وكأنّني أطفو بين النجوم.

عدتُ إلى الصالة، انفردتُ بگابريلّا في أحد الزوايا، وقلتُ لها:

– إن أوريسته ينتظركِ في الخارج.

– يا لهذا المجنون!

– لا أعرف مَنْ منكما أكثر جنونًا – قلتُ – على أي حال، فهو لا ينتظرني أنا.

ضحكتْ گابريلّا، ثمّ تركتْني وخرجتْ.

وكانتْ تتكوّن في الصالة – بين الحين والآخر – حلقة من الأشخاص، فيشاركهم بِيَرَتّو في أحاديثهم، يضحك ويمزح مع النساء. ولم تكن لدى

أيّ منهم الرغبة في أن تخرج المجموعة تحت أشجار الصنوبر، في حين ما زال الفونوغراف يصدح بالأغاني. والحقيقة، لم يكن من الصعب الاندماج مع هذا النوع من الأشخاص، إذ لا يرغب دودو ولا النساء إلا بالمتعة. يكفي أن يشاركهم أحد المتعة، هذا كل ما في الأمر، وما زال الصبح بعيد.

على أن أكثر مَنْ واصل الرقص هو پولي، وبرفقته تلك المرأة النحيفة ذات الخواتم الكثيرة. مرّتْ لحظات صمت فيها الفونوغراف. (ولا أعرف كم مرّ من الوقت على خروج گابريلّا). توقّف پولي والمرأة النحيفة، وبقيا في عناق. واجتمع الآخرون في حلقة حول چيلّي، والذي كان راكعًا على السّجّادة، يئنّ أمام رسم لـ پولي مسندًا على الأرض. وكان پيرَتّو يتابع تلك المزحة، دون أن يشعر بالرضا.

وفي لحظة ما بدأ چيلّي يردّد الابتهالات. مارا، صديقة دودو الشقراء، مسحتْ عينَيْها الدامعتَيْن من شدّة الضحك، وهي تتوسّل إليه أن يكفّ عن ذلك. في حين كان الآخرون يهتفون لـ چيلّي. دنا منهم پولي مترنّحًا، وأخذ يضحك هو أيضًا.

لكنّ پيرَتّو قال إن علامات الإله الحقيقي هو جرح عميق في جنبه.

– ليخلع المتّهم ثيابه – صرخ پيرَتّو – ليُرينا الجرح.

تعالت بعض الضحكات هنا وهناك، ثمّ كفّ الجميع عن الضحك. دنتْ منّي المرأة النحيفة، وكانتْ بعيدة عن الحلقة، وسألتْني وهي تلتقط أنفاسها:

– ماذا حصل؟ ماذا يفعلون؟

شعرتُ بالخجل من النظر إلى پولي، بعد أن رأيتُ وجه المرأة النحيفة المتوهّج.

أحدهم وضع قرصًا في الفونوغراف، فعاد الأزواج إلى الرقص من جديد. وجدتني أحتسي الشراب مع دودو، والذي كان يتلفّت حوله بحثًا عن شخصٍ ما.

– إنّها غير موجودة – قلتُ له – أظنّها على وشك أن تعود.

رفع قدحه، وغمز بعينه، أومأتُ له بملامح جادّة، وأظنّ أنّنا فهمنا بعض.

كنتُ ثملًا للغاية، وساعد اللغط والضجيج على جعل الصالة ضبابية في نظري. رأيتُ پولي جالسًا في نهاية الصالة، وأحدهم يتحدّث إليه. كان هناك پيَرَتّو أيضًا، يبدو على ملامحه الهدوء، لكنّه ثملٌ هو الآخر. بدا لي شاحبًا، على أن كل شيء كان شاحبًا في نظري.

في تلك اللحظة دخل أوريسته وگابريلّا.

-29-

خرج الجميع، وانتشروا تحت أشجار الصنوبر، يثرثرون عن لعبة الملاحقة في أسفل التّلّ. كانوا يبحثون عن أحدٍ ما، أظنّهم يبحثون عن پولي والمرأة النحيفة. لا أغاني تصدح الآن من الفونوغراف. نهضتُ لأملأ قدحي بمشروب الجن. مرّ أوريسته بجواري، وربّت على كتفي. يبدو على قسماته الانشراح، ولا أدري كيف ذلك.

– أكلّ شيء على ما يرام؟

شَعْره منفوش هو أيضًا.

– لو أن هؤلاء الأوغاد يغادرون! – قال.

– وما قول گابريلّا؟

– تنتظر مغادرتهم على أحرّ من الجمر.

وكانتْ گابريلّا قد خرجتْ – في تلك الأثناء – مع دودو.

– جيّد – قلتُ له – عليكَ بالشرب إذنْ.

كان يدخل هواءٌ عذب من الشّبّاك، فيه شيء من البرد. (أصبح الضباب، في تلك الأيّام، يغطّي السهل صباح مساء). مرّتْ پينوتّا أمام شجيرات المغنوليا، تحمل صينية تنتشر عليها الأقداح، وإذا بأحدٍ ما

يجذبها إليه؛ كان چيلّي. دفعته بقوّة، فتساقطتِ الأقداح، ثمّ ولّت هاربة. مع ضجيج الأقداح المتساقطة علتِ الهتافات بين الأشجار "مرحى مرحى".

– أرأيتَ؟ – قلتُ لأوريسته – سيفعلون ما يحلو لهم، هذا المساء. أين پيرَتّو؟

– لو أنّهم يغادرون! – قال هو.

كنّا وحدنا في الصالة.

– بوسعكَ الليلة أن تخبرني بالحقيقة – همستُ له من وراء القدح – هل أمضيتَ الوقت معها على السطح؟ هل نجحتَ فيما ترمي إليه؟

تطلّع إليّ أوريسته بنظرة مكاشفة، ثمّ حرّك شفتَيْه. دنوتُ بأذني منه، لكنّه هزّ رأسه ضاحكًا، وغادر.

سمعتُ سعال أحدهم على السّلّم، ثمّ تلتْه أصوات مكتومة. وكان ذلك السّلّم يقود إلى غرف النوم، في الطابق العلوي. لعلّ أحدهم دخل غرفتي، قلتُ في نفسي. تمكّن منّي الفضول، فدنوتُ من الباب الذي يقود إلى السّلّم، لكنّي لم أرَ أحدًا. صعدّت السّلّم وأنا أُهيّئ وجهي لابتسامة عفوية. كانتِ الإنارة التي تضيء كلّ زاوية في المكان تعزّز الشعور بالوحدة. لم أجد أحدًا حتّى هناك. دخلتُ – عندئذٍ – إلى حجرتي، وأغلقتُ الباب خلفي، أشعلتُ الإنارة، فلم أجد أحدًا، أطفأتُها، وجلستُ أدخّن، في الظلام، عند النافذة. وكان يصل مسامعي صراخ ولغط وحفيف من تحت الأشجار. خطر في ذهني أنّ الگريبّو لم يعد أرضًا عذراء كذي قبل.

أثار انتباهي وقع أقدام في الممرّ، ولمّا خرجتُ من الغرفة، لمحتُ طرف الفستان الأزرق يرفرف عند السّلّم. أدركتُ گابريلّا عند منتصف السّلّم، نظرتْ إليّ بوجهٍ عبوس، ونزلنا معًا. قلتُ لها:

– أتشعرين بالتعب؟

فكان جوابها أن رفعتْ كتفَيْها. سمعتُ صراخ بعض النسوة، ثمّ ضحكة پيرَتّو المجلجلة.

– إنّهم يستمتعون بوقتهم – قلتُ.

جلستْ گابريلّا على درجات السّلّم، ثمّ أخذت يدي، وجذبتْني بقوّة.

– اجلسْ معي قليلًا – قالتْ لي بنبرة مَنْ يتواطأ على شيء ما.

– وماذا لو جاء أوريسته؟ – تمتمتُ.

– أتشعر بالحرج؟ – قالتْ باسمة – ما رأيكَ أن نشرب؟

– اسمعي – قلتُ لها – ماذا فعلتِ مع أوريسته؟

لم تجبْني بشيء، وما زالتْ ممسكةً بيدي. كنتُ أشعر بأنفاسها، وأشمّ عطرها. وضعتُ خدّي على خدّها، ثمّ قبّلتُها. أبعدتْني عن وجهها، لم تتفوّه بشيء، ولكنّها أبعدتْني عن وجهها، مع أنّي لم أقبّلها على شفَتَيْها. لم تجبْني بشيء، وكانتْ نبضات قلبي تتسارع بنحو جنوني، وقد شعرتْ هي بذلك.

– أرأيتَ، أيّها الأحمق؟ – قالتْ بنبرة جافّة – هذا كلّ ما فعلته مع أوريسته.

شعرتُ بالذّلّ والضيق، كنتُ أستمع إليها مطأطئ الرأس.

– إنّكم لا تزالون صبية – قالتْ – حتّى أوريسته، وصديقكما الآخر. ماذا ترومون؟ ألسنا أصدقاء؟ ثمّ ماذا بعد؟ هذا كلّ ما في الأمر. ستعودون هذا الشتاء إلى تورينو، سيعود أوريسته أيضًا. يجب أن تُفهِمَه ذلك، إن هناك فتاة بانتظاره، وعليه أن يتزوّجها. لا شأن لي بكلّ ما يحصل.

لاذتْ بالصمت، فتمتمتُ بعد لحظات:

– أتشعرين بالغَيْرة؟

– أوه، كفّوا عن اللهو، لا ينقصني سوى هذا.

– لعلّ پولي هو الذي يشعر بالغَيْرة؟

– لا تتفوّه بالحماقات، كلّ ما عليكَ فعله هو أن تقول لأوريسته إنّني لستُ حرّة التّصرّف بنفسي. أتخبره بذلك؟

– ماذا بكِ؟ هل ستذرفين الدمع؟

أجابتني بنبرةٍ متوتّر:

– أجل! أخبره أنّني بكيتُ. لا بدّ أنّه يدرك ما يعانيه پولي. إن كلّ ما أرجوه هو أن يستعيد پولي عافيته.

– لكنّ أوريسته يقول إنّ شأن پولي لا يعنيكَ، وإنّكما انفصلتُما عن بعض منذ زمن. أين كنتِ أنتِ، حينما كان پولي طريح الفراش، في المشفى؟

شعرتُ بالخجل ممّا قلتُ، في حين لاذت گابريلّا بالصمت. أخذ نبض قلبي يتسارع من جديد.

– اسمع – قالتْ لي – أتثق بي؟

التزمتُ الصمت.

– أتثق بي أم لا؟

أومأت لها بالإيجاب.

– إنّني أحبّ پولي. – همستْ – أيبدو لكَ الأمر غريبًا؟

– وماذا عنه، أيحبّكِ هو أيضًا؟

نهضتْ گابريلّا وقالتْ لي:

– فكِّرْ بالأمر. يجب أن تُخبرَ أوريسته بما قلتُه لكَ، بعد أن تغادروا هذا المكان، بل عليكَ أن تكرّر ذلك على مسامعه طوال الوقت ... واعلم أنّ لك مكانة كبيرة في قلبي.

ثمّ خرجتْ تتمشّى تحت الأشجار. شعرتُ بدوارٍ في رأسي. نهضتُ، تعتريني رغبة في أن أهبط، مهرولًا، من على تلّ الگريبّو، وأن أواصل السير حتّى صباح اليوم التالي، فأجد نفسي في ميلانو، أو لا أدري أين، كما كنتُ أفعل في ليالي تورينو، حينما تهيم روحي. على أن كلّ ما فعلتُه، في تلك اللحظة، هو أن عدتُ إلى الصالة، لأحتسي بعض الشراب.

نزل پولي السّلّم – في تلك الأثناء – واضعًا سترَتَيْن على كتفه، دون

أن يرتدي أيًّا منهما. كانتْ عيناه كجمرَتَيْن خابيتَيْن، أو غائرتَيْن تحت الرماد. وما شككتُ أنه سيثمل، ولكنْ، ليس إلى هذا الحدّ. طلب منّي أن أجالسه، وأن ندخّن معًا. طلب ذلك بصوت خفيض ونبرة ملحّة. سألتُه، بنحو مهذّب، إن كان يعرف هؤلاء الأصدقاء منذ زمن طويل. أدركتُ، في تلك اللحظة، أنّه لم يكن ثملاً، أو قل لم تكن الكحول هي ما جعله على تلك الحالة. كانتْ نظراته كتلك التي لمحتُها في عينَيْه ليلة التقينا على تلال تورينو.

– پولي – صرختُ به – أأنتَ على ما يرام؟

نظر إليّ من الأسفل إلى الأعلى، وهو يضغط بيَدَيْه على ذراعَي المقعد.

– بدأ الطقس يبرد – قال – لو أنّ الثلج ينزل، لتمكّن أوريسته من اصطياد شيء ما ...

– هل أنتَ غاضب من أوريسته؟

هزّ رأسه بالنفي، دون أن يبتسم.

– ليتكم تظلّون هنا على الدوام. ألم تستمتع هذا المساء؟ أم أنّكَ تنوي المغادرة؟

– سيغادر أصدقاؤكَ الذين قدِموا من ميلانو صباح الغد.

– إنّهم مُملّون – قال – وهم كبارٌ في السّنّ، ولا يُحسنون الكلام.

ارتعد فجأة وكأنه يكاد يتقيّأ، ثمّ زمّ شفَتَيْه. أطرق برأسه، ثمّ أكمل حديثه:

– أمرٌ لا يُعقَل! إن أقدمَ روح تسكن أعماقكَ هي روح الصبا. وأنا لا أكفّ عن الشعور بأنّي ما أزال صبيًّا. إنها أقدم عاداتنا.

أحد الحمقى في الخارج ضرب على مزمار إحدى السّيّارَتَيْن، فارتعد پولي لسماع ذلك الزعيق الحادّ.

– هذا صُور يوم الحساب – قال بوجه قاتم.

دخل دودو في تلك اللحظة، توقّف حال رؤيته لنا.

– يبدو أن چيلّي الحيوان قد خلع كلسون إحدى النساء – قال دودو – يقدّمه لكَ لتشمّه، ثمّ يقول "إذا عرفتَ لمَنْ هذا الكلسون، فالمرأة من نصيبكَ". إنّي أتساءل ...

كان پولي يحدّق إليه بنظراتٍ خامدة.

– هل أنتَ ثمل؟ – سأل دودو – أهو ثملٌ؟ – قال بوجهه الساخر. ثمّ فرك يَدَيْه، وتوجّه إلى الطاولة – أشعر بشيء من البرد. لا أعرف ماذا دها الفتيات – أفرغ قدح الشراب في جوفه، ثمّ أصدر فرقعة بلسانه – هل من أحد في الطابق العلوي؟ – كان پولي يتطلّع إليه بالنظرة ذاتها – أرأى أحدكما گابريلاّ؟

حينما غادر دودو، نطق پولي قائلاً:

– إن الصراخ بذلك النحو له أمر مثير. تبدو كأنها صرخة صادرة من قبو ما، من باطن الأرض، أو من أعماق الروح ... كم أستلطف أوريسته.

-30-

طلّ الفجر والجميع في الصالة؛ كلّ اثنَيْن أو ثلاثة في زاوية ما في المكان. چيلّي وشابّ آخر يغطّان في النوم. بعضهم يحدّق إلى الشّبّاك، وبعضهم الآخر يتجاذب أطراف الحديث بأصوات خفيضة. پيرَتّو ودودو ما زالا يحتسيان مشروب الغرابّا(*). وكانوا قد عادوا في مجموعات صغيرة، واحدة تلو الأخرى، من السّيّارَتَيْن، من الغابات، ومن سفح التّلّ. كانتْ پينوتّا تُعدّ لنا القهوة، بعد أن كنتُ قد أيقظتُها بطَرقات على باب غرفتها الصغير. تسلّل ضياء الصباح إلى الصالة، فأصبحت وجوههم البرونزية شاحبة، ثمّ متورّدة، في حين كانتِ الإنارة الكهربائية تخبو. أطفأنا الإنارة، ونظرنا من حولنا بدهشة. كانتِ الفتيات أوّل مَنْ عاد إليهنّ النشاط والحيوية.

غادروا في الصباح الباكر، وكانتِ الساحة المَكسوّة بالحصى مبلّلة بالندى. تطلّع إليهم روكّو العجوز وهم يغادرون، وهو يدفع بأنبوبٍ صغيرٍ في البركة.

– سنعود لزيارتكم – صرخوا – فبفضل الطريق العامّ، لا نستغرق الكثير من الوقت.

– ونحن سنأتي إلى ميلانو أيضًا – صرخت گابريلّا من على حافّة المنحدر.

---

*) نوع من المشروبات الكحولية، بنسبة عالية من الكحول. (المترجم).

دخل پولي إلى الصالة فور مغادرتهم. بقينا نتمشّى في الساحة المَكسوّة بالحصى، وننظر إلى الأشياء من حولنا. رأيتُ شالًا مبقّعًا كرقعة الشطرنج، معلّقًا على غصنٍ واطئ. تعثّرتُ بقدحٍ مُلقَى على الحصى، ما زال سليمًا. ولم أكن أجرؤ، تحت ضوء الصباح، على النظر في عينَي گابريلّا. في حين كان الصمت يلفّ أوريسته، وهو يضع يَدَيْه خلف ظهره.

– أناس حمقى، شبّان ميلانو– قال پيرَتّو.

ارتسمتْ على وجه گابريلّا ابتسامة مجهَدة.

– كم أنتَ سطحي! ربمّا هم يقولون عنّا الشيء ذاته.

– إنمّا الذنب ذنب الرجال – قال پيرَتّو – بوسعكَ معرفة الرجل من النّساء اللواتي يسعى وراءهنّ.

– وأنتَ، ألا تسعى وراءهنّ؟ – ردّ أوريسته.

– اسمعا – صاحتْ گابريلّا – احسما الأمر فيما بينكما، أمّا أنا، فسأخلد إلى الراحة.

نأتْ عنّا، تشقّ هواء الصباح النقي. عدنا إلى الصالة، وبدا لي مستحيلًا أن نعود إلى الوضع الذي كنّا عليه من قبل، فقد تغيّر شيء ما. مَنْ سيُعلن عن نيّتنا في المغادرة؟ أحسستُ كما لو أنّ أحدهم قد ودّعنا، وكأنّنا غادرنا المكان نحن أيضًا.

كان ينبعث من فوضى الصالة رائحة الأماكن المغلقة، وعطر الأزهار. شممتُ رائحة الشموع، ورأيتُ سيجارة يحترق آخر ما تبقّى منها، في أحد الأطباق.

– لقد وجدتُ پينوتّا تبكي في المطبخ، في أثناء الليل، لأن ليس ثمّة مَنْ يراقصها – قال أوريسته.

بقينا جالسين على المقاعد، وكنتُ أعدّ نفسي لألم الرأس الذي ينقضّ عليّ، إذ شعرتُ به يتسلّل إلى رأسي.

– احتسِ النبيذ – قال پيرَتّو – سينفعكَ.

ثمّ سكب لنفسه في قدح صغير. أخذنا نتحدّث عن الذهاب إلى السوق، لشراء بعض الأشياء. أعجبتْنا الفكرة.

– على الأقلّ، نساعد پينوتّا – قلتُ.

صعدتُ إلى غرفتي لأجلبَ سترتي. وبينما كنتُ أمرّ في الممرّ، حيث تنتشر رائحة الستائر والشمس، إذ سمعتُ أحدهم يسعل ويبصق البلغم ويحشرج. كان ذلك في غرفة پولي. مددتُ يدي إلى مقبض الباب، فانفتح، رأيتُ پولي على السرير، ببيجامته، فرفع رأسه وهو يلتقط أنفاسه. كان يمسك بيده منديلاً ملطّخًا بالدم، ثمّ وضعه على فمه.

وقفتُ متحيّرًا، وكان هو يتطلّع إليّ بعينَيْه المنتفخَتَيْن الذابلَتَيْن.

– لا أفهم ما يجري – تمتم بأنفاس متقطّعة.

قام بحركة ليُخبّئ يده، لكنّه فتحها. يده أيضًا كانتْ ملطّخة بالدم.

– هذا ليس قيئًا – قال – گابريلاّ ...

وجدتُ گابريلاّ في غرفتها، ركضتْ وهي تضع روبها. نظر إليها پولي بدهشة عند دخولها، ثمّ عبس كطفل مُعاقَب.

– لا أشعر بالألم – قال – أنا فقط أبصق دمًا.

نادينا أوريسته وپيرَتّو، كانتْ گابريلّا تدور حول پولي بحركات سريعة. كلّ ما جرى في تلك الأيّام – النظرات، الكلمات والتباس المشاعر – كان يضطرم في عينَيْها كالحمّى. ولم تفارق الحدّة قسمات وجهها طوال الوقت.

قام أوريسته بفَحْص پولي، بصمتٍ وحرص، وهو يعضّ على شفته.

– هيّا نخرج من الغرفة – قال پيرَتّو – لنتركهما في خلوتهما.

– مَنْ كان يتصوّر أنّه مصاب بمرض السّلّ؟ – تساءلنا فيما بيننا حينما أصبحنا في الصالة.

– لا دهشة في ذلك، إذا ما تأمّلتَ طريقته في العيش – قلتُ – بل لا بدّ أنّه يعرف بالأمر.

– ما هذا الهراء؟ – صاح پيرَتّو – لو كان يعلم بالأمر، لما أهمل نفسه دون علاج.

يبدو لي پيرَتّو ساذجًا، في بعض الأحيان. فبيّنتُ له أنّ معرفة الشّخص بحالته الصّحّيّة ليس كافيًا لجعله يقرّر فعل شيء من عدمه. ثمّ قلتُ له إن پولي، على ما فيه من خفّة عقل، فهو شخص كئيب دائم العزلة والتّأمّل، كأولئك الأشخاص الذين من شدّة تدبّرهم في الأشياء، تتكوّن لديهم سابق معرفة بما سيحلّ بهم.

– وهلْ كنتَ على درايةٍ بأمر گابريلّا؟ سألتُ پيرَتّو.

– ماذا تعني؟

– أعني أنّها عاشقة ولهانة.

قال إنّه أحسّ بذلك، ثمّ سأل:

– ومَنْ هو سعيد الحظّ؟

نزلَ الجميع إلى الصالة، حتّى پولي. بدا عليه الضجر، أكثر من أي شيء آخر. عيناه غائرتان في وجهه الشاحب. قال، بصوته المعتاد، أن لا داعي للاضطراب والقلق، وإن العالم مليء بأناس ينزفون دمًا من أنوفهم، لكنْ؛ مَنْ لديه رغبة في العيش، فالحياة كلّها بين يَدَيْه.

أوضح أوريسته، بملامح باردة، أنّ المرض، بلا شكّ، قد أصاب پولي منذ زمن، واستغرب كيف أن الأطبّاء في المستشفى لم يكتشفوا ذلك. كان يتحدّث دون أن ينظر إلى گابريلّا.

– يجب أن تذهب إلى الطبيب على الفور – قال له – عليكَ أن تعود إلى ميلانو.

قالتْ گابريلّا – عندئذٍ – إنّها ستنزل إلى البلدة لإجراء اتّصالٍ هاتفي.

– سأذهب أنا بالدّرّاجة الهوائية – اقترحتُ.

– خذني معكَ – قالتْ گابريلّا – أريد أن أتحدّث إلى أبيه.

ولمّا لم أكن قادرًا على حمل شخصٍ معي، على الدّرّاجة، في المنحدرات، فقد تحوّلت المهمّة إلى أوريسته، كما يُفترض أن يكون. غادرا على الدّرّاجة، طوّقها أوريسته بذراعَيْه، وخدّه يلامس كتفها.

– ما رأيكم أن نشرب وننسى الأمر؟ – قال پولي ضاحكًا، حين عدنا إلى البيت – في الأحوال كلها، لن يحصل ما هو أسوأ.

احتسى على مهل من قدحه، وكان وجهه داكنًا وباسمًا. خطرتْ في ذهني تلك الليلة البعيدة فوق التلال، حينما ظهرتِ السّيّارة الخضراء، فجأة، في الشارع المحفوف بالأشجار.

– هذا ما كان ينقصني، أن يعرف أبي بشأن مرضي – قال پولي – لحسن الحظّ، لن يطول بي الأمد.

زجره پيَرَتّو قائلًا له ألّا يتفوّه بتلك الحماقات.

– وهل سيُغيّر ذلك من الأمر شيئًا؟ – قال پولي بصوت خافت. سعل ورفع يده يتحسّس فمه، ثمّ تناول سيجارة.

– كفّ عن التدخين – صاح پيَرَتّو.

– أنتَ أيضًا مثلهم؟ – قال پولي، ووضع السيجارة جانبًا، دون أن يُشعلها – إن الخطايا الصغيرة هي التي تصنع الأيّام. وإنه لمن المثير أن تغامر بحياتكَ من أجل عادات سيّئة صغيرة، وأشياء تافهة. ثمّة أشياء في هذا العالم لا بدّ من استكشافها.

– إن العالم شاسع – قال پيَرَتّو، وأفرغ القدح في جوفه.

كنّا ثملين بعض الشيء حين عاد أوريستو وگابريلّا، وكان پولي يقول، بصوت مرتجف، إن الحياة سهلة حين تُفلح في التّحرّر من أوهامها. نصحه أوريسته بأن يأخذ قسطًا من الراحة، استعدادًا للسفر، في حين جرّدتْه گابريلّا من القدح الذي كان بيده، وطلبتْ منه أن يضطجع. ثمّ أخذتْ تطوف في البيت، برفقة پينوتّا، وطلبتْ منّا أن نساعدهما في تفريغ بعض الخزانات وحزم الأغراض. وكان أوريسته يرافقها من مكان إلى آخر، بوجهٍ عابس.

وصلتِ السّيّارة بعد انتصاف النهار، وكانتْ السّيّارة الخضراء ذاتها، يقودها شابٌّ يرتدي لباس السّوّاق الخاصّ.

– كان السّيّد الكومنداتور خارج ميلانو. – قال الشّابّ بنبرة مهذّبة.

طلبتْ منه گابريلّا أن ينقل الحقائب إلى السّيّارة.

جلسنا إلى المائدة، وتناولنا الطعام بصمت. نهضتْ گابريلّا، وتحدّثتْ إلى العجوز روكّوَ. خرجتُ وحدي، وجلستُ على حافّة المنحدر، أتطلّع إلى السهل والسفوح البرّيّة الموحِشة. كانت ثمّة غيومٍ بيضاء كبيرة في السماء العذبة، والهواء محمّل بروائح الفواكه.

ركبنا السّيّارة، جلسنا نحن الثلاثة في المقعد الخلفي. لم يتفوّه پولي بكلمة واحدة، لكنّ ما أدهشني أنه لم يطلب من السائق أن يترك له قيادة السّيّارة. كان أوريسته قد علّق بندقيّة الصيد على كتفه، وأمسك بدرّاجته المسندة على موطئ القدم على جانبَي السّيّارة.

هبطنا تلّ الگريبّو، ووصلنا السفح، ولم يخطر بذهني أن ألتفت ورائي. دخلنا في نقاش من أجل إرشاد السّائق إلى الطريق التي تقود إلى بلدة أوريسته. قطعنا طريق التلال – في صعود وهبوط – في بضع دقائق، ووصلنا إلى محطّة القطار المحاطة ببيوت مليئة بالأزهار، أمام التلال المألوفة. أحسستُ أنيّ أعرف تلك التلال منذ زمن بعيد. نزلنا عند المزلقان، قبالة الطريق الواسعة والمبلّطة، والتي تحفّ بجانبَيْها الحواجز الحديدية. تمازحنا وتبادلنا بعض الكلمات، خفّت حدّة قسمات گابريلّا، وتبسّمتْ للحظات. لوّح پولي بيده مودّعًا.

انطلقتْ بهما السّيّارة، وتوجّهنا نحن صوب مزرعة الطّاحونة، لنحتسي النبيذ.

عن المؤلف

تشيزَره باڤيزِه: روائي وشاعر ومترجم وناقد أدبي إيطالي. ولد في العام 1908. بعد تخرجه من كلية الآداب اشتغل باڤيزِه بالتدريس لفترة قصيرة. كتب الشعر والقصة القصيرة واشتغل بترجمة الأدب الأمريكي لصالح دار النشر "إيناودي"، الذي أصبح أحد أعمدتها لاحقاً، وترجم لهم الكثير من الكتاب الأمريكيين غير المعروفين إلى الإيطالية.

اعتقل في العام 1953 بتهمة النشاط المعادي للفاشية وقضى عاماً في المعتقل. في العام 1946 انضم إلى الحزب الشيوعي.

بعد الحرب تفرغ تماماً للنشاط الأدبي ونشر الكثير من الروايات والمقالات الأدبية حول علاقة الأدب والمجتمع. ونال تقديراً واسعاً من جمهور النقاد والقراء الإيطاليين.

يصفه **إيتالو كالفينو** قائلاً: "باڤيزِه هو الكاتب الإيطالي الأهم، والأكثر عمقاً، والأشد تعقيداً في زماننا. وليس من صعاب تواجهنا إلا وحذونا حذوه». أما **أومبرتو إكو** فيقول عنه: "كان باڤيزِه أحد الكتاب الأساسيين الذي قرأتهم في مرحلة الشباب، وقد أثر بي بلا شك، ربما ليس من ناحية الأسلوب، ولكن من ناحية المخيلة الأدبية".

في ذروة نشاطه ونجاحه، وبعد حصوله على جائزة "ستريغا" أعرق وأرقى الجوائز الأدبية الإيطالية عن ثلاثيته الروائية "الصيف الجميل"، وجد ميتاً في غرفة فندق في مدينة تورينو مع زجاجة حبوب منومة فارغة.

في الرواية الأولى من ثلاثية

الصيف الجميل

جينيا، فتاة ساذجة تعمل في محل خياطة، تجتاز ذات صيف فترة المراهقة وتدخل في مرحلة الشباب وصخبه وعوالمه المليئة بالمغامرات والأسرار. تتعرفَ على أميليا، أكبر منها سناً، وأوسع خبرة في العلاقات الاجتماعية، تعمل كـ «موديل» للرسامين. تصحب أميليا جينيا إلى عوالمها الخاصة، وهناك تقع جينيا في غرام «غويدو» الرسام الشاب. كيف تتعامل جينيا مع غرائزها وجسدها المندفع للنضوج، والمقيد بخجلها وخوفها؟ وكيف ترتب أفكارها وأحلامها وخيباتها في زوايا رأسها؟ ما هي المغامرات التي تواجهها جينيا المراهقة في رحلتها الصيفية نحو النضوج؟ كيف سينتهي الصيف الجميل والمليء بالأحداث المثيرة، وإلى أين سيأخذ بتلك الفتاة البسيطة؟

«باڤيزه هو الكاتب الإيطالي الأهم، والأكثر عمقاً، والأشد تعقيداً في زماننا. وليس من صعاب تواجهنا إلا وحذونا حذوه»

إيتالو كالفينو

تحكي «الشيطان فوق التلال» أيضاً، قصَّة صيف، صيفِ طُلَّابٍ مُراهقين تسمَرُّ جلودُهم تحت شمس تورينو المُلتهبة، حيثُ يستحمُّون عراةً ويثرثرون عن مُتعِ الصَّيد ومغازلةِ الفتيات الجميلات، فوق تلِّ الگريبّو. في حين يسعى پولي، الشاب المُترف، للبحثِ عن معنى لحياته، بإدمانِ الكحول وتعاطي المخدّرات في فيلته على قمَّةِ التلّ، كما لو أنَّه يملأ فراغاً هائلاً في روحه. المَلَلُ، الخيانةُ، المشاعر المضطربةُ، كلُّها تبرزُ كقرون للشَّيطان في حياةٍ شبه أسطورية، عندما تتقاطعُ مصائرُ الجميع، في صيفٍ تُلهبُ فيه الشمسُ الغرائزَ، وتفوحُ منهُ رائحةُ الدَّم والموت.

الرواية التي حوَّلها المخرج الإيطالي ڤيتوريو كوتافاڤي إلى فيلم، بالعنوان ذاتِه، وعُرض في مهرجان «كان» العام ١٩٨٥؛ هي اللَّوحة الثانية من ثلاثيةِ باڤيزه، والتي رسمها الكاتبُ الكبير بحسٍّ عالٍ ودِقَّةٍ مُتناهيةٍ، قبل أن يضعَ حدّاً لحياته.

الناشر

ISBN 978-88-32201-31-4
9 788832 201

المتوسط

مكتبة نوميديا

1680دج